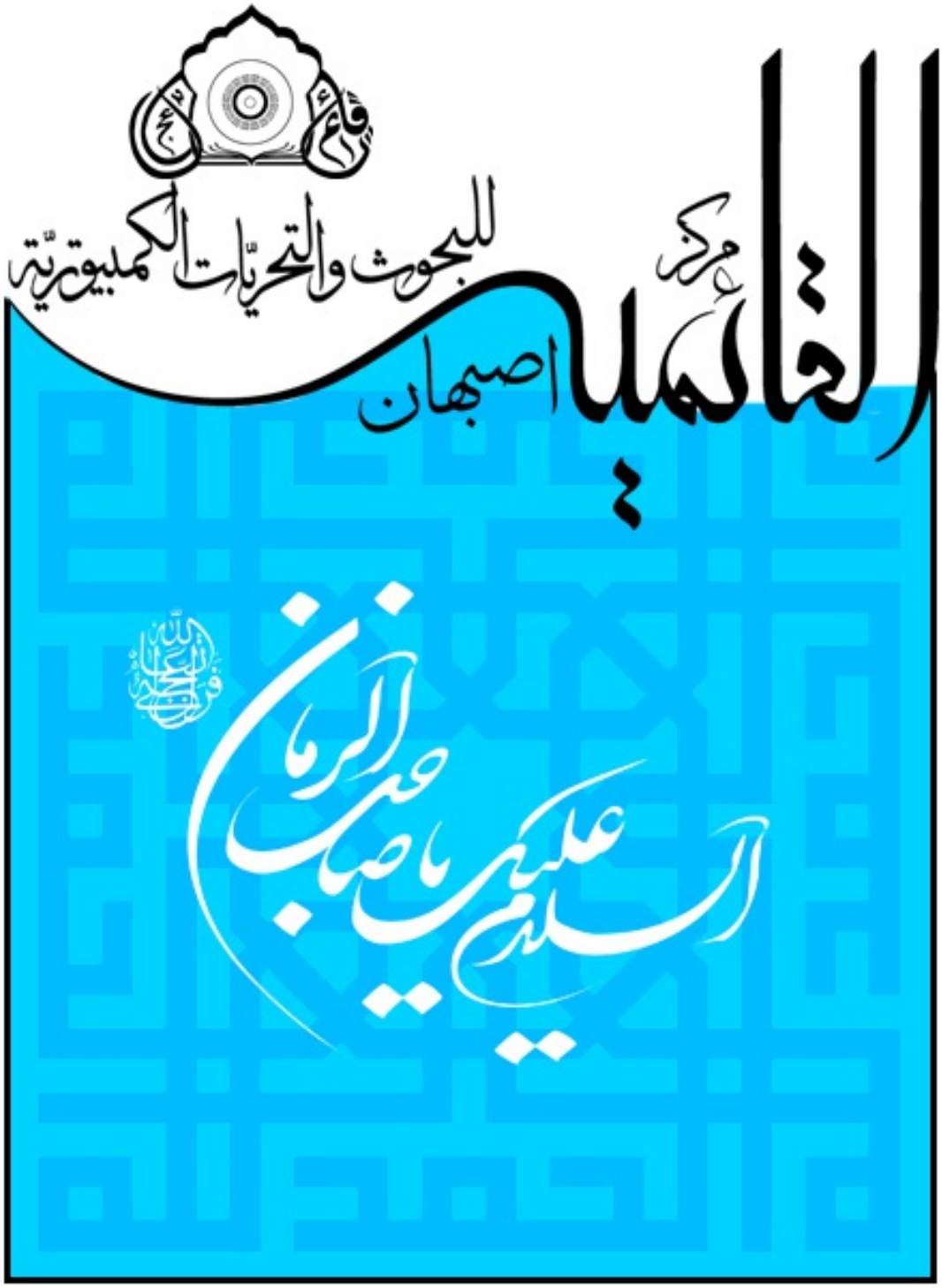

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

من بلاغة القرآن

تأليف
أحمد أحمد بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة القرآن

كاتب:

احمد احمد بدوى

نشرت فى الطباعة:

نهضة مصر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
من بلاغة القرآن ----- ۹
اشارة ----- ۹
الإهداء ----- ۹
المقدمة ----- ۱۰
الكتاب الأول ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
مقدّمات تمهيدية: ----- ۱۱
العمل الأدبى ----- ۱۱
مجال الأدب بين مظاهر الشعور ----- ۱۵
علوم البلاغة و النقد الأدبى ----- ۱۹
القراءة الأدبية ----- ۲۱
المنهج الأدبى فى القرآن ----- ۲۷
إعجاز القرآن ----- ۳۱
الفصل الأول ألفاظ القرآن ----- ۳۵
البلاغة و النظم: ----- ۳۵
تخير اللفظ ----- ۳۷
الفاصلة «۱» ----- ۴۵
الغريب ----- ۵۲
المعرب ----- ۵۴
*** الزائد ----- ۵۵
الفصل الثانى الآية القرآنية ----- ۶۰
تكونها: ----- ۶۰

التقديم و التأخير ----- ۶۳
الذكر و الحذف ----- ۶۶
التنكير و التعريف ----- ۷۱
الإفراد و التذكير و فروعهما ----- ۷۶
التوكيد و التكرير ----- ۷۸
القصر ----- ۸۴
الاستفهام ----- ۸۷
الأمر و النهى ----- ۸۹
التمنى و الترجى ----- ۸۹
النداء ----- ۹۰
القسم ----- ۹۰
الفصل و الوصل ----- ۹۲
بدائع القرآن ----- ۹۶
التشبيه فى القرآن ----- ۹۹
«كذلک» فى القرآن الكريم ----- ۱۱۰
التصوير بالاستعارة ----- ۱۱۳
مجازات القرآن ----- ۱۱۶
الكناية و التعريض ----- ۱۱۷
الفصل الثالث السورة ----- ۱۱۸
الفصل الرابع أسلوب القرآن ----- ۱۲۵
الكتاب الثانى ----- ۱۲۸
اشارة ----- ۱۲۸
الفصل الأول المعانى القرآنية ----- ۱۲۸
اشارة ----- ۱۲۸

اللّه ----- ۱۲۸
محمد ----- ۱۳۶
القرآن ----- ۱۴۱
یوم القیامة ----- ۱۴۵
الجنة ----- ۱۵۰
النار ----- ۱۵۳
الجهاد ----- ۱۵۶
المعارک الحربیة ----- ۱۶۰
الإنسان المثالی ----- ۱۶۵
الحیاة الدنیا ----- ۱۶۸
عبادة الأوثان ----- ۱۶۹
العقائد و العبادات ----- ۱۷۱
الأحکام ----- ۱۷۵
مظاهر الطبیعة ----- ۱۷۷
المدح ----- ۱۷۹
الهجاء ----- ۱۸۰
العتاب ----- ۱۸۲
مصرفی القرآن ----- ۱۸۲
القصة فی القرآن ----- ۱۸۴
الجدل ----- ۱۸۶
الابتهال ----- ۱۸۹
بعض صور الحیاة الجاهلیة ----- ۱۸۹
الفصل الثانی موازنات ----- ۱۹۳
خاتمة ----- ۱۹۹

مراجع البحث ---------- ۲۰۰

الفهرس ---------- ۲۰۳

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۲۰۶

من بلاغة القرآن

اشارة

نام كتاب: من بلاغة القرآن

نويسنده: احمد احمد بدوى

موضوع: اعجاز بيانى

تاريخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱

ناشر: نهضه مصر

مكان چاپ: القاهرة

سال چاپ: ۲۰۰۵

نوبت چاپ: بى‌نا

سرشناسه : بدوى، احمد احمد

عنوان و نام پديدآور : من بلاغه‌القرآن/ تاليف احمداحمد بدوى.

مشخصات نشر : قاهره: نهضه مصر، ۲۰۰۵م.= ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى : ۲ج. در يک مجلد (۳۰۶ ص).

شابک : ۹۷۷-۱۴-۲۵۰۷-۲

وضعيت فهرست نويسى : برون‌سپارى.

يادداشت : عربى.

يادداشت : كتابنامه: ص. ۳۰۱ - ۳۰۴؛ همچنين به صورت زيرنويس.

موضوع : قرآن -- مسائل ادبى

موضوع : قرآن-- مسائل لغوى

رده بندى كنگره : BP۸۳/ب۴م۸ ۱۳۸۴

رده بندى ديويى : ۲۹۷/۱۵۳

شماره كتابشناسى ملى : ۱۱۶۱۷۹۱

الإهداء

إلى روح أبى ...

أبى: قضيت عمرك الطاهر فى خدمة كتاب اللّه، لا تمل قراءته، تفسره لتلاميذك فى معهد الدرس، و تتدارسه مع صحبك فى بيتك، و كثيرا ما كنت أشهد طرفا من ذلك منذ حداثتى، و كانت الغبطة تملؤنى كلما فهمت تفسير آية، أو أدركتا جمال تعبير، أو أشركتنى فى المناقشة، و سألتنى فأجبت، أو سألتك فشرحت و وضحت، و لم يكن عندك فى عهدك الأخير ما يشغلك عن تلاوة القرآن و

تفهم معانيه، فعساك ترضى عن هذا الجهد الذى أساهم به فى الكشف عن بلاغة القرآن و إدراك سر إعجازه.

و إلى روحك الطاهرة فى جنة الخلد، أهدى هذا الكتاب.

من بلاغة القرآن، ص: ۵

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و به نستعين

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، و الصلاة و السلام على رسوله النبى الأمىّ الذى يؤمن باللّه و كلماته.

و بعد: فإن دراسة النص الأدبى دراسة كاملة تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التى هى المفردات، لتبين مدى الإصابة فى اختيارها، و مدى تمكنها فى موضعها من جملتها، و قوة ربطها بأخواتها، و قديما قال القدماء و أصابوا: إن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما.

فإذا ما درست المفردات هذه الدراسة الفنية، درست الجملة فى النص، لإدراك سر قوتها و جمالها، و هنا المجال فسيح أمام علوم البلاغة الاصطلاحية، التى تدرس أسباب الجمال فى تكوين الجملة العربية، فتبحث لم قدّم هذا الجزء من الجملة، و لم أخر ذاك، و لما ذا حذف هنا، و أثبت هناك، و لم جاء هنا التعريف، و هناك التنكير، و لم استخدم الخبر فى موضع الإنشاء، و لم عبر هنا بالمجاز، و كيف جمل هنا التشبيه، و راق فى هذا الموضع الجناس، إلى غير ذلك من أبحاث تتصل بالجملة و الجملتين.

و نمضى بعدئذ إلى دراسة النص برمته، ننظر إليه وحدة متصلة الأجزاء، فنرى مدى ارتباط بعضه ببعض، و مدى تضافر أجزائه على رسم الصورة التى يريد النص توضيحها، و مدى الإصابة فى ترتيب هذه الأجزاء، كى يؤدى سابقها إلى لاحقها، حتى إذا تم النص صارت فكرته واضحة فى النفس، جلية مؤثرة.

و لا بدّ من دراسة المعانى التى حواها النص، لمعرفة القوى منها و الضعيف، و ما له دخل فى تكوين الصورة و ما هو دخيل، و كيف نضّدت هذه المعانى و نسقت، حتى التأمت وحدة تنبض بالحياة.

لا نقف إذا من دراسة النص عند حد التأمل فيما أودعه من تناسق لفظى، أو جمال فى الأسلوب، و لكن لا بدّ من دراسة ما بين اللفظ و المعنى من تآخ و تناسب، و دراسة ما اختير من المعانى، لمعرفة مدى تأثيرها فى الفكر، و إثارتها للوجدان، فإن النفس الإنسانية تنقاد بهما، و تخضع لهما.

من بلاغة القرآن، ص: ۶

و القرآن الكريم أمة وحده فى البلاغة العربية، فأردت أن أتبين بعض أسرار سموه، عساى أدرك سبب ما كان له من تأثير فى النفوس، و سلطان على القلوب، و قد سرت فى دراستى على هذا المنهج الذى تحدثت عنه؛ فقسمت البحث كتابين، خصصت الكتاب الأول منهما بدراسة البلاغة فى اللفظ و الأسلوب، و خصصت الثانى بدراسة المعانى، فبدأت بمقدمات تمهيدية تحدد معنى الأدب، و تبين ميدان عمله فى النفس الإنسانية، و كيف نقرؤه قراءة صحيحة نافعة مؤثرة، و تدرس العلوم التى يحتاج إليها الأديب منتجا أو ناقدا، و تشرح المنهج الأدبى فى القرآن، و تعرض وجوه إعجازه، لبيان الرأى الذى نختاره من بينها، ثم عقدت فصلا لدراسة اللفظة المفردة فى القرآن، تناولت فيه كيف تخيرت هذه الألفاظ تخيرا دقيقا، لتدل على معانيها فى دقة و إحكام، و كيف تقع الفاصلة من الآية موقع الجزء الذى به تمام المعنى و وفاؤه، و حددت معنى الغريب و الزائد و ما فى استخدامهما و استخدام المعرب من ألوان البلاغة، و فى الفصل الثانى طبقت تطبيقا فنيّا ما وعته علوم البلاغة الثلاثة، متجنبا كل التجنب المناقشات الفلسفية، البعيدة عن روح البلاغة، و التى كانت سببا فى وأد الروح الفنى حينا طويلا من الزمن، و تحدثت فى الفصل الثالث عن السورة، لتبين منهجها و مدى وحدتها، محللا بعض السور، كى تتضح الفكرة و تنجلى، و ختمت الكتاب الأول بفصل عن دراسة أسلوب القرآن، أتبين ما أستطيع أن أتبينه من خصائص هذا الأسلوب، و إنى أقرر أن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى المعاودة مرة أخرى، لتعرف ألوان الأساليب القرآنية

و تصنيف هذه الألوان، تبعا للمعانى التى تناولتها، لمعرفة خصائص كل لون على حدة، فيدرس مثلا أسلوب السور المدنية، و أسلوب الأحكام، و أسلوب القصص، و أسلوب الوصف، و هكذا، و يوازن بين كل نوع و صاحبه، و مثل هذه الدراسة المجدية تحتاج إلى إنعام نظر، و صبر، و أناة، و طول وقت، مما أرجو أن يوفقنى اللّه إليه فى القريب إن شاء اللّه.

و خصصت الكتاب الثانى بدراسة بعض المعانى القرآنية، فدرست كيف تناول القرآن هذه المعانى؟ و ما الذى عنى به من بين عناصرها؟ و كيف تناول هذه العناصر؟ ليؤثر فى النفس الإنسانية، و لم كان هذا التأثير خالدا؟.

و اللّه المسئول أن يوفقنا إلى الصواب، و أن يهدينا سواء السبيل.

حلوان الحمامات فى:

۴ صفر سنة ۱۳۷۰

۱۴ نوفمبر سنة ۱۹۵۰

من بلاغة القرآن، ص: ۷

الكتاب الأول

اشارة

من بلاغة القرآن، ص: ۹

مقدّمات تمهيدية:

العمل الأدبى

يقف الأديب عند سرير جندى جريح، عائد من ميدان القتال، فيثير فيه منظره معانى شتى، للبطولة و التضحية، أو يدخل مصنعا، قد انصرف فيه كل عامل إلى آلته، و مضت الآلات فى عملها تنتج مسرعة، فيوحى إليه ما يراه، بخواطر عن الدأب، و النظام، و التقدم، و يحاول أن يسجل إحساسه إزاء ما رأى و أن ينقل هذا الإحساس إلى غيره، فينشئ مقالة، أو يقرض قصيدة، أو يؤلف قصة أو رواية، و يغضب الخطيب لأمر، فيحاول نقل غضبه فى خطبة إلى سامعيه، و يختار لذلك ألفاظه و أساليبه، بحيث تنقل إحساسه نقلا صادقا غير منقوص.

هذه المقالة، أو القصيدة، أو القصة، أو الرواية، أو الخطبة، هى العمل الأدبى فهى الصلة بين الأديب و السامع أو القارئ، و بها انتقل إحساس الأول إلى الثانى.

و نستطيع أن نعرّف العمل الأدبى بأنه «التعبير عن تجربة للأديب بألفاظ موحية» و التعبير بالألفاظ، هو الذى يميز الأدب من باقى الفنون الجميلة؛ لأن الأدب يعبّر باللفظ، بينما تعبر الموسيقى بالصوت، و الرسم باللون، و النحت بالحجارة.

و نعنى بالتجربة كل ما جربه الأديب، و مر بنفسه من شعور، سواء أ كان حقيقيّا أم متخيلا، فقد تكون حادثة صادفت المنشئ فى حياته، أو صادفت غيره، و قد تكون قصة سمع بها، أو منظرا رآه، أو فكرة عرضت له، أو وهما مر بخياله، و من هنا كان كل شىء فى الحياة صالحا لأن يكون مادة للأديب، يتخذ منها صورا لبيانه، على شريطة أن يكون قد امتزج بشعوره، و ملك عليه جوانب نفسه، و دفعه إلى الكلام، و لهذا وجب أن يكون فى التجربة أمر غير عادى مألوف، و أن تكون ذات قوة ممتازة، و شدة خاصة؛ حتى تبعث فى الأديب القوة الضرورية، لمجهود أدبى، يستطيع به أن يصف التجربة، فى صدق و دقة، و إتقان و براعة، و بذلك يستطيع أن يبعثها مرة أخرى فى نفوس قارئيه، أو سامعيه.

هذا، و إن الحقائق العلمية قد يمزج بها الأديب إحساسه، و ينقلها بهذه الصورة إلى القارئ، فتصبح عملا أدبيّا رائعا.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰

إن التجربة لا تكون بسيطة أبدا، بل لا بدّ أن تكون مكونة مما تحمله الحواس إلى الفكر، و مما يأتى به الفكر نفسه من معان، يدعو بعضها بعضا؛ فالواقف أمام نهر النيل مثلا، لا تنقل إليه حواسه لون مائه، و حركة موجه، و ما على جانبيه من حقول فحسب، بل تنقل إليه أيضا رقة النسيم، و لون السماء، و ما قد يكون فيها من سحاب، و هو يضيف إلى ذلك إحساسات أخرى، ولدها خياله، كموازنة هدوئه بالبحر و ثورانه، و قد يطوف هذا الخيال بينابيعه، و بالشعوب التى تعيش على ضفافه، أو يعود متوغلا فى القدم، فيذكر ما قام على شاطئيه من حضارة و مدنية، فإذا كانت تلك اللحظة الشعورية قوية، تتطلب التعبير عنها، فإن الأديب يستخلصها من بين ما يمر به من التجارب، و يحتفظ بها فى نفسه، و كلما احتفظ بها ازدادت غنى، بما ينضم إليها من ألوان الإحساس، و بتداعى المعانى، فإذا أراد أن ينقل تجربته إلى غيره، وجب أن ينقلها كاملة، فلا نكتفى منه بأن يصور لنا المنظر الذى رآه، أو يذكر الإحساس الذى خالطه عند ما رآه، بل يجب أن يؤدى تجربته كاملة الأجزاء، لما شاهده و ما أحسه معا، مرتبطين ارتباطا وثيقا، حتى يحس بها القارئ إحساسا كاملا و تنتقل إلى شعوره، فيتخيلها كما أدركها منشئها، و بمثل هذا التناول يخلد الأديب لحظة من لحظات شعور مرت به فى حياته.

إن فى الإنتاج الأدبى لعملا إراديّا للأديب، ذلك أنه يتناول تجربته، و هى مكونة من أجزاء، فيرتبها ترتيبا منسقا، ثم يأخذ فى إيضاح سلسلة خواطره، واحدا واحدا، على أن يكون لكل خاطر منها دخل فى تصوير التجربة و إكمالها، فيكون له وجود من أجل نفسه، و وجود من أجل الكل الذى هو جزء منه، و بجمع هذه الأجزاء، تصير التجربة وحدة متسقة، و كلا موحدا، يتصل كل جزء فيها بسائر الأجزاء، أما إذا كان بعض الأجزاء لا دخل له فى تكوين الصورة، و لكنه جاء بطريق الاستطراد، أو لم تكن التجربة مسلسلة الخواطر، يرتبط بعضها ببعض، فإنها تنقل إلى السامع مشوهة، لا صلة بين أجزائها و لا اتساق، و هاك تجربة لقتيلة بنت الحارث، و قد أخذت تعاتب الرسول، لقتله أخاها النضر، برغم قرابته له، و اتصاله بنسبه:

أ محمد يا خير ضنء «۱» كريمةفى قومها، و الفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت، و ربمامنّ الفتى، و هو المغيظ، المحنق

و النضر أقرب من أصبت وسيلةو أحقهم، إن كان عتق، يعتق

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشهللّه أرحام هناك، تشقق

---

(۱) الضنء بالفتح الولد و يكسر.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱

فقد بدأت حديثها معه تناديه باسمه، نداء القريب، الذى لا كلفة بينك و بينه، مشعرة إياه بشدة الصلة بينهما، حتى لكأنها توحى إليه، بأن هذه القرابة القريبة ما كانت تنتظر على يده هذا المصير، ثم انتبهت إلى مكانة الرسول فى قومه، فنادته واصفة بما يتفق مع هذه المكانة، و كأن قلب الأم، الذى فى كل أنثى، دفعها إلى أن تصفه بأنه خير ابن، لأم كريمة فى قومها، و أب عريق فى الشرف، حتى إذا انتهت من استرعاء سمعه، بهذا النداء، أخذت تسأله سؤال الموجع، الموقن بأن حكم القضاء قد تم، و لا سبيل إلى استرجاعه، فاستخدمت لذلك هذا الاستفهام الحزين، الموحى بأنه لم يكن ثمة خطر فى إطلاقه، فضلا عما فى هذا الإطلاق، من مكرمة المن. و أتت بكلمة «لو» المشعرة بالأسف، لدلالتها على امتناع وجود الفعل، و ما كان أدق ذوقها فى اختيار كلمة «ربما» الدالة على حسن الأدب، و التماسها العذر للرسول، و تلميحها إلى ما فى العفو، برغم الغيظ و الحنق، من مثل أعلى، جدير بالاقتداء، حتى إذا انتهت من ذلك، لمست من الرسول صلّى اللّه عليه و سلم موضع العطف، فذكّرته بقربه منه، و استحقاقه أن يظفر برعايته، ثم انتقلت من ذلك إلى تصوير هذا القريب، الجدير بالود، أو بالمنّ، و العتق- هدفا لسيوف أقربائه، تتناوله بأطرافها، فتمزق بتمزيق أديمه، القرابة و تقطع

أواصرها.

و هكـذا، كان كل جزء له أثره، فى نقل هـذه التجربة التى ملكت نفس قتيلة، و نجحت فى إيصال ألمها للسامع، حتى روى أن الرسول بكى، و قال: لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته.

نسـتطيع أن نسـمى التجربـة التى تسـيطر على الأديب، و تدفعه إلى التعبير عنها بالإلهام، و كلما عظم هذا الإلهام، احتاج إلى قوة كبيرة، تسـتطيع التعبير عنه تعبيرا يمثله تمثيلا صادقا، و لـذا كان كبار الأدباء ذوى سـلطان على اللغة، و قدرة قديرة على التعبير، فاسـتطاعوا أن ينقلوا إلينا من التجارب أعظمها و أسماها.

و إن لـدى الأديب إحساسـا لغويّـا ممتـازا، يسـتطيع به أن يختـار من الألفـاظ مـا هو قوى فى تصويره، واضـح فى دلالته على مراده، و يـدرك مـا تسـتطيع الألفـاظ أن توحى به إلى القـارئ، و إن للألفاظ لوحيا يشع منها، فيملأ النفس شعورا، و يثير الوجـدان، و يحرك العاطفـة، ذلـك أن الألفـاظ قـد تراكم حولهـا بمضـى الزمن و الاسـتعمال، معـان أخرى، أكـثر من هـذه المعـانى التى نجـدها لهـا فى القـاموس، فليس ما بين يـدينا من معانى الألفاظ فى المعاجم، سوى هـذه المعانى المتبلورة، و الأديب البليغ هو من يسـتنفد ما للألفاظ من معان، أضفاها عليها الزمن، فتثير

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲

فى النفس أعمق الإحساسـات، و تملأ الخيال بشتى الصور، و إذا شـئت فانظر فى القاموس إلى معانى كلمات: أم طفولـة، و مدرسـة، و وطن، مثلا، فالأم فى اللغـة هى الوالـدة، و لكن هـذا اللفظ يثير فى النفس، إذا سـمع، أسـمى معانى الحب و أقـدس ألوان العواطف، و أشـرف آيات الإيثار، و أعمق معانى الحنان، و ليست الطفولـة سوى وقت الصـبا فى القاموس، أما إذا سـمعت فإنها تثير تلك الخواطر، التى تحوم حول هذه الأيام النضـرة، و على هاتيك الملاعب العزيزة، و كم ذكريات تثيرها المدرسة فى النفس، حول عهود محبوبة، و آمال مرتقبـة، و أصـدقاء مختارين، بينما هى فى المعجم مكان الدراسة، أما كلمة الوطن، فقد تراكم حولها من المعانى و الذكريات ما أشار ابن الرومى إلى بعضه حين قال:

و حبب أوطان الرجال إليهممآرب، قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمعهود الصبا فيها، فحنوا لـذلكا فلا عجب أن تثير كلمة الوطن فى النفس هذه الذكريات العذبة المحبوبة، و إن أردت أن تدرك شدة وحى الألفاظ فاقرأ قوله تعالى: وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُـكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً (الحجرات ۱۲). و انظر أى كراهية و نفور، يثيره فى النفس، تخيل أكل لحم الأخ ميتا، و اقرأ قول الشاعر:

وقانا لفحة الرمضاء وادسقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحة، فحنا علىناحنو المرضعات على الفطيم

و أرشفنا على ظمأ زلالاألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنافيحجبها، و يأذن للنسيم

يروع حصـاه حاليـة العـذارىفتلمس جـانب العقـد النظيم و انظر مـا تـوحى به إلى النفس «لفحـة الرمضـاء» فإنهـا تشـعرك بهـذا الهواء السـاخن، يلفـح وجهك، و يرمض عينيك، فتكاد تضع يـدك على هـذا الوجه، تحجب بها عنه هـذه السـخونة الممضـة، و تحس كما أحس الشـاعر بفضـل هـذا الوادى عليه، فقـد حمـاه من وهـج الشـمس، و سـطوة الحر، فلا غرابـة أن يـدعو له من كل قلبه، أن يسـقيه «مضاعف الغيث». و انظر ما توحى به إلى خيالك كلمـة «دوح» من ظل ظليل، و نسيم بليل، تسـكن إليه النفس، بعد لفحة الرمضاء، و تخيـل «حنو المرضـعات» و ما يثيره من معانى العطف و الحنان، أما «أرشف» فتوحى إليك بهـذه المتعـة، التى يحس بها الظمآن، لفحه حر الشمس، فأوى إلى ظل ظليل و أخذ يشرب على مهل، يستمتع بالماء الزلال، و كيف يجده حينئذ، ألذّ من المدامة،

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳

و تخيل كذلك ما يثيره عندك «يروع» و الصورة التى تركتها. و كلمة «العذارى» و موضع الفاء، التى تدل على هذه الحركة السريعة، الناشئة من الروعة، و هكذا استطاع الأديب بهذه الألفاظ الموحية، السيطرة على خيالنا، و أن ينقل إلينا إحساسه و شعوره.

و لعل هذا هو السبب، فى أن علماء البلاغة، قد كرهوا استعمال الكلمات الغريبة؛ لأنها تعجز عن أن تثير فى النفس معنى قبل البحث عنها، فضلا عن أن تثير هذه الخواطر، التى تحيط بالكلمة إذا استعملت.

على أنه قد يشفع فى بعض الأحيان، لاستخدام الكلمة الغريبة، أنها وضعت فى موضع، سهّل الأسلوب فهمها، و كانت هى بجرسها موحية بمعناها، و لعل من ذلك قول شوقى:

خلوا الأكاليل للتاريخ، إن له‌يدا تؤلفها درا و مخشلبا «۱» فهذا الجمع بين الدر و المخشلب، يوحى بما بينهما من البون الشاسع، و فى حروف الكلمة الغريبة، ما يوحى بأنها تعنى شيئا حقيرا.

و الإحساس اللغوى عند الأديب هو الذى يختار اللفظ اختيارا دقيقا، بحيث يؤدى المعنى، على وجه لا لبس فيه و لا اضطراب، و هو لذلك يلحظ الفروق الدقيقة بين الكلمات، و يأخذ من بينها أمسها بمعناه، حتى تقوم بواجبها من التوصيل الصادق.

سمع ابن هرمة أديبا ينشد قوله:

باللّه ربك، إن دخلت، فقل لها:هذا ابن هرمة، قائما بالباب فقال له: لم أقل: «قائما»، أ كنت أتصدق؟. فقال: «قاعدا»، فقال: أ كنت أبول؟

قال: فما ذا؟ قال: «واقفا» و ليتك علمت ما بين هذين، من قدر اللفظ و المعنى «۲».

بل إن الإحساس اللغوى، قد يرهف و يدق، فيختار من الكلمات ما يكون بين أصواتها و بين الموضوع ملاءمة، بحيث يكون فيها تقليد للشىء الموصوف، حتى كأنه يوحى به إلى الخاطر، كما تحس بذلك فى كلمة «أرشف» من الشعر السابق، و كما اختار المتنبى كلمة «تفاوح» فى قوله:

---

(۱) الوارد فى المعاجم مخشلبة كلمة عراقية معناها خرز بيض يشاكل اللؤلؤ و الحلى يتخذ من الليف و الخرز.

(۲) الوقوف لا يقتضى الدوام و الثبوت، أما القيام فيقتضيهما.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴ إذا سارت الأحداج فوق نباته‌تفاوح مسك الغانيات و رنده فهى تدل بصيغتها، على هذه الموجات النسيمية، تحمل فى أردانها عبق المسك و الرند. و كلمة صليل فى قوله:

و أمواه، تصلّ بها حصاهاصليل الحلى فى أيدى الغوانى فهى تسمعك و سوسة المياه تداعب حصاها ..

و بعض ألفاظ اللغة، أسلس على اللسان، و أجمل وقعا على الأذن من بعض، و هو جمال ظاهرى، يساعد الأديب على إيصال تجربته، و علماء البلاغة يذكرون من صفات الألفاظ المفردة ما يصح أن تلتمسه هناك.

و فضلا عما للكلمات من خصائص يدركها إحساس الأديب، كذلك النظم فى العبارة الأدبية، يحمل معنى أكثر مما تؤديه الجملة، بجريها على النحو، فإن هناك قوى يبثها المؤلف فيها، عن غير عمد حينا و عن عمد حينا آخر، فنجده يقدم، و يؤخر، و يذكر، و يحذف، و يصل، و يفصل، و يأتى ببعض ألوان المعارف دون بعض، و حينا يدع المعرفة إلى النكرة، و آنا يستخدم أداة من أدوات الطلب مكان أخرى، أو يأتى بزخرفة فى مكانها، و قد وصل علماء البلاغة إلى إدراك كثير من هذه الأسرار، فعقدوا علما يتحدث عن خصائص الجملة و دعوه علم المعانى، و علما للخيال الذى يعقد الصلة بين الأشياء و دعوه علم البيان، و آخر لبعض ألوان الجمال، و سموه علم البديع.

و لكن خصائص النظم، لا تقف عند حد الجملة، بل إن للأساليب خصائص، فمنها ما يناسب الانفعال السريع، و الحركة المتوثبة، و منها ما يناسب العاطفة الهادئة، و الحركة البطيئة، و قد يدفع الإحساس الفنى الأديب، إلى انسجام فى النظم و موسيقى لفظية، تساعد

على الإيحاء، و إن هـذا الانسـجام و هذه الموسـيقى يصـلان إلى الذروة فى فن الشـعر، و بذلك يسـتطيع الأديب أن يصل إلى أسـمى درجات التأثير.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵

مجال الأدب بين مظاهر الشعور

يرى علماء النفس للشـعور مظاهر ثلاثة: فهو تفكير، إذا كان بحثا عن حقائق الوجود، لمعرفة أسـبابها، و استنباط قواعدها، و إدراك ما بين بعضـها و بعض من صلة أو تنافر. و هو وجدان، إذا صحبه إحساس باللذة و الألم، فالحب و البغض، و السرور و الحزن، و الرجاء و اليأس، و الخوف و الغضب، كلها وجـدانات تتصل بالنفس، فتحدث بها لذة أو ألما. و هو إرادة إذا حفز المرء إلى العمل، و دفعه إليه، كالرغبات و النيات.

و إن بين هذه المظاهر النفسية اتصالا وثيقا، لا يتأتى معه انفصال واحد عن صاحبيه، و إن كان المظهر الغالب لأحدها. فمن المحال أن نجـد ألما فى أنفسـنا من غير أن نبحث عن سـببه، و نبذل طاقتنا فى سبيل إبعاده. و يسـتحيل أن نفكر فى عمل عقلى، من غير أن نشـعر بارتياح إذا سهل الأمر و انقاد، و امتعاض إذا اعتاص و التوى. و الأعمال الإرادية يصحبها التفكير و الوجدان، و لا تستقل بنفسها أبدا.

غير أن الصـلة التى تربط هـذه المظاهر بعضـها ببعض، قـد تكون طبيعية، إذا كانت التجربة نفسـها تسـتدعى هذا الترابط، بطريق تداعى المعانى؛ كما إذا وصل إليك نبأ نجاحك مثلا، فإن خواطر شتى تفد إلى نفسك من كل صوب، ما بين سـرور و ابتهاج بما ظفرت به، و تفكير فى الوسائل التى انتهجتها، فوصـلت بك إلى تلك الغايـة السـعيدة، إلى رغبات و عزمات تصـمم عليها، و يـدفعك إليها هـذا الظفر المحبوب، و بينما ترى بعض هذه الخواطر واضـحا جليا للنفس، و يحتل بؤرة الشعور أو الحواشى القريبة منها، تجد بعضها الآخر غامضا خفيا، لا تكاد تشعر به؛ و تكون الصلة غير طبيعية إذا لم تكن التجربة مستدعية لها بطريق تداعى المعانى، كما إذا كنت تدرس نظريات الهندسة، فسئمت العمل و تركته، فليس بين نظريات الهندسة و السأم من صلة.

ليس التفكير الخالص بميـدان للأدب، و إنما هو مرتع للعلم وحـده، أما الأدب فمجاله الإحساس بالحسن، الذى يثير فى النفس لذة، أو بالقبح الذى يبعث فيها

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶

ألما، فالأدب تعبير عن هذا الإحساس، و تصوير له، فهو لسان الوجدان و ترجمانه، إذا كان العلم لسان التفكير و المبيّن عنه.

تسمع قول قريط بن أنيف يعاتب قومه الذين لم ينجدوه، و يمدح بنى مازن، لأنهم أخذوا بيده و نصروه:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلىبنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذا لقام بنصرى معشر خشنعند الحفيظة، إن ذو لوثة لانا

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهمطاروا إليه، زرافات، و وحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهمفى النائبات، على ما قال برهانا

لكن قومى، و إن كانوا ذوى عددليسوا من الشر فى شىء و إن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةو من إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيتهسواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لى بهم قومـا إذا ركبواشـنوا الإغـارة فرسانـا و ركبانا فالشاعر هنا يصور لنا نقمته على قومه، و ازدراءه كثرة عـددهم، لخورهم، و جبنهم، حتى ليقـابلون ظلم ظـالمهم بالصـفح و الغفران، و إسـاءة المسـيئين إليهم بـالعفو و الإحسـان، يلتمسون لضـعفهم المعـاذير، من

الخضوع لتعاليم الدين، فكأن اللّه لم يخلق غيرهم لخشيته. أما بنو مازن، فهو معجب ببسالتهم و إقدامهم، يمنعون حماهم أن يستباح، و يجد أعداؤهم فيهم خشونة لا تلين، يسرعون إلى نصرة أخيهم، قبل أن يطلبوا منه برهانا على ما قال، فلا عجب أن تمنى استبدال قومه بغيرهم.

تحدث الشاعر فى تلك القطعة عن إعجابه و سخطه، أى عن إحساسه بالجمال و القبح، و نجح فى تصويرهما و نقلهما إلينا، مستعينا على ذلك بألوان من الخيال، تكاد تلمس بها خشونة جانب من نصروه، و ترى بها الشر مكشرا لهم عن أنيابه، و تبصرهم طائرين لا يلوون على شىء، و موردا هذه المناقضات التى ما كان يليق أن تكون، و متهكما بهم تهكما مرّا لاذعا، و يشعر القارئ لهذا الشعر بلذة، أثارها فينا نجاحه فى التصوير، و براعته فى التعبير.

بينما نحن لا نعد من الأدب هذه المقالات العلمية، التى تخاطب التفكير وحده، من غير أن تشرك الوجدان معه.

على أن الأديب قد يستعين بقضايا الفكر، على تصوير هذا الإحساس، كما فعل المتنبى عند ما أراد أن يصور حيرته اليائسة من الوصول إلى أن يدرك كنه الحياة، و مصير الوجود، فقال:

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷ تخالف الناس، حتى لا اتفاق لهمإلا على شجب، و الخلف فى الشجب «۱»

فقيل: تخلص نفس المرء سالمةو قيل: تشرك جسم المرء فى العطب

و من تفكر فى الدنيا و مهجتهأقامه الفكر بين العجز و التعب و هنا نجد الطريق ممهدا للحديث عن هدف الأدب، و الحق أننا نقف بهذا الهدف عند حد الإثارة الوجدانية، فلا نطلب منه أن يمدنا بأفكار صادقة عن الحياة، و لا أن يثير فينا النزوع إلى الأعمال الصالحة، أى أنه ليس مهمته التعليم و الإصلاح، و إن كان ذلك لا يمنع من أن يزودنا بالأفكار، أو أن يحرك إرادتنا للعمل، سواء أ كان ذلك مقصودا للأديب أم غير مقصود، فقد يقف الأدب عند حد الإثارة الوجدانية فحسب، كما فى أدب الطبيعة، و شعر الغزل، و كثير من المرائى، و الرسائل، و المقالات العاطفية المحضة، مثل قول حافظ يصف عاصفة مرت بالبحر الأبيض، و هو يركب سفينة فيه:

عاصف يرتمى، و بحر يغيرأنا باللّه منهما مستجير

و كأن الأمواج، و هى توالىمحنقات، أشجان نفس تثور

أزبدت، ثم جرجرت، ثم ثارتثم فارت، كما تفور القدور

ثم أوفت، مثل الجبال على الفلك،و للفلك عزمة لا تخور

تترامى بجؤجؤ، لا يبالىأ مياه تحوطه أم صخور

أزعج البحر جانبيها من الشدّ،فجنب يعلو، و جنب يغور

و هو آنا ينحط من علو كالسيل،و آنا يحوطها منه سور

و هى تزور كالجواد إذا ماساقه للطّعان ندب جسور

و عليها نفوسنا خائراتجازعات، كادت شعاعا تطير

فى ثنايا الأمواج و الزبد المندوف،لاحت أكفاننا و القبور و قول القشيرى:

حننت إلى ريّا، و نفسك باعدتمزارك من ريّا، و شعباكما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعاو تجزع أن داعى الصبابة أسمعا

قفا و دعا نجدا، و من حل بالحمىو قولا لنجد عندنا أن يودعا

بنفسى تلك الأرض، ما أطيب الرباو ما أحسن المصطاف و المتربعا!

و لما رأيت البشر «۲» أعرض دوننا و جالت بنات الشوق يحنن نزّعا

بكت عينى اليسرى، فلما زجرتهاعن الجهل بعد الحلم، أسبلتا معا

(۱) الهلاك.

(۲) اسم جبل.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸ تلفتّ نحو الحى حتى وجدتنىوجعت من الإصغاء ليتا و أخدعا «۱»

و أذكر أيام الحمى، ثم انثنىعلى كبدى، من خشية أن تصدعا

و ليست عشيات الحمى برواجع‌إليك، و لكن خل عينيك تدمعا و قول ابن الرومى يرثى ابنه:

بكاؤكما يشفى، و إن كان لا يجدىفجودا، فقد أودى نظير كما عندى

ألا قاتل اللّه المنايا و رميهامن القوم حبات القلوب على عمد

توخّى حمام الموت أوسط صبيتىفللّه، كيف اختار واسطة العقد؟!

على حين شمت الخير من لمحاتهو آنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عنى، فأضحى مزارهبعيدا على قرب، قريبا على بعد

لقد أنجزت فيه المنايا و عيدهاو أخلفت الآمال ما كان من وعد

لقد قل بين المهد و اللحد لبثهفلم ينس عهد المهد، إذ ضم فى اللحد

محمد، ما شىء توهم سلوةلقلبى، إلا زاد قلبى من الوجد

أرى أخويك الباقيين كليهمايكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعبا فى ملعب لك لذّعافؤادى، بمثل النار، عن غير ما قصد

فما فيهما لى سلوة، بل حرارةيهيجانها دونى، و أشقى بها وحدى و حينا يمدنا بمعلومات عن الحياة و نظم الكون و المجتمع، على شريطة أن يكون ذلك ممتزجا بشعور الأديب، و ناشئا عن تجربة شخصية له، كما ترى ذلك فى ألوان الأدب الاجتماعى و السياسى، و فى شعر الحكمة، كقول زهير:

و من لم يصانع فى أمور كثيرةيضرس بأنياب، و يوطأ بمنسم

و من يك ذا فضل فيبخل بفضلهعلى قومه يستغن عنه، و يذمم

و من يجعل المعروف فى غير أهليعد حمده ذما عليه، و يندم

و من لا يزد عن حوضه بسلاحهيهدم، و من لا يظلم الناس يظلم

و من يغترب يحسب عدوا صديقهو من لا يكرم نفسه لا يكرم

و مهما تكن عند امرئ من خليقةو إن خالها تخفى على الناس، تعلم

لسان الفتى نصف، و نصف فؤادهفلم يبق إلا صورة اللحم و الدم و قول المتنبى:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتهو إن أنت أكرمت اللئيم تمردا

و وضع الندى فى موضع السيف بالعلامضر، كوضع السيف فى موضع الندى

(۱) الليت صفحة لعنق و الأخدع عرق فيها.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹ و ما قتل الأحرار كالعفو عنهمو من لك بالحر الذى يحفظ اليدا

و قيدت نفسى فى ذراك محبةو من وجد الإحسان قيدا تقيدا و قوله:

إنما أنفس الأنيس سباعيتفارسن جهرة و اغتيالا

من أطاق التماس شيء غلاباو اقتسارا، لم يلتمسه سؤالا

كل غاد لحاجة يتمنىأن يكون الغضنفر الرئبالا و قديما عدوا حسن إيراد الحجة من البلاغة، و ضربوا لذلك المثل بقوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (۷۸) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (۷۹) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۱) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۸۲) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳) (یس ۷۸- ۸۳).

و حينا يثير الأدب فينا الإرادة، و يدفعنا إلى العمل، و أظهر ما يتجلى ذلك فى الخطابة، فإنها كثيرا ما ترمى إلى إثارة التفكير المصحوب بالوجدان، المتبوع بالعمل، كخطبة عبد اللّه بن طاهر فى جنده، و قد تجهز لقتال الخوارج: «إنكم فئة اللّه، و المجاهدون عن حقه، الذابون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله و الطاعة لولاة أمره، الذين جعلهم رعاة الدين، و نظام المسلمين، فاستنجزوا موعود اللّه و نصره، بمجاهدة عدوه، و أهل معصيته، الذين أشروا و تمردوا، و شقوا عصا الطاعة، و فارقوا الجماعة، و مرقوا من الدين، و سعوا فى الأرض فسادا، فإنه يقول تبارك و تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (محمد ۷). و ليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون، و عدتكم التى بها تستظهرون، فإنه الوزر المنيع الذى دلكم اللّه عليه، و الجنة الحصينة التى أمركم اللّه بلباسها، غضوا أبصاركم، و أخفتوا أصواتكم فى مصافكم، و امضوا قدما على بصائركم، فارغين إلى ذكر اللّه و الاستعانة به، كما أمركم اللّه فإنه يقول: إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (الأنفال ۴۵). أيدكم اللّه بعز الصبر، و وليكم بالحيطة و النصر».

فأنت تراه قد أثار وجدانهم، بما عرضه عليهم، من الأفكار ليدفعهم إلى الجهاد. و كما فى الآيات القرآنية التى ترمى إلى تحريك الإرادة، مثل قوله سبحانه و تعالى: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (فصلت ۳۴).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰

و كقول الشاعر:

دببت للمجد، و الساعون قد بلغواجهد النفوس، و ألقوا دونه الأزرا

و كابدوا المجد، حتى مل أكثرهمو عانق المجد من أوفى و من صبرا

لا تحسب المجد تمرا، أنت آكلهلن تبلغ المجد حتى تعلق الصبرا و أكثر ما يحرك الأدب الإرادة من غير أن يأمرها بذلك، كما فى الروايات التمثيلية الخلقية و الاجتماعية، و كما فى كثير من الشعر، و ربما كان هذا هو ما حدا بالأقدمين إلى أن يوصوا أولادهم بحفظه و دراسته، بل ربما كان هو المعنى الذى لاحظوه عند ما وضعوا لهذا اللون من القول الجميل اسم الأدب.

قال معاوية لابنه: يا بنى ارو الشعر، و تخلق به، فلقد هممت يوم صفين بالفرار مرات، فما ردنى عن ذلك إلا قول ابن الأطنابة:

أبت لى همتى، و أبى بلائىو أخذى الحمد بالثمن الربيح

و إقدامى على المكروه نفسىو ضربى هامة البطل المشيح

و قولى كلما جأشت و جاشتمكانك، تحمدى، أو تستريحى

لأدفع عن مكارم صالحاتو أحمى بعد عن عرض صحيح و أنت ترى الشعر نفسه لا يطلب إقداما، و لا يحث على ثبات، و لكنه حديث عن هذا النزاع الذى دار بنفس قائله، و هو فى ميدان القتال، و كيف استطاع أن يثبت فى هذا الميدان، يحمله على الثبات ماض ملىء بالجهاد، و همة تأبى النقيصة، و قلب موكل باكتساب المجد، و نفس اعتادت الإقدام على المكارم، و ضرب هامات الأبطال؛ دفاعا عن مآثره، و حماية لعرضه، و ليس فى الشعر سوى هذا.

و لكن معاوية رأى فى صاحبه بطلا جديرا بالاقتداء.

و بما قدمناه يتبين أن الخلاف على أن الإصلاح الاجتماعى من أهداف الأدب خلاف ظاهرى يزيله تحديد معنى الأدب، و تحديد مجاله، أما و قد قلنا: إن كل ما فى الحياة يصلح أن يكون موضوعا للأدب، على أن يتناول من ناحية إحساس الأديب، بما فيه من جمال أو قبح، فلا ضير على الأديب إذا أن يتناول مسألة خلقية أو اجتماعية يعالجها، أو أن يدعو إلى فضيلة، أو ينهى عن مأثمة، على شريطة أن يكون ذلك من تجاربه، و أن يثير فينا الوجدان فيرضى فنعمل، أو يكره فنكف.

الأديب حر فى أن يتناول ما يشاء من تجاربه، من غير أن نضع له خطة ينتهجها، و كل ما نطالبه به أن يرسم لنا شعوره، و لذا نرى من الأدباء من أحس بجمال المشورة فمدحها، كبشار بن برد، إذ قال:

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱ إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن‌برأى نصيح، أو نصيحة حازم

و لا تجعل الشورى عليك غضاضةفإن الخوافى قوة للقوادم و منهم من لم ير فيها جمالا، كعبد الملك بن صالح، حين قال:

«ما استشرت أحدا إلا تكبر علىّ و تصاغرت له، و دخلته العزة، و دخلتنى الذلة، فعليك بالاستبداد، فإن صاحبه جليل فى العيون، مهيب فى الصدور، و إذا افتقرت إلى العقول، حقرتك العيون، فتضعضع شأنك، و رجفت بك أركانك، و استحقرك الصغير، و استخف بك الكبير، و ما عز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه و آراء نصحائه». و كلا القطعتين من الأدب.

أما التعبير الإباحى، فليس من الأدب و لا الفن الجميل، لأننا نعنى بالإثارة تلك الإثارة الوجدانية الروحية الخالصة، أما إثارة الغريزة الجنسية فليست من عمل الأدب، و مثل هذا اللون من القول، مثل الصور الخليعة الماجنة، لا يعدان من الفنون الرفيعة.

علوم البلاغة و النقد الأدبى

اصطلح الباحثون على عد علوم البلاغة ثلاثة: المعانى و البيان و البديع، يريدون بعلم المعانى ذلك العلم الذى يبحث فى أسرار تركيب الجملة، و المعانى التى تفهم من تكوينها على نحو مخصوص، و ذلك ما عناه عبد القاهر بمعانى النحو «۱»، أى معانى نهج العرب فى تكوينهم الجملة، و لذلك وقف بحث هذا العلم عند تأمل الفروق بين الجملة الاسمية و الفعلية، و تدبر أحوال المسند و المسند إليه، و متعلقات الفعل، من ذكر، و حذف، و تقديم، و تأخير، و إيثار معرفة على أخرى، أو صيغة من صيغ الفعل على غيرها، إلى ما سوى ذلك من بحث أسرار الجمال فى نظم الجملة العربية.

أما علم البيان، فموضوعه ذلك التصوير، الذى يهب الفكرة وضوحا و قوة فيزيد تأثيرها فى نفس المخاطب، أو القارئ، بالالتجاء إلى الخيال المصور، و من أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه، و الاستعارة، و الكناية، و المجاز، و هى صور توحى بالتجربة الشعورية أتم إيحاء.

و يتناول علم البديع تلك المحسنات المعنوية حينا، و اللفظية حينا آخر، مما يزيد فى جمال اللفظ و قوة تأثيره، و وضوح المعنى.

---

(۱) راجع ص ۶۳- ۹۶ من كتاب دلائل الإعجاز.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲

و لقد باعد بين هذه العلوم و بين ما كان يرجى لها من نهوض، أن كتب دراستها قد امتزجت بدراسات فلسفية، نأت بها عن تقدير الفن الأدبى، و آلت الكتابة فيها إلى عبارات موجزة مركزة، يسودها الغموض، و تحتاج إلى الشروح و الحواشى، و اعتمد مؤلفوها على أمثلة تطبيقية، بعيدة عن روح الفن، و لا أثر للبلاغة فيها. هذا فضلا عن الحاجة إلى مراجعة ما قرره العلماء من قبل، و وضعوه كأنه قواعد ثابتة، فهو فى حاجة إلى التصحيح و التقويم من جديد، لخطئه فى بعض الأحيان.

و لا أريد أن أطيل فى بيان ما عليه علوم البلاغة الحالية، من قصور، و جفاف، مما يحتاج إلى جهود متضافرة فى دأب، لإنقاذ هذه

العلوم، و الأخذ بيدها، حتى تعود دراستها فنية أدبية، فتقوم بدورها فى إمداد النقد بالقواعد الصالحة، التى تدرس أسباب الجمال المودع فى الجملة، و ليس الشعور بالنقص فى علوم البلاغة حديثا، بل قد شعر القدماء أنفسهم به، فقالوا إنها علوم لم تنضج بعد.

أما صلة هذه العلوم بالنقد الأدبى، فهى من علوم الأدب الاثنى عشر، التى تحدث عنها القدماء، و من الخير أن نتبسط قليلا فى الحديث عن هذه العلوم، لنرى مدى اعتماد النقد الأدبى عليها.

فمن تلك العلوم ما يعود إلى دراسة الكلمة المنفردة حينا، من حيث مادتها، و هو ما دعوه علم اللغة، و حينا من حيث انتساب بعض الكلمات إلى بعض بالأصلية و الفرعية، و سموا ذلك علم الاشتقاق، و حينا آخر من حيث صورة الكلمة و هيئتها مما يدرس فى علم الصرف.

و من تلك العلوم ما يعود إلى الجملة، من حيث أداؤها للمعنى الأصلى، و يعنى بذلك علم النحو، أو من حيث إنها تفيد بنظمها معانى أخرى غير منطوق بها، كالمعانى التى تستفيدها من تقديم الكلمة حينا، أو تعريفها حينا، إلى غير ذلك مما يبحث عنه علم المعانى، أو من حيث إن الجملة تؤدى معناها بطريق الحقيقة، أو مستعينة بالخيال، و هو ما يبحث عنه علم البيان، و يلحقون بهذين العلمين علم البديع، الذى يعمد إلى التأثير فى النفس، من حيث الصناعة اللفظية أو المعنوية.

و من تلك العلوم ما يعود إلى الشعر، فيبحث فيه من حيث وزنه، و ذلك علم العروض، أو من حيث قوافيه، و ما يعتورها من الصحة و السقم، و هو علم القوافى.

كل هذه العلوم التى ذكرناها تدرس المفرد، أو الجملة و الجملتين، أما النظر

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳

إلى النص النثرى برمته، و إلى القصيدة كلها، فقد وضع له الأقدمون علمين هما علم الشعر، و علم النثر.

و قل من كتب من العلماء فى هذين العلمين. و لعلنا نستطيع أن ندخل فى علم النثر دراسة الأساليب و ألوانها، و ما يجب أن يكون هناك من صلة بين الأسلوب و الموضوع، و ندخل فيه كذلك دراسة خصائص كل فن من فنونه، فندرس المقالة، و القصة، و الرواية، و الرسالة، و الخطبة، مبينين ميزة كل لون من هذه الألوان، لا من الناحية اللفظية فحسب، و لكن من الناحية المعنوية كذلك، فنرسم منهج كل نوع فى تناول معانيه.

و نستطيع أن ندخل فى علم الشعر تنوع بحوره، و مناسبة كل بحر لعاطفة خاصة، و موضوع خاص، و ندخل فيه أيضا حديثا عن القافية و وحدتها أو تعددها، و أثرها الموسيقى، و حديثا عن ألوان الشعر، من عاطفى، و روائى، و قصصى، و ما يمتاز به كل لون من خصائص و سمات، مع العناية التامة بناحية المعانى و طرق تناولها، كما ندرس كذلك معنى العاطفة و أنواعها، و ألوان الخيال، و قيمة الحقائق فى النصوص الأدبية. و قد ألم القدماء ببعض هذه النواحى و لكنهم لم يوفوها حقها من البحث و التحليل.

و لم ينس القدماء أن الأدب يعتمد على المعرفة، و أن الأديب محتاج إلى أن يلم بخلاصة وافية لمختلف الثقافات، فذكروا من بين علوم الأدب، علم المحاضرات، يريدون ما يعبرون عنه، بأن على الأديب أن يأخذ من كل فن بطرف، و هذه المعارف هى التى يتكئ عليها الأديب فى تصوير شعوره بالجمال أو بالقبح، و لذا ترى الأديب فى حاجة إلى علم النفس، و التاريخ، و الاجتماع، مثلا عند ما يضع رواية تمثيلية، يحلل فيها نفوس الشخصيات، أو يصف عصرا من عصور التاريخ، أو يتناول مشكلة من مشاكل الاجتماع، و هو محتاج إلى تلك العلوم و غيرها، عند ما يضع قصة، أو أقصوصة، أو عند ما يضمن إنتاجه حقيقة من حقائق الحياة.

و هنا يجدر بنا أن نبين أن الشاعر أو الكاتب، قد يوحى إليه شعوره تفسيرا لمظهر من مظاهر الكون يخالف تفسير العلم له، فيوزن الأديب حينئذ بمقدار طبيعة هذا الشعور و صدقه، لا بمقدار ما فيه من الحقائق. خذ مثلا لذلك قول شوقى يناجى النيل:

من أى عهد فى القرى تتدفقو بأى كف فى المدائن تغدق؟!

و من السماء نزلت، أم فجرت من‌عليا الجنان جداولا تترقرق؟!

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴

فالحقيقة الجغرافية لمنابع النيل معروفة، و لكن عظمة النيل و جلال ما له من أياد، حتى لكأنه يفيض سلسبيلا من عليا الجنان، أوحيا إلى شوقى بهذا التساؤل الشعرى البارع.

تلك هى علوم الأدب، أما الأدب نفسه: شعره و نثره، ففن من الفنون الجميلة، و هو لذلك ينبع من الموهبة، و يفيض من الفطرة، ثم تسدده هذه العلوم و تهدى خطاه، و إن نظرة إلى تلك العلوم نفسها، تجعلنا نؤمن بأن الناقد حين ينقد، فى حاجة إلى تلك العلوم نفسها، عند تقدير النص الأدبى و تقويمه، و من أجل هذا صح لنا القول بأن تلك علوم الأدب: إنتاجا و نقدا، فالناقد، فضلا عن حاجته إلى العلوم اللغوية، فى حاجة- كالأديب- إلى الإلمام بمختلف الثقافات، حتى يستطيع أن يحكم على النص حكما صادقا خالصا.

أما النقد نفسه فكالأدب، فن من الفنون، يعتمد على الموهبة و الفطرة، و يتكئ على ما قدمنا من العلوم، لبيان وجه جمال الجميل، و قبح القبيح.

و قد طال الحديث عن صلة النقد بالذوق، حتى لقد قيل إن النقد يعتمد على الذوق وحده، و هذا صحيح إلى حد كبير، فهذا الذوق هو الملكة الموهوبة، التى يستطاع بها تقدير الأدب الإنشائى، و إننا إذا تدبرنا حقيقة الأمر، رأينا أن كل تعليل بلاغى، هو تفسير لهذا الذوق السليم، و تعليل عقلى له، فليس تعليلك لجمال النص بأن فيه إيجازا، أو إطنابا، أو حذفا، أو تقديما، سوى تفسير عقلى لذوقك الذى أحس بجمال النص.

و إذا كانت الملكات فى النفوس كالبذور، تحتاج إلى التربة الصالحة، و الغذاء و الماء فكذلك ملكة الأدب و نقده، فى حاجة إلى الرى، و الغذاء، و ذلك إنما يكون بدراسة ما أسلفناه من علوم، و بالتملؤ من الأدب القوى، و بالقراءة الأدبية الفاحصة، و المران على تقويم النصوص، و البحث عن أسرار جمالها، و مناحى لونها، و بذلك يقوّم الذوق و يستقيم حكمه.

غير أن هذه التربة الصالحة التى يجب أن يغتذى الذوق منها، تحتاج إلى جهد جهيد، و تضافر قوى الباحثين و الدارسين، حتى تصبح صالحة، لإنتاج أبرك الثمرات، ذلك أن من علوم النقد ما تم نضجه، فلم يعد فى حاجة لغير تنظيمه، حتى يصبح الانتفاع به ميسورا كعلم النحو، و الصرف، و العروض، و القافية، و منها ما لم ينضج بعد، بل هو فى حاجة إلى معاودة النظرة، لتخليصه مما علق به مما ليس منه، و لتصحيح أخطاء مضى عليها الزمن، حتى استقرت صحتها فى

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵

الأذهان، و هى غير صحيحة، و تلك هى علوم البلاغة، التى اختلطت بمسائل فلسفية، و ملئت كتبها بأبحاث لفظية، و مناقشات جدلية، باعدت بينها، و بين أداء رسالتها، أداء كاملا غير منقوص، و حسبى أن أشير إلى شروح التلخيص و حواشيه، التى تضل البلاغة فى ثناياها و شعبها، فلا تهتدى إليها، و حسبى كذلك أن أشير إلى ما فى باب التشبيه، من أخطاء فى القواعد الموضوعة، من وقوفهم عند حد الحس فى التشبيه، و جعلهم البعيد الغريب فى التشبيه أبلغ أنواعه، إلى غير ذلك من أحكام تحتاج إلى مراجعة النظر، للوصول فيها إلى حكم صحيح.

و من تلك العلوم ما لم يدرس إلى اليوم، سوى أشتات مبعثرة، و نعنى بذلك علمى الشعر و النثر، و قد أبنّاهما فيما مضى، فلا عجب إذا أن نرى النقد الأدبى متعثرا فى خطاه إلى اليوم، فإننا لم نهيئ له التربة الصالحة لنموه و إثماره، و إذا أردنا أن ينهض النقد ليؤدى رسالته، فلنهذب علومه، و لنضع ما نقص منها، جاعلين هدفنا من ذلك كله تربية ذوق صالح سليم.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶

القراءة الأدبية

هی تلک التی یحاول القارئ فیها، أن یستحضر فی نفسه التجربة، کما مرت بالأدیب المنشئ، و إذا کان الأدیب یتخذ لنقل تجربته ألفاظا یختارها، توحی إلی قارئه بمشاعره، فالقراءة الأدبیة، هی التی یقف القارئ فیها أمام کل کلمة فی النص الأدبی، یتبین ما توحی به، و یری ما یحیط بها من الظلال، و یتأمل سر اختیارها، لیستخلص کل ما فیها، من خواطر و معان، فیمارس التجربة التی مارسها المنشئ، و یعیش اللحظة التی عاشها و من هنا قالوا: إن الأدب یضیف عمرا إلی عمر قارئه، بسبب هذه التجارب التی یستحضرها، و یشعر بها نفسه.

و یمر القارئ للأدب بثلاث مراحل، فالمرحلة الأولی: هی التی یقرأ فیها النص الأدبی لیعیش فی تجربته، و المرحلة الثانیة: هی مرحلة النقد، و فیها یدرس القارئ ألفاظ النص، لیری قدرتها علی التعبیر عما أراده الأدیب، أو عجزها عن ذلک، و فی المرحلة الثالثة: ینقد ما یکون قد اشتمل علیه، من معان و آراء، فیری خطأه و صوابه، و صدقه أو کذبه، و لن یستطیع القارئ أن یصل إلی المرحلة الثالثة، إلا إذا عاش التجربة کما عاشها منشئها، و تقمص شعوره، و حینئذ یحکم بصواب ما قرأ أو خطئه، فالقراءة الأدبیة ألوان ثلاثة: قراءة متذوقة، و قراءة ناقدة، و قراءة حاکمة، و لکی تتبین کیف یقرأ الأدب قراءة متذوقة، نأتی ببعض المثل؛ لنری تلک الآفاق الواسعة التی یفتحها أمام أنفسنا ذلک النوع من القراءة.

قال البحتری فی وصف الربیع:

أتاک الربیع الطلق، یختال ضاحکامن الحسن، حتی کاد أن یتکلما

و قد نبه النیروز فی غسق الدجیأوائل وردکن بالأمس نوّما

یفتقها برد الندی، فکأنهیبث حدیثا، کان قبل مکتما

فمن شجر، رد الربیع لباسهعلیه، کما نشّرت و شیا منمنما

ورق نسیم الریح، حتی حسبتهیجیء بأنفاس الأحبة نعما تری الشاعر قد جاء بکاف الخطاب فی أول حدیثه، کأنما ینبه من یخاطبه إلی

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷

أن جمال الطبیعة فی هذا الفصل قد جاء إلیه، و کأنه یدعوه إلی الابتهاج به، و الفرح بمقدمه و فی تعریف الربیع (بأل) العهدیة، ما یثیر فی النفس ما ألفته فی هذا الفصل الرائع من جمال و حیاة، و فی اختیار کلمة (الطلق) ما یوحی بمعنی الحریة التی یشعر الناس بها فی الطبیعة، فلیس فیها شذوذ بسحب متراکمة و لا- مطر، و لا أوحال فی الطرق، تقید الناس و تحبسهم فی بیوتهم، و یشعرون بها فی أنفسهم، غیر مقیدین بمنازلهم حینا، و بنوع من الملابس حینا آخر، و تأمل کلمة (یختال) فلعلها تصور لک اختیال الأزهار یداعبها مر النسیم، و فی تعبیره (یختال ضاحکا) ما یوحی إلیک بأن الشاعر لم یحس بالربیع مظاهر تراها العین فحسب، و لکنه حیاة تتدفق فی جمیع أرجاء الکون، فیهتز عطفه اختیالا و یبتسم ضاحکا، و یزداد شعور الشاعر بهذه الحیاة، و یقوی إحساسه بإفصاح الربیع عن جماله و بهائه، فیخاله یکاد یتکلم و یبین، و یطرد إحساس الشاعر بحیاة الربیع، فیری هذه الأزهار التی تملأ الجو بأریجها مخلوقات، کانت تغط فی نوم عمیق، فجاءها الربیع ینبهها أن تستیقظ من رقادها، و کأنما زارها فی الدجی، یؤکد ألا یسفر وجه الصباح، حتی تکون قد أخذت بهجتها و ازینت، کی لا یضیع علیها شیء من جمال النهار، و ذلک هو السر فی تنبیه الربیع لها، فی غسق الدجی، ثم أ لا- تری فی استخدام (ورد) هنا ما یحمل إلیک أریج أزهار الربیع، و فی استخدام کلمة (أوائل) ما یشیر إلی نشاط هذه الزهرات الأولی من أزهار الربیع، و فی اختیار کلمة (نوّم) ما یوحی إلیک بما کان فیه الزهر من غفلة عن جمال الحیاة، قبل أن ینبهه فصل الجمال، و إن هذه الغفلة و النوم لیحتاجان إلی إیقاظ عنیف، و لذلک استخدم الشاعر کلمة (یفتق) التی تدل علی شیء من العنف، ثم أ لا- تری أن الدفء مبعث اللجاج فی النوم، فمن المعتاد أن البرد یوقظ النائم، و بذلک تری السر فی اختیار (برد الندی) وسیلة لإیقاظ الأزهار، و لما کان شعور الشاعر بتدفق الحیاة فی الکون قویّا دافقا، أحس کأن هذا الورد یفشی سرّا، کان یخفیه، و اختار لتعبیره کلمة (یبث) التی تشعر بأن الحدیث الذی یذیعه الورد حدیث فی خفوت یشبه الهمس، و قال (مکتما) لینقل إلی نفسک ما

كان عليه جمال الزهرة قبل تفتحها من سرية محجوبة لا تبين، فكثير من الزهر يتشابه قبل أن تتفتح أكمامه، و يقف المرء أمامه، لا يتبين ما يكون عليه أمره، بعد أن يتفتح، فجماله سر مكتم لا ينم عنه شيء، و اختار الشاعر كلمة (حديث) التي توحي بهذا التجاوب النفسي بين الطبيعة و الإنسان.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸

و بهذا استطاع الشاعر، أن يصور لنا إحساسه الروحي بجمال الربيع، و لكنه لم ينس حظ العينين من هذا الجمال، فحدثنا عن الشجر، و قد استعاد خضرته و نضارته، و دبجته الأزاهير، و اختار الشاعر كلمة (رد) التي توقظ في نفسك ما كان عليه من تجرد، لا تبهج العين رؤيته، إذ سلب ثيابه، فعاد حاليا بزينته و حليته، و استخدم الشاعر كلمة (نشّر) المضعّفة الدالة على التكثير، ليصور لك هذا المعرض الحي من معارض الطبيعة، و كلمة (منمنما) توحي بدقة الوشي كأنما نسجته يد صناع، (ورق) توقظ في النفس موازنة بين نسيم الربيع و هواء الشتاء الكثيف، و في كلمة (حتى) ما يدل على عمق الشعور برقة هذا النسيم، و التلذذ به، و في المجيء بكلمة (أنفاس) جمعا و إيثارها على المفرد، ما يوحي بأن نسيم الربيع يجيء متقطعا، كالأنفاس، حتى لا يمل، و وصف الأحبة بالنعمة يوحي إليك بالهدوء، فليست هي بزفرات حارة، يخرجها صدر يحترق بالحب.

و هاك بيتا «۱» من الشعر، قال الأصمعي عنه أنه أهجى بيت قالته العرب، و هو:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهموقالوا لأمهم: بولي على النار فكل كلمة في هذا البيت تكاد تنطق بالهجاء و الذم؛ فتنكير (قوم) لتحقيرهم، و الإشارة إلى أنه لو لا هذه الصفات التي تسمهم، لكانوا نكرة في الصحراء، لا يأبه بهم أحد، و الإيحاء بأن هذه الصفات الدنيئة إذا ذكرت، و سمتهم، فصاروا بها معروفين مميزين، و كلمة (إذا) و هي تفيد الشرط، تدل على أن مقدم الأضياف إليهم إنما هو في أوقات معينة قليلة، و ليس ذلك بعادة دائمة (و السين و التاء) في استنبح للدلالة على أن الأضياف كأنهم يمضون إلى الكلب و يعرضون له، لينبح، أما هو فيغط في نوم عميق، فيلس لديه ما يحرسه، و لم ير من قبل غرباء يطرقون هؤلاء القوم، فلم يجد عملا فنام، و ربما كان عدم نباح الكلب، لهزاله و ضعفه من الجوع الذي يقاسيه في صحبتهم، و جاء (بالأضياف) جمع قلة، ليؤذن بأن من يقصد هؤلاء القوم عدد محدود قليل، و نسب القول إليهم في (قالوا) و هو قول مزر، للإشارة إلى سوء أدبهم، و امتهانهم لأمهم، و المجيء بلفظة (أم) و هي تستدعي أعظم ألوان التقدير، يوحي بما آلت إليه حال هذه الأم عندهم، و من هوان و ضعة، حتى صارت لديهم في منزلة أقل من منزلة الخادم، و إضافة الأم إليهم، إشارة إلى لؤمهم، و مبالغة في تحقيرهم، و إيذان بأنه ما كان ينبغي أن يعاملوها تلك المعاملة، و هي أمهم، و أنطقهم بلفظ (البول) و هو مما يثير شيئا تتقزز منه

---

(۱) راجع فنون الأدب ص ۳۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹

النفوس، إيماء إلى جفوتهم، و أنهم لم يهذبوا و يصقلوا، و توجيه هذا الأمر إلى أمهم فيه ما فيه من التشنيع عليهم، و فيه كذلك أنهم يبخلون بالماء، فيستعيضون عنه بالبول، و أن نارهم ضعيفة خافتة، و تكفي بولة عجوز لإطفائها، و أتى الشاعر بحرف الجر «على» الدال على الاستعلاء؛ ليرسم صورة منفرة، و هي صورة الأم، و قد علت النار تبول عليها، و تعريف النار إشارة إلى تلك النار المعهودة التي يستطاع اعتلاؤها و البول عليها، و لم ينسبهم الشاعر إلى البخل صراحة، و إنما أخبر عنهم بما يدل على أقبح ألوان هذا البخل.

و هذه آيات من القرآن الكريم نقف عندها، لنقرأها تلك القراءة الأدبية المتذوّقة، قال تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (۸) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۹) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۱۰) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (۱۲) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳)

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (۱۴) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۱۶) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (۱۷) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (۱۸) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (۱۹) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) (البقرة ۸- ۲۰).

أ لا- ترى فى اختيار كلمة النَّاسِ و عمومها، عدم مجابهة المنافقين بتعيينهم، و فى ذلك ستر عليهم، و إغراء لهم بالإقلاع عن نفاقهم، ذلك أنه، ما داموا لم يعينوا، من المتوقع أن يصغوا إلى القرآن، فربما انصرفوا عن غيهم، إذا استمعوا إلى تصوير حال ضلالهم، و ما هم فيه من حيرة و اضطراب، و لو أنه جبههم بكشف الستار عنهم، لانصرفوا معرضين عن الإصغاء، فلا يكون ثمة أمل فى هدايتهم، و كلمة يَقُولُ، توحى بأن إيمانهم لم يتعد أفواههم، و أجرى على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضى، ليوهموا سامعيهم أنهم قد دخلوا فى الإيمان منذ زمن بعيد، زيادة منهم فى التمويه و الخداع، و خص الإيمان باللّه و باليوم الآخر؛ لأن الإيمان بهما يجمع كل ما يجب الإيمان به، من كل ما يصل الإنسان

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰

بربه، أو يصله بالناس، و اختار فى الرد عليهم الجملة الاسمية فى النفى؛ ليدل بها على استقرار هذا النفى و ثباته.

هؤلاء المنافقون إنما يخدعون بعملهم هذا الذين آمنوا، و لكن القرآن جعل الخداع للّه، سخرية منهم، و استهزاء بعقولهم، و استخدم الفعل المضارع هنا، يصور به حالهم، و يحضر هذه الصورة أمام أعين السامعين، و استخدم أداة القصر و هى (ما) و (إلا)، ليردّ عليهم ردّا حاسما، يبين أن خداعهم لن يضرّ أحدا غيرهم، و لكن يصيبهم وحدهم أذاه، و أوقع الخداع على أنفسهم ليكون ذلك مثار العجب أن يفعل ذلك من لديه مسكة من عقل، و فى وَ ما يَشْعُرُونَ تصوير صادق لهؤلاء المنافقين، الذين لا يدركون مغبة خداعهم، و استخدام كلمة مَرَضٌ، لما أصابهم من تغليب الهوى على العقل، يوحى إلينا بأن عقولهم، و قد تغلب عليها سلطان الهوى، صارت غير مستطيعة أن تفكر تفكيرا سليما، و أن تقوم بوظيفتها التى خلقت لها، كالجسم يصاب بالمرض فلا يستطيع أداء وظيفته، و فى الدعاء عليهم بزيادة المرض، إيذان بغضب اللّه و سخطه عليهم، و استخدام فِي فى هذه الجملة، يؤذن بتمكن المرض من قلوبهم، فكأنما انطوت قلوبهم عليه، و فى كلمة أَلِيمٌ- و العذاب لا يكون إلا مؤلما، إبراز لأهمّ خصائص العذاب، و اختيار كانَ و المجيء بخبرها فعلا مضارعا، يؤذن باعتيادهم الكذب و لجاجتهم فيه، و جاء بالواو فى قوله:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ، إشارة إلى مأثمة جديدة من آثامهم، و أتى بالفعل: قِيلَ مبنيّا للمجهول، مؤذنا بأن من الواجب عليهم أن ينظروا إلى القول من حيث هو، بقطع النظر عن قائله، و ألا يجعلوا للقائل دخلا فى تقديرهم و وزنهم، و اختار كلمة الْفَسادَ ليصور بها ما يقوم به هؤلاء المنافقون، من تشكيك المؤمنين و تخذيلهم عن نصرة الرسول، و بثّ الفتن فى الأرض، و نسب القول إليهم فى قالُوا؛ ليبين مدى تبجحهم، و أنهم لا- يبالون أن يقلبوا الحقائق، و يطمسوا معالمها، أما ردهم، فقد استخدموا له أداة من أدوات القصر، يريدون بذلك نفى الإفساد عنهم نفيا باتا، و أن عملهم لا يعدو الخير و الصلاح و بالغوا فى ذلك حتى أوهموا أن نفوسهم قد قصرت على الإصلاح قصرا، فهى لا- يمكن أن تلم بفساد، و اختاروا من أدوات القصر إِنَّما التى تدل على أن الأمر من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى دليل و لا- برهان، مبالغة منهم فى التمويه و الخداع، و استفتح الرد عليهم بألا؛ ليسترعى الأذهان إليه، حتى تتنبه إلى الرد و لا يفوتها منه شيء، و بدأ

من بلاغة القرآن، ص: ۳۱

الجملة بالتأكيد؛ لأنه فى مقام يريد أن يقتلع من الأذهان دعواهم العريضة فى الإصلاح، و (هم) الثانية ضمير فصل يؤكد الإسناد فى

الجملة، و تعريف الطرفين يفيد قصر المسند على المسند إليه، فكأن الإفساد مقصور عليهم، لا يبرحهم إلى سواهم، و جاء بلكن، يريد أن يخبرنا بخبر جديد عن هذه الطائفة التى انحصر الإفساد فى بنيها، و أنه كان خليقا بهم أن يدركوا هذه الحقيقة، لو كان عندهم قدر من شعور، أما و هم قوم لا يشعرون، فذاك هو السر فى خفاء هذه الحقيقة البينة عنهم، و فرق فى التعبير بين وَ ما يَشْعُرُونَ فى الآية السالفة، وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ فى تلك الآية، فالجملة الأولى فى مكانها تنبئ بأن حركة خداع النفس تمر بهم، من غير أن يتنبهوا إليها، فهو لا ينفى الشعور عنهم مطلقا بل ينفى شعورهم بخداع أنفسهم؛ أما فى هذه الآية فليس إفسادهم مما يقع منهم بلا شعور، بل هم يفعلون عن رغبة و إصرار، و لكنهم قد فقدوا التفكير، الذى يزنون به الأمور بميزانها الصحيح.

و تستطيع أن تمضى فى قراءة الآية التالية، كما مضيت فى هذه الآية، وقف فيها وقفة عند كلمتى النَّاسِ و السُّفَهاءُ تتبين فى الكلمة الأولى مدى الأدب، الذى استخدمه الداعى فى دعوة هؤلاء القوم إلى الإيمان، فهو لم يقل لهم آمنوا كما آمن العقلاء مثلا، فيكون فى ذلك جرح لشعورهم، بما قد يكون فيه من تلميح بضعف عقولهم، بل لم يزد فى دعوته على أن دعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه عامة الناس، و فى ذلك منتهى الرفق و اللين، أما ردهم ففيه تبجح و عنف، فقد ادعوا سفاهة هؤلاء الذين آمنوا.

وقف كذلك عند كلمة يَعْلَمُونَ و تأمل سر اختيارها، تر أن السفاهة إنما ترجع إلى العقل و التفكير، فناسب ذلك نفى العلم عنهم، و أما الآية السابقة فإفساد بأعمال يشعر بها، فناسب هناك نفى الشعور.

و امض كذلك فى قراءة الآية التى ترسم ما عليه المنافقون من الخداع، و ما لهم من وجهين يقابلون المسلمين بأحدهما، و يقابلون رؤساءهم بوجه آخر، وقف عند كلمة خَلَوْا لترى ما توحى به إلى نفسك من جبن هؤلاء المنافقين، الذين لا يستطيعون أن يظهروا ما تكنه قلوبهم، إلا فى خلوة لا يراهم فيها أحد، وقف كذلك عند كلمة شياطين، يراد بها رؤساء النفاق، و تأمل ما توحى به من ضروب المكر و الدهاء و الفساد و الضلال، و انظر كيف كشف المنافقون أنفسهم أمام رؤسائهم، فى جملتين اثنتين، دلتا على حقيقتهم، ففى الجملة الأولى: قالوا إنا

من بلاغة القرآن، ص: ۳۲

معكم، أكدوا لرؤسائهم شدة إخلاصهم لهم، حتى لا- يدعوا لهؤلاء الرؤساء سبيلا- إلى الشك فى إخلاصهم، بسبب ما يظهرونه بألسنتهم للمؤمنين من الإيمان، و فى مَعَكُمْ ما يشعر بهذا الرباط القلبى، الذى يربط المنافقين برؤسائهم، و فى اختيار القصر و أداته فى الجملة الثانية: إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ، ما سبق أن ذكرنا فكأنهم يقولون لشياطينهم: إن استهزاءنا بالمؤمنين عند ما نقول لهم: آمنا، واضح، لا يمكن أن يكون سببا لشككم فى إخلاصنا لكم، و أن قلوبنا معكم، و اختاروا الجملة الاسمية يدلون بها على ثبوت هذا الخبر و استقراره.

و اختار اللّه فى الرد عليهم أن يأتى باسمه دون صفة من صفاته، ليوحى إلينا بهذا الجلال، الذى يحيط بذلك الاسم المقدس، و أنه هو الذى سيتولى الاستهزاء بهم، و كلمة يستهزئ تصور هذا الجزاء الساخط، الذى يقابل به اللّه استهزاءهم، ليصور بأمر محسوس، أمرا معنويّا، هو تركهم فى ضلالهم لا يهتدون، و اختيار كلمة الطغيان، توحى بالخروج فى قوة عن الطاقة المألوفة فى العصيان و الفجور، و العمه فى الآية، يصور لنا مدى تردد هؤلاء القوم فى غوايتهم، و أنهم لا- يهتدون إلى الحق و الصواب، فهم فى حيرة من أمرهم كالأعمى، يسير على غير هدى و لا اطمئنان.

و امض فى قراءة الآية التالية، و تأمل وجه استخدام اسم الإشارة، يشير به إلى طائفة قد اتصفت بتلك الصفات الخادعة، و كان لها أثرها فى الحكم عليهم، و فى كلمة اشترى، ما يدل على إيثار هؤلاء القوم للضلالة على الهدى، و اختار كلمة الضلالة هنا، و آثرها على الكفر و النفاق مثلا، ليتسنى بيان حال ما اختاروه فى إيجاز، و وضع الهدى بجوار الضلالة، ليتأتى فى يسر معرفة مدى خسران هؤلاء القوم، و ضعف عقولهم، و نفى الربح عن التجارة، و لم ينفه عن المتجرين، للإشارة إلى أن هذه التجارة بطبيعتها تجارة خاسرة، بقطع النظر عن المتجرين بها، و فى ما كانُوا مُهْتَدِينَ إشارة إلى جهلهم، باختيار هذه التجارة الخاسرة.

و فی الآیة التالیة تستوقفنا کلمة استوقد نارا، فنتبین فیها حال رجل، قد أحاطت به حلکة الظلام، فهو یطلب جاهدا نارا تضیء له مسالک السبیل، و السین و التاء یدلان علی هذا البحث القوی، و الطلب الجاد، و فی کلمة أضاءت ما یدل علی أنه قد أوتی أکثر مما کان یطمح إلیه، فلقد کان یبحث عن نار، أیّا ما کانت، فأوتی نارا قویة أضاءت ما حوله، غیر أن ذلک لم یلبث أن مضی و زال، و استخدام ذهب بالنور أقوی من ذهب النور؛ لأن فی التعبیر الأول دلالة علی أن آخذا أخذ

من بلاغة القرآن، ص: ۳۳

النور، و مضی به، فکیف إذا کان الذاهب به هو اللّه، و فی إضافة النور إلیهم، ما یشعر بأنهم کانوا قد اطمأنوا إلی النور، و فرحوا به، فیکون الذهاب به أشد إیلاما و أنکی، و جمع ظلمة، لیشیر إلی هذا الظلام المتکاثف، و الحلکة المتراکم بعضها فوق بعض، و تأمل بعدئذ هذه الصفات التی خرجوا بها عن أن یکونوا من البشر، بل عن أن یکونوا من الحیوان، ما داموا قد عطلوا مواهبهم و لم ینتفعوا بها، و کان لنسق هذه الصفات علی وزن واحد أثر موسیقی مؤثر.

و الآیتان التالیتان استمرار فی وصف حیرة هؤلاء المنافقین، فمثّلهم القرآن بحال من حصرتهم السماء بصیب، و فی هذه الکلمة ما یوحی بقوة المطر و شدة بطشه، فهو لیس بغیث ینقذ الأرض من ظمئها، و لکنه مطر یصیبها و یؤثر فیها، و فی النص علی أنه من السماء، ما یوحی بهذا العلو الشاهق، ینزل منه هذا المطر الدافق، فأی رعب ینبعث فی القلب من جرائه، و فی المجیء بکلمة فِیهِ ما یدل علی أن هذه الظلمات، و الرعد، و البرق، کأنما سکنت هذا الصیب، و کأنما تنزل معه من السماء، و فی إیثار الظلمات جمعا، علی المفرد ما سبق أن أشرنا إلیه، و فی تنکیرها، و تنکیر الرعد، و البرق ما یشیر إلی أنها من القوة و الإزعاج، إلی درجة لا یستطاع تحدیدها، و فی کلمة الأصابع ما یوحی بهذا الذعر، الذی استولی علیهم من شدة الأصوات الرعدیة المرعبة، فهم یحاولون إبعاد صوتها عنهم، و کلما زادت شدة الصوت، زادوا من إدخال هذه الأصابع، علها تسد أذانهم، و اختیار کلمة یجعلون، و إیثارها علی یضعون مثلا، للإشارة إلی أن أصابعهم لطول ما صارت فی آذانهم، أصبحت کأنها مرکبة معها، أما الوضع فلا یستفاد منه هذا الثبات و الاستمرار، و برغم أن المعنی علی أن کل فرد منهم یضع إصبعا فی أذن، لا نستطیع أن نبعد عن أنفسنا هذا الجو الذی خلقه حولنا استخدام الجمع، الموحی بمقدار الهلع الذی أصاب أفئدتهم، لهذا الصوت المنکر، حتی لکأنهم یریدون إبعاده، بوضع کل ما یملکون من أصابع فی آذانهم. و جمع الصواعق إیذان بما اصطلح علی إزعاجهم من صواعق رهیبة، لا صاعقة فحسب. و کلمة حذر تدل علی شدة شعورهم بقرب الموت منهم، و إسناد الإحاطة إلی اللّه فیه من الجلال و الرهبة ما فیه، و اختیار کلمة مُحِیطٌ یدل علی شمول العذاب لهم، و إحاطته بهم من کافة الأرجاء، فهم لا یستطیعون الإفلات منه أینما ساروا، و فی إیثار کلمة الکافرین علی المنافقین، بیان لحقیقة حالهم، و أن النطق باللسان لا یغنی عن الحق شیئا.

تحدثت الآیة الکریمة عن هذا الصیب، و أن فیه ظلمات و رعدا و برقا، و ذکرت أن حال المنافقین فی خوفهم و هلعهم، کحال السائر فی هذا الصیب؛ لاضطراب

من بلاغة القرآن، ص: ۳۴

حیاتهم، و خوفهم أن ینکشف أمرهم، فهم فی اضطراب نفسی شدید، و شرحت الآیة ما یصیب السائر من الفزع، من جراء الرعد یصم أذنیه، و تحدثت الآیة الثانیة عما أضمره لهم البرق و الظلمات، من إخافة و إرهاب، فقال سبحانه یکاد البرق یخطف أبصارهم، و فی استخدام یَخْطَفُ تصویر بأمر محسوس، یبعث فی النفس خوفا. فکأن یدا تمتد نحو السائر تسلب منه نور عینه، و المجیء بکلما یوحی بهذه اللهفة التی تملأ قلوبهم، و الرغبة فی الخروج من هذه الظلمات المتکاثفة، فلا یکاد النور یبدد هذه الظلمة قلیلا، حتی ینتهزوا الفرصة فیمشوا، و إذا أظلم علیهم قاموا، و فی کلمة عَلی ما یدل علی شدة وطأة الظلام علیهم، و فی قامُوا ما یوحی إلیک بتکاثف الظلمات حولهم، فلا یکادون یحرکون أقدامهم، عند ما تطبق علیهم هذه الظلمات.

و هکذا تستطیع بالقراءة الأدبیة أن تصل إلی تصور ما یراد من النص أکمل تصور و أوفاه. و بعد هذه القراءة المتذوقة، تقف لتری

مقدار ما فى هذا النص، من تلاؤم بين ألفاظه و معانيه، و تلك هى القراءة الناقدة كما ذكرنا، فنرى الآيات تصف هذا الاضطراب فى نفسية هؤلاء المنافقين، و ما يظنون أنهم يقومون به من خداعهم للّه و المؤمنين، و عنيت الآيات بوصف ضلالهم و خسرانهم، برغم ما فى عصرهم من نور، لا يكاد يضىء أمامهم الطريق قليلا، حتى يطبق الظلام مرة ثانية عليهم، لأنهم لم يستعملوا آذانهم، فيما خلقت له، من الاستماع إلى صوت الحق، و لا- ألسنتهم فى التعبير عنه تعبيرا ينبعث عن قلوبهم، و لا- أعينهم فى الاهتداء بما ترى، إلى الحق و الصواب. ذلك موقفهم من دعوة الحق، أما أنفسهم المضطربة الخائفة، فقد ضربت الآيات لها مثلا: هذا الذى يحيط به الصيب، فيه ظلمات و رعد و برق، و بهذا كله صورت الآيات من هؤلاء المنافقين، صلتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه، بين مسلمين و كافرين، و موقفهم من النور الذى أضاء عصرهم، و تغلغلت إلى أعماق نفوسهم، فصورت خوفها و اضطرابها، و كل جزء من هذه الآيات له قيمته فى هذا التصوير، بحيث تستطيع أن تتخيل هؤلاء القوم، و أن تستمع إليهم، و قد التقوا بالمؤمنين، فقالوا لهم: آمنا، و مضوا إلى شياطينهم، فقالوا لهم: إنا معكم، و تتخيلهم و هم يعملون جهدهم، على أن يوقدوا نيران الفتنة، و يسعون فى الأرض فسادا، فإذا قيل لهم: لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، قالوا: إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ، و تستطيع أن تتبين هذا المرض الذى أحاط قلوبهم بأكنة، و خيل إليهم أنهم يستطيعون خداع المؤمنين، بإظهار كلمة الإيمان لهم،

من بلاغة القرآن، ص: ۳۵

مع أنهم يضمرون لهم أشد ألوان الاحتقار و الاستهزاء، و أن تتصور موقفهم من الهدى الذى سطعت شمسه أمامهم، فكانوا صمّا بكما عميا، فإذا تغلغلت فى أعماق قلوبهم رأيت الذعر، قد استبد بها، كما يستبد بمن أحاط به صيب، فيه ظلمات و رعد و برق.

ثم نحكم بعدئذ على ما فى هذه المعانى من خطأ أو صواب، و تناسق أو اضطراب، و هى القراءة الثالثة الحاكمة، و بما ذكرناه تتبين الدقة فى التصوير، و هنا نشير إلى ما قد يتراءى فى تصوير المنافق فى تلك الآيات، من وصفه بالإفصاح عن معتقده، كما تدل على ذلك الآية: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ. و بإخفاء معتقده، كما تدل على ذلك آية: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ.

و ليس بين الآيتين خلاف فى التصوير، فالآية الأولى تبين نفسيتهم الحقيقية.

عند ما يعرض عليهم الإيمان، فإنهم يقولون فى أنفسهم: أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ، و كأنهم لشدة شعورهم يجهرون بذلك، أما الآية الثانية فتصف صلتهم الخارجية، بالمؤمنين، و أنهم يظهرون لهم الإيمان، و يبطنون الكفر و النفاق، فإحدى الآيتين تشرح نفسيتهم، و الثانية تتحدث عن اضطرابهم بين ما يظهرون و ما يضمرون.

و بهذه القراءات الثلاث تستطيع أن تقول: إن النص الأدبى أصبح واضحا فى نفسك تمام الوضوح.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۳۶

المنهج الأدبى فى القرآن

و أعنى بالمنهج الأدبى، هذا المنهج الذى يتجه إلى إثارة وجدان القارئ، إثارة روحية رفيعة، تحدث السرور فى النفس فتقبل، أو تحدث فيها الألم فتأبى و ترفض، و القرآن غنى بذلك؛ لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع، و لكنه يتكئ عليه و على الوجدان ليستميل، فهو فى وعده و وعيده، و أوامره و نواهيه، و قصصه، و وصفه، و ابتهاله و تسبيحه، بل و فى أحكامه و براهينه، لا يغفل هذه الناحية من نواحى النفس الإنسانية؛ لأن العمل غالبا يرتبط بها و يقترن، فالقرآن يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية، ليصل إلى هدفه: من تهذيب النفس، و حب العمل الصالح، و الإيمان باللّه و اليوم الآخر.

خذ مثلا قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ

أولئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ عَلِيماً (۷۰) (النساء ۶۹، ۷۰). أ لا تراه قد أثار فينا شعور الغبطة و الابتهاج، حينما نخيل لأنفسنا أننا إن أطعنا اللّه و الرسول، فسنكون رفقاء للنبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين. أو لا ترى أن هذا الشعور بالفرح جدير بأن يدفع المرء إلى الانقياد و الطاعة:

و خذ قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (النساء ۴۷). تراه قد اتكأ على إثارة الخوف في النفس من أن تشوه الوجوه أو تطمس، أو أن تحل اللعنة بأصحابها، كما حلت بأصحاب السبت، و هذا الخوف، بما يحدثه في النفس من ألم، جدير أن يدفع الناس إلى التفكير العميق للتخلص من أسبابه، و الخلوص من مأزقه، و لا يكون ذلك إلا بالإيمان بما أنزل اللّه. و قل مثل ذلك في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً (النساء ۵۶). فأي رعب ينبعث في النفس، عند ما تتخيل أصحاب النار، و قد نضجت جلودهم، فبدلوا

من بلاغة القرآن، ص: ۳۷

بها جلودا غيرها، لا تلبث أن تنضج كرة أخرى، فتتبدل، و هكذا دواليك. و أي خوف شديد يملك المرء من هذا المصير المؤلم.

و خذ مثلا هذا الجزء من قصة إبراهيم، و هو قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۷۴) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۷۹) وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۸۰) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) (الأنعام ۷۴- ۸۲).

ألا يملأ نفسك إعجابا هذا الحوار بين إبراهيم و أبيه و قومه، و هذا التأمل من إبراهيم فيما يحيط به، و يسترعي نظره في الكون، أو لا تحس بالقلق الذي استبد بإبراهيم و هو ينشد اللّه، و بالراحة التي غمرته عند ما اهتدى إليه، أو لا تشعر بالغبطة كما شعر بها إبراهيم، و هو يتجه إلى الذي فطر السموات و الأرض، أو لا يثور في نفسك الرغبة في هذا الأمن، الذي يناله الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم؟!

كل أولئك إثارات وجدانية تحركها في نفسك هذه القصة، فتحب إبراهيم و تعجب به، و يدفعك ذلك إلى الاقتناع بما اقتنع به إبراهيم.

و خذ قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱) (ق ۶- ۱۱). فهو بتلك الآيات يثير في النفس شعور الإجلال لعظمة الخالق، الذي بنى السماء بناء محكما، و زينها نهارا و ليلا، و مد الأرض، و رفع الجبال في أرجائها، و أنبت فيها بهيج النبات، و شعور الإعجاب بهذا المطر، ينزل من السماء فيحيي الأرض بعد موتها، و ينشئ الجنات و يرفع النخل باسقات، أ لا ترى أن شعور الإجلال و الإعجاب يدفع إلى الإيمان بقدرة اللّه على البعث و النشور.

من بلاغة القرآن، ص: ۳۸

و خذ قوله تعالى: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ (۴۰) وَ آمِنُوا بِما

أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (۴۱) وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۲) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳) أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۴۴) (البقرة ۴۰- ۴۴). أ لا تراه يثير فيهم شعور العرفان بالجميل، عند ذكر نعمه التى أنعم بها عليهم، و هذا العرفان بالجميل يدفعهم إلى الوفاء بالعهد، و الإيمان بما أنزل، لا أن يقابل منهم بالجحود، و النكران، و إلباس الحق ثوب الباطل، كما أثار فيهم غريزة حب النفس، عند ما أنكر عليهم دعوتهم الناس إلى الخير، و نسيانهم أنفسهم، و هكذا اتصل الأمر و النهى بتلك الإثارات الوجدانية، التى تحمل النفس على قبول الأمر و النهى.

و خذ فاتحة الكتاب، و هى من آيات الابتهال و التسبيح، تر فيها الإثارات الوجدانية واضحة جلية، فاتل قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵) اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۶) صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (۷) (سورة الفاتحة ۲- ۷). ترى الحمد قد قرن بما يثير فى النفس الحب و الإجلال معا، فاللّه المنعم بجليل النعم و دقيقها، مالك يوم الدين، يبعث فى النفس الفرح عند انتهاجها الصراط المستقيم، بأنها ستكون مع الذين أنعم اللّه عليهم.

و يقرن اللّه سبحانه و تعالى أوامره بإثارات عاطفية، تدعو إلى قبولها و العمل بها، و ها هو ذا، كما رأينا، يذكر بنى إسرائيل بنعمه عليهم، هذا التذكير الذى يدفعهم إلى عرفان الجميل، فيوفون بعهده، و يرهبونه، و يؤمنون بما أنزل مصدقا لما معهم.

و يذكرنا برقابته لنا حتى نخافه إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً (النساء ۵۸).

و يثير فينا النخوة التى تدفعنا إلى الدفاع عن الضعاف و النساء و الأطفال، و يصور لنا لهفة هؤلاء على من ينصرهم، فيبعث فى نفوسنا إحساس الرفق، و عامل الشفقة، و يرسم لنا من يقاتل ذيادا عن أولئك مقاتلا فى سبيل اللّه، و استمع إليه سبحانه يقول: وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ

من بلاغة القرآن، ص: ۳۹

وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (۷۵) الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (۷۶) (النساء ۷۵، ۷۶).

و اقرأ قوله سبحانه: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (فصلت ۳۴). فإنه عند ما أمرنا أن ندفع بالحسنى، أثار فينا تلك الرغبة فى أن نجد بجوارنا الناصر و المعين نستكثر منهما، حتى لينقلب العدو بتلك المعاملة، كأنه صديق حميم.

و عند ما حثنا على الصدقة، اتكأ على غريزة حب النفس، تلك الغريزة التى تستكثر بمقدار ما تستطيع من الخير، فأبان القرآن أن ما سنبذله من صدقة سوف يعود خيره علينا أضعافا مضاعفة، قال سبحانه: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة ۲۶۱).

و استمع إليه ينهى عن نسيان اللّه: فيذكرنا بعاقبة ذلك، و أن اللّه سوف يصرف هؤلاء الناسين عن خيرهم فيفسقون، و يصور لنا الفرق الشاسع بين أصحاب النار و أصحاب الجنة، و يذكرنا بالفوز الذى يظفر به من لا ينسى اللّه، قال سبحانه:

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۱۹) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰) (الحشر ۱۹، ۲۰).

و اقرأ هذه الابتهالات الرائعة التى يمزج فيها الخوف بالرجاء، و التى انبعثت من قلوب آمنت و تأملت خلق السماء و الأرض، و

اختلاف الليل و النهار، إذ يقول سبحانه: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (۱۹۰) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (۱۹۱) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۱۹۲) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (۱۹۳) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (۱۹۴) فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى (۱۹۵) (آل عمران ۱۹۰- ۱۹۵). أو لا ترى هذا الابتهال المؤثر جديرا بهذه الخاتمة السعيدة، فقد استجاب لهم ربهم.

و الأحكام فى القرآن تقترن بما يثير الوجدان، حتى تقبل النفس على العمل بها راضية مغتبطة، و خذ أشد الآيات توغلا فى بيان هذه الأحكام، مثل آية

من بلاغة القرآن، ص: ۴۰

الدّين، أ لا- تراه فيها يدعو الكاتب إلى أن يكون عادلا فيما يكتب، مذكرا إياه بأن معرفته الكتابة منة من اللّه عليه، يجب أن تقابل بالشكر، و من شكرها أن يكتب كما يجب، قال تعالى: وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ (البقرة ۲۸۲).

و يذكّر من عليه الحق بأن يتقى اللّه، و هو يملى ما عليه من دين وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً (البقرة ۲۸۲). و يتكئ على غريزة التملك، عند ما تحدث عن الحكمة فى كتابة الدّين، إذ كتابته تحفظ المال، و تبعد الريب عن النفس فى قيمته، قال سبحانه: ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا (البقرة ۲۸۲). و عند ما حذرنا أن نضر الكاتب و الشهيد، ذكرنا بأن الإضرار بهما فسوق، لا يرضاه اللّه.

و انتهت آية الدّين بتذكيرنا بأن اللّه عليم بكل شىء، يعلم ما فيه الخير لنا فيأمرنا به، و يكون النجح فى القيام به.

و ختم القرآن حديثه عن أحكام الميراث بقوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۳) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۴) (النساء ۱۳- ۱۴)، و فى ذلك كما ترى إثارة عامل الخوف و الرجاء. و فى استدلالات القرآن تجد فيها تلك الإثارات الوجدانية أيضا، و اقرأ قوله تعالى مبرهنا على وحدانيته: أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (۲۱) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۲۲) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (۲۳) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (۲۴) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (۲۵) وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (۲۶) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (۲۷) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (۲۸) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۲۹) (الأنبياء ۲۱- ۲۹). فهو يثير فى النفس إجلال اللّه بتلك الصفات التى سيقت له، و انفرد بها، فهو رب العرش، لا يسأل عما يفعل و لا يسبقونه بالقول، و هم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم، و هم من خشيته مشفقون، و ذلك كله مما يسند الإيمان بوحدانيته. و قبل أن أختم هذا الفصل، أريد أن أقف قليلا عند تلك الآيات التى قد يبدو فيها أنها تبعث إثارات جسمية، من مثل قوله تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ

من بلاغة القرآن، ص: ۴۱

آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (محمد ۱۵). و قوله تعالى: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَواتا أَفْنانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (۵۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلاءِ

رَبِّكما تُكَذِّبانِ (۵۵) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۹) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (۶۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۱) وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (۶۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۳) مُدْهامَّتانِ (۶۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۵) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (۶۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۷) فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۹) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (۷۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۱) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (۷۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۳) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۷۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۵) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (۷۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۷) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۷۸) (الرحمن ۴۶- ۷۸).

و قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (۱۷) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۱۸) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۲۰) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (۲۱) وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (۲۴) (الطور ۱۷- ۲۴).

و قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (۱۰) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۱۴) عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (۱۹) وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (۲۳) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (۲۵) إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً (۲۶) (الواقعة ۱۰- ۲۶). و نحو ذلك مما عنى به القرآن من ذكر لذائذ الجسد، من طعام و شراب و نساء، مما يمكن أن يقال فيه: إنه يثير لذّات

من بلاغة القرآن، ص: ۴۲

جسدية، لا يعنى الأدب بإثارتها، و هنا يصح أن نشير إلى أن القرآن، و قد نزل للناس جميعا، عنى بأن يستميلهم إليه، و فيهم المثالى ذو اللذة الروحية السامية، و الواقعى الذى لا يسمو روحه عن واقع الحياة، فنزل القرآن و فيه هذان الاتجاهان، حتى يجد فيه كلا الفريقين بغيته. و مما هو جدير بالذكر أن اللذائذ إنما وصفت فى معرض الحديث عن الجنة، و أن القرآن يجمع فيها بين الواقعية و المثالية، فتراه يقول: وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (محمد ۱۵). و يختم حديثه عن الجنة فى سورة الرحمن بقوله تعالى: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۷۸) (الرحمن ۷۸). كما أنه يتحدث عن الأمن و ضمان الخلود فى جنة الخلد، و هى لذائذ روحية، و يضم إلى وصف الجنة و نعيمها أنه لا لغو فيها و لا تأثيم، إلا قيلا سلاما سلاما، و هكذا يجد الواقعى فى وصف الجنة طلبته، و يجد المثالى أمنيته، على أن كثيرا من هذه اللذائذ الجسدية يبعث الراحة فى النفس، و الاطمئنان إلى بهجة الخلود، أ فلا تطمئن النفس إلى هذه الأنهار الجارية، و العيون المتفجرة، و الأشجار ذات الغصون الوارفة، و الثمار الدانية، و الزوجات الحسان المقصورات فى الخيام، و هل يثير ذلك لذة جسدية فحسب، و لا يثير فيها معنى الأنس و الحنان؟! و فى الحق أن هناك مبالغة كبيرة فى ادعاء أن تلك الصفات خالصة لإثارات جسمية محضة.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۴۳

إعجاز القرآن

جاء محمد بدينه الجديد، يدعوهم إلى ترك ما ألفوه، من عبادة الأوثان، و ما اعتادوه فى حياتهم الاجتماعية، و الدينية، و الاقتصادية، و يفرض عليهم فروضا، تتعب أبدانهم: من صوم، و صلاة، و تنقص أموالهم: من صدقة، و زكاة، و يحرم عليهم الخمر و الميسر، و

ألوانا من الزواج كانت مألوفة عندهم، و غير ذلك من فروض و تكاليف، وجدوا حمل أعبائها ثقيلا عليهم، و تعرض محمد لهم، فسب آلهتهم، و سفه أحلامهم، و أثار ثائرتهم، فهبوا يدفعون محمدا بكل قوتهم، و قدم لهم القرآن دليلا على صدق دعوته، و برهانا على أنه رسول، و تحداهم، إذا كانوا فى مرية من أمره، أن يأتوا بقرآن مثله، فقال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (الإسراء ۸۸).

قرأ محمد ذلك على ملأ من قومه، و المعارضين منهم، فأبلسوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ (هود ۱۳)، فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة قل: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۳) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (البقرة ۲۳، ۲۴).

و قد كان العرب عند مبعث محمد (صلى اللّه عليه و سلم) فى نهضة لغوية شاملة، فيهم نوابغ الشعراء، و مصاقع الخطباء، و لهم- كما يقول الجاحظ- «القصيد العجيب و الرجز الفاخر، و الخطب الطوال البليغة، و القصار الموجزة، و لهم الأسجاع و المزدوج، و اللفظ المنثور»، و كانوا يتنافسون على الفصاحة و البلاغة و الذلاقة، و يتبجحون بذلك و يتفاخرون بينهم «۱» و القرآن نفسه يعترف بلددهم، و شدة خصومتهم، فقال عنهم: بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (الزخرف ۵۸). و قال لمحمد: لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (۹۷) (مريم ۹۷).

و لكنهم وقفوا فى حيرة من أمر هذا الكتاب، فقد وجدوا له فى أنفسهم تأثيرا بالغا، لا يجدونه لغيره من ألوان الكلام، فنسبوه حينا إلى السحر، و حينا إلى الشعر: إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (المدثر ۲۴). بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ

---

(۱) إعجاز القرآن للباقلانى ص ۲۶.

من بلاغة القرآن، ص: ۴۴

هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (الأنبياء ۵). ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (القصص ۳۶). و حينا مضوا بعد أن سمعوا القرآن، يقولون قول العاجز المحنق، يخفى عن الناس عجزا لا يستطيع هذا القول أن يستره: لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (الأنفال ۳۱). و لم لم يشاءوا القول، و القرآن يدعوهم فى كل آونة إلى القول؟

و حينا أخذوا يوهمون الناس أن ليس فى هذا القرآن ما يستحق المعارضة؛ لأن من جاء به مجنون لا يؤبه لقوله: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر ۶). وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (الصافات ۳۶). و تلك حيلة لم تجز على أحد، و القرآن صباح مساء، يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن معارضته، و يتحداهم بأن يأتوا بآيات قليلة من مثله، و يذكر فيما يذكر تعظيم شأنه و تفخيم أمره، فيقول: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ (الزمر ۲۳). وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (الحجر ۸۷). إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ (الإسراء ۹). وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الإسراء ۸۲). لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (الحشر ۲۱). و ذلك كله مما يدفعهم إلى مباراته، ليضعوا من شأنه، و ينزلوه عن تلك المنزلة التى يدعيها لنفسه، و لكنهم لم يفعلوا، مع إيمانهم فى صميم قلوبهم، بما له من سلطان على نفوسهم، و أثر عميق فيها، و انتهى الأمر بهم إلى أن فكروا فى حيلة صبيانية، تحول بينه و بين التأثير فى نفوس سامعيه، تلك هى أن يمنعوا أنفسهم من الإصغاء إليه، و يمنعوا غيرهم من ذلك، ظنا منهم أنهم ربما انتصروا بهذه الوسيلة الخاسرة: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (فصلت ۲۶). غير أنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا تأثيره، و لا أن يوقفوا تيار تدفقه فى القلوب، فلجئوا إلى السيف يحكم بينهم، و بين محمد، و لو أنهم استطاعوا إلى المعارضة سبيلا، ما ركبوا هذا المركب الخشن، و عرضوا أنفسهم و أهليهم للقتل حينا، و للأسر حينا آخر، فكان التجاؤهم إلى السيف الحجة القاطعة على عجزهم عن معارضة القرآن و مجاراته.

أما السبب الذى من أجله عجز العرب عن المجىء بمثل القرآن، فللعلماء فيه مذاهب:

من بلاغة القرآن، ص: ۴۵

قال النظام: «إن اللّه تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة، لبيان الأحكام: من الحلال و الحرام، و العرب إنما لم يعارضوه لأن اللّه تعالى صرفهم عن ذلك.

و هذا هو المذهب المعروف بمذهب الصرفة، و هو مذهب باطل لوجوه:

أولها: أنه لو لم يكن معجزا لما فيه من ألوان البلاغة و فنون البيان، لكان إذا نزل فى درجة البلاغة، و انحط فى مرتبة الفصاحة، أبلغ فى الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، و لما عنى أن يكون على هذا النظام العجيب، و أن يظفر من الفصاحة بأوفى نصيب «۱».

ثانيها: أنهم لو كانوا قد صرفوا عن معارضته، لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين عنه؛ لأنهم لم يتحدوا به، فكان من الجائز أن نعثر فى كل العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن، و ذلك ما لم نجده فى تاريخ أدبهم «۲».

ثالثها: أنه لو كانت المعارضة ممكنة، و لكنهم منعوا منها بالصرفة، لم يكن الكلام معجزا، إنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فى نفسه فضيلة على غيره «۳» فيصبح فى مكنة العظماء و البلغاء- بعد زمن التحدى- أن يأتوا بمثله، و لكن شيئا من ذلك لم يكن، فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا، و اهتدى العلماء إلى تبيين أسباب الجمال فى القول، و لكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد، أو يقارب هذا الأفق المتسامى، و كلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة، ازدادوا إيمانا بالضعف و العجز أمام كتاب اللّه.

رابعها: أنه لو كان عجز العرب عن المعارضة بالصرفة، لما استعظموا بلاغة القرآن، و تعجبوا من حسن فصاحته، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: «إن أعلاه لمورق، و إن أسفله لمغدق، و إن له لطلاوة، و إن عليه لحلاوة» «۴».

بل كان الجدير بهم أن يتعجبوا من تعذر ذلك عليهم، بعد أن كانوا عليه قادرين «۵» و لم يكن لتعجبهم لفصاحته وجه، فظهر من كل ما تقدم فساد هذا المذهب.

كما لا نقبل قول من قال إن وجه الإعجاز فى نظم القرآن، أنه حكاية عن كلام اللّه القديم، لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة و الإنجيل و غيرهما من كتب اللّه معجزات، فى النظم و التأليف و ما قال بذلك أحد، و لا ذكرته تلك الكتب نفسها،

---

(۱) إعجاز القرآن ص ۳۲.

(۲) المرجع السابق نفسه.

(۳) المرجع السابق ص ۳۳.

(۴) الطراز ص ۳۹۴.

(۵) نهاية الإيجاز ص ۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۴۶

و كذلك كان من الواجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها منفردة، و ذلك ما لم يقل به أحد «۱».

و قال بعض العلماء إن وجه الإعجاز ما تضمنه من الإخبار بالغيب، و يوردون لذلك آيات منها قوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ (الروم ۲- ۴) و تم غلب الروم كما أخبر فى هذا البضع، و قوله تعالى: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ (الفتح ۲۷). فدخلوا كما قال.

و قال بعضهم: وجه ذلك أنه كان معلوما من حال محمد، أنه كان أميّا، لا يكتب و لا يقرأ، و لا يعرف شيئا من كتب المتقدمين، و أقاصيصهم، و أنبائهم، و سيرهم، و لكنه جاء بكثير من تاريخ الأنبياء السابقين، مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالتعلم، فلما لم يكن ملابسا

لحملة الأخبار، و لا- مترددا على أهل العلم، و لا كان ممن يقرءون، علم أنه لم يصل إلى علم ذلك إلا بوحى من اللّه، و لذلك قال اللّه تعالى: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا- تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (العنكبوت ۴۸). و قال: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (هود ۴۹). غير أن التنبؤ بالغيب و الحديث عن الماضين، إن اتخذا دليلا- على نبوة الرسول، لم يصلحا برهانا على إعجاز القرآن، ذلك أن معظم القرآن ليس تنبؤا و لا قصصا، فلو كان الوجه ما ذكر، لفقد معظم القرآن صفة الإعجاز؛ لأن التحدى وقع بأقصر سورة منه، و هى لا تحوى من التنبؤ و القصص شيئا، و رد بعضهم قبول هذا الوجه من وجوه الإعجاز، بأن القرآن حين تحدى العرب، قالوا لرسول اللّه: إنك تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، و نسبوه إلى أنه يؤلف الكتاب، ثم ينسبه إلى اللّه، افتراء عليه، فتحداهم أن يأتوا بمثله مفترى، أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۳) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴) (هود ۱۳، ۱۴). فظن أن القرآن عند ما تحداهم أن يأتوا بسور مفتريات، سمح لهم أن يأتوا بالقصص الكاذب فى معارضة القرآن، و ذلك عندى، ما لا أرى الآية مشيرة إليه، فكيف تكون السور مثله، و فى الوقت نفسه مفتريات، و لكنه يجاريهم فى دعواهم أنه

---

(۱) راجع إعجاز القرآن ص ۵۱ و تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام و العصر الأموى ص ۲۸.

من بلاغة القرآن، ص: ۴۷

افترى الكذب على اللّه، فنسب إليه كلاما، لم ينزل به وحى عليه، فقال فى الرد عليهم، هاتوا كلاما كاذبا كهذا الذى أتيت به، فهو لم يتحداهم بالأساليب اللفظية فحسب، و لكن تحداهم بما فى القرآن من معان و خواطر، فلو أن المعانى و الخواطر التى يجيئون بها كانت خاطئة أو كاذبة، ما صح أن تكون سورا مثل سور القرآن.

و ذهب بعضهم إلى أن وجه الإعجاز هو خلو القرآن من التناقض «۱»، و ذلك غير مقبول أيضا؛ لأن الإجماع منعقد على أن التحدى واقع بكل سورة من سور القرآن، و قد يوجد فى كثير من الخطب و الشعر و غيرها ما يكون فى مقدار السورة خاليا من التناقض.

أما الوجه الذى نرتضيه لإعجاز القرآن، فهو ما يتحقق فى كل قدر من القرآن، تحدى به «و هو أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه «۲»» و قد شعر العرب أنفسهم بما فى القرآن من سمو عن قول البشر، فنسبوه إلى السحر، فكأنهم يقولون إن القرآن لا يستطيع أن يقوله إلا من أوتى قوة خارقة، و ليست من جنس قوى البشر، و قد وازن الباقلانى «۳» بين القرآن و كلام العرب فى وجوه، نجمل بعضها فيما يلى:

فمن ذلك أن نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، فليس من الشعر، و لا من النثر المرسل، و لا المسجوع، و إذا كنت أخالف الباقلانى فى نفى السجع عن القرآن، و أرى فى بعض آية سجعا، فإنى أرى سجع القرآن يتخذ منهجا خاصّا به، لا يشركه فيه سواه، كما سنبينه عند دراسة أسلوب القرآن.

و من ذلك أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة و الغرابة، و التصرف البديع و الحكم الكثيرة، و التناسب فى البلاغة، و التشابه فى البراعة، على هذا القدر من الطول، و إنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، و إلى شاعرهم قصائد محصورة.

و من ذلك أن عجيب نظمه لا يتفاوت على ما يتصرف فيه من الوجوه: من قصص، و وعظ، و احتجاج، و حكم، و أحكام، و وعد، و وعيد، و وصف، و تعليم أخلاق كريمة، و غير ذلك مما حواه القرآن، بينما نجد كلام البليغ الكامل، و الشاعر المفلق، و الخطيب المصقع يختلف باختلاف الأغراض، فمنهم من يجيد فى الوصف دون الغزل، و من يحسن إذا رغب، و الآخر إذا طرب، و غيرهما إذا ركب، أما

---

(۱) الطراز ج ۳ ص ۳۹۷ و نهاية الإيجاز ص ۶.

(۲) إعجاز القرآن ص ۶۸.

(۳) المرجع السابق ص ۳۸ و ما يليها.

من بلاغة القرآن، ص: ۴۸

نظم القرآن فلا انحطاط فى جميع ما يتصرف فيه عن المنزلة العليا، و لا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا.

و من ذلك أن المعانى التى جاء بها القرآن، و تعالج أحكام الشريعة، و الاحتجاج فى الدين، و الرد على المتحدّين، قد اتسقت فى أسلوب بديع يتعذر على البشر؛ لأنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة أسهل و أقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف و أعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول.

و من ذلك أن الكلام يبين فضله، و رجحان فصاحته، بأن يذكر فى تضاعيف كلام، فتأخذه الأسماع، و تتشوق إليه النفوس، و يرى وجه رونقه باديا، غامرا سائر ما يقرن به، كالدرة التى ترى فى سلك من خرز، و كالياقوتة فى وسط العقد، و أنت ترى الآية من القرآن، يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير، و هى غرة جميعه، و واسطة عقده، و المنادى على نفسه، بتميزه و تخصصه برونقه و جماله.

وجه الإعجاز الحق إذا هو ما اتسم به القرآن من بلاغة، تحير فيها أهل الفصاحة من العرب، و أعيان البلاغة من بينهم، فسلموا، و لم يشغلوا أنفسهم بمعارضته؛ لعلمهم بالعجز عن بلوغ مداه، و قوله تعالى حكاية عنهم: لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا (الأنفال ۳۱). يحمل دليل عجزهم، فلو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم: من القدرة على المجىء بمثل القرآن، لتجاوزوا الوعد إلى الوفاء بما ادعوا، فلما لم ينجزوا ما وعدوا، علم عجزهم و قصور باعهم «۱».

و لما كانت البلاغة سر هذا الإعجاز، وجب أن نلتمس أسبابها، و ندرك مظاهرها، و نضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم، حتى لا نكون مقلدين فيما نعلم، و حتى تكون معرفتنا معرفة الصانع الحاذق، الذى يعلم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج، و كل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع، و كل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع «۲».

***

(۱) راجع من ادعى معارضة القرآن و ما عورض به فى كتاب إعجاز القرآن للرافعى من ۲۲۸ و ما يليها.

(۲) دلائل الإعجاز ص ۳۱.

من بلاغة القرآن، ص: ۴۹

الفصل الأول ألفاظ القرآن

البلاغة و النظم:

لا تفضل الكلمة صاحبتها منفردة فى قاموس اللغة، من حيث دلالة كل على معناه، فكلمة قال، لا تفضل تكلم، و كلمة رجل، لا ميزة لها على أسد، اللهم إلا من ناحية أن بعض الكلمات أسهل جريا على اللسان من بعض، و أخف نطقا، فتجد مثلا كلمة النفس أسلس من كلمة الجرشى، و كلمة مرتفعات أسلس من كلمة مستشزرات، و إلا من ناحية كثرة استعمال بعضها و غرابة البعض الآخر، فإذا ما نظمت الكلمة فى جملة، صارت دالة على نصيبها من المعنى، و صار من حقنا أن نسأل: لم اختيرت هذه الكلمة دون تلك، و لم آثرنا صيغة على أخرى؟

و إن الأسلوب قد يروعك و يبهرك، فإذا أخذت مفرداته كل مفرد على حدة، فقد لا تجد فيه كبير روعة، و لا قوة أسر، و لكن عند ما انتظمت هذه المفردات فى سلك فلاءمت ما قبلها، و ارتبطت بما بعدها، و اكتسبت جمالا و جلالا، و إن شئت فانظر قوله تعالى: وَ

قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (هود ۴۴). فإنك إذا أخذت كل كلمة على حدتها، من غير نظر إلى ما قامت به من أداء حظها المقسوم لها فى معنى الجملة كلها، فقد لا تجد لها من التأثير ما تجده لها، و هى بين أخواتها تؤدى معناها.

و هنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة فى موضعها، و نتبين جمال اختيارها، و ندرك ما لها من الميزة على صاحبتها، و إذا سلكنا هذا المسلك فى الآية الكريمة رأينا الآية تصور ما حدث بعد الطوفان، من ابتلاع الأرض ماءها، و نقاء السماء بعد أن كانت تغطى بسحبها، و استواء السفينة على الجودى، و قد طهرت الأرض من رجس المشركين، فصور اللّه ذلك تصويرا حسيّا، يؤكد فى نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة و خضوعها لأمر اللّه، فهذا المطر المدرار

من بلاغة القرآن، ص: ۵۰

ينهمل من السماء، و هذا الماء الطاغى يجتاح نواحى الأرض، و هذا الاضطراب فى أرجاء الكون، لم يلبث أن سكن و استقر، و عادت الطبيعة إلى هدوئها، عند ما تلقت أمر اللّه لها أن تسكن و تهدأ، و لكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من فى الكون، أو يروا قائله، بنى الفعل للمجهول كما ترى، و أوثر فى نداء الأرض يا دون الهمزة، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل على اللسان فى النطق بهما، و فضّلت كذلك على «أيا» لما فى هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض، و هى رهن أمر اللّه، فى حاجة إليه، و أوثر تنكير الأرض لما فى ذلك من تصغير أمرها، فالمقام هنا يستدعى ذلك التصغير، و يستدعى الإسراع بتلبية الأمر، و ذلك لا يكون مع التعريف المقتضى لإطالة الكلام بأيتها، و جاءت كلمة ابْلَعِي هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها، و هو أن تبتلعه فى سرعة، فهى هنا أفضل من امتصى مثلا؛ لأنها لا تدل على الإسراع فى التشرب، و فى إضافة الماء إليها ما يوحى بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها، فكأنها لم تكلف شططا من الأمر، و قل مثل ذلك فى قوله:

وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي، و لاحظ هذا التناسق الموسيقى بين ابلعى و أقلعى، و بنى غِيضَ للمجهول، مصورا بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى، فهم قد رأوا الماء يغيض و الأمر يتم، و كأنما قد حدث ذلك من تلقاء نفسه، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل، و اختيرت كلمة استوت دون رست مثلا لما فى كلمة استوى من الدلالة على الثبات المستقر، و بنى الفعل قِيلَ للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء، و جاءت كلمة بُعْداً دون (هلاكا) مثلا، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد فى الأرض، و السخرية بمن آمن و عمل صالحا، و أوثر المجىء بالموصوف هنا؛ لأنه لا يراد الدعاء على الظالمين لاتصافهم بالظلم، و إنما يراد الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد؛ لاتصافهم بالظلم، فالمقام هنا، مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم، فاستحقوا لذلك أن يتخلص منهم، و أحس فى كلمة بعدا، دلالة على الراحة النفسية التى شعر بها من فى الكون، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين، و لعل لاستخدام المصدر الذى يؤكد أن الفعل قد تم، أثرا فى ذلك. أو لا ترى الآية قد صورت لك ما حدث بعد الطوفان أدق تصوير، فى عبارة موجزة، فها هى ذى الأرض تبتلع ماءها، و ها هى ذى السحب فى السماء تنقشع مقلعة، و ها هو ذا الماء قد غاض، و عادت

من بلاغة القرآن، ص: ۵۱

الطبيعة كما كانت، فاستقرت سفينة نوح و من معه على الجودى، و تنفس الكون الصعداء، فقد طهر من القوم الظالمين.

و قد يتجمع الحسن حول حرف واحد فى الآية، يثير فى نفسك ألوانا من المعانى، لا تجدها إذا استبدلت به حرفا آخر، و استمع إلى قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶) (الروم ۵۵، ۵۶). أ لا تشعر بما حول هذه الفاء، من استفهامات تثيرها، فكأن الذين أوتوا العلم و الإيمان يقولون لمنكرى البعث: أ لا تزالون مصرين على إنكاره؟ و ما ذا أنتم فاعلون؟ و كيف تلقون ربّا أنكرتم لقاءه؟ و شبيه بهذا قول الشاعر، و قد تمثل به أبو بكر، حين أتاه كتاب خالد بالفتح و هزيمة الأعاجم:

تمنانا، ليلقانا بقومتخال بياض لأمهم السرابا

فقد لاقيتنا فرأيت حرباعوانا، تمنع الشيخ الشرابا فتأمل موضع الفاء فى قوله: فقد لاقيتنا، أو لا ترى فيها معنى الاستخبار عما شاهده الأعداء منهم، عند ما لا قوهم، و معنى الإخبار بأنهم أبلوا خير البلاء، و كانوا فى الحرب أبطالا مغاوير، و كذلك تأمل موضع الفاء فى قول العباس بن الأحنف:

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بناثم القفول، فقد جئنا خراسانا أو لا ترى فيها معنى اللهفة على استنجاز الأمل، و الشوق القاتل إلى العود إلى الوطن المفارق، و المطالبة بتنفيذ ما وعد به، قبل أن يبدأ رحلته.

تخير اللفظ

يتأنق أسلوب القرآن فى اختيار ألفاظه، و لما بين الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، و أن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء، و لذلك لا- تجد فى القرآن ترادفا، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا.

و لما بين الكلمات من فروق، و لما يبعثه بعضها فى النفس من إيحاءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر، فقال: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ (الحجرات ۱۴). فهو لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ و لكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس و لا تمويه،

من بلاغة القرآن، ص: ۵۲

و لما كانت كلمة راعِنا لها معنى فى العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا (البقرة ۱۰۴).

فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ، يؤدى به المعنى.

استمع إليه فى قوله: وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (البقرة ۴۹). ما تجده قد اختار الفعل ذبح، مصورا به ما حدث، و ضعّف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل فى أبناء إسرائيل يومئذ، و لا تجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون.

و تنكير كلمة حياة، فى قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ (البقرة ۹۶).

يعبر تعبيرا دقيقا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها، مهما كانت حقيرة القدر، ضئيلة القيمة، و عند ما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء المتكلم فى قوله تعالى: وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (۲۳) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (الفجر ۲۳، ۲۴). عبرت بأدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ، و قد أدرك فى جلاء و وضوح أن تلك الحياة الدنيا لم تكن إلا و هما باطلا، و سرابا خادعا، أما الحياة الحقة الباقية، فهى تلك التى بعد البعث؛ لأنها دائمة لا انقطاع لها، فلا جرم أن سماها حياته، و ندم على أنه لم يقدم عملا صالحا، ينفعه فى تلك الحياة.

و استمع إلى قوله تعالى: إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱) (الإنسان ۱۰، ۱۱). تجد كلمة العبوس قد استعملت أدق استعمال؛ لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، فإنهم يجدونه عابسا مكفهرّا، و ما أشد اسوداد اليوم، يفقد فيه المرء الأمل و الرجاء، و كلمة قَمْطَرِيراً بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم، و فى كلمتى النضرة و السرور تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين، و ما يبدو على وجوههم من الإشراق، و عما يملأ قلوبهم من البهجة.

و من دقة التمييز بين معانى الكلمات، ما تجده من التفرقة فى الاستعمال بين:

يعلمون، و يشعرون، ففى الأمور التى يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها، تجد كلمة يَعْلَمُونَ صاحبة الحق فى التعبير عنها، أما الأمور التى يكون للحواس مدخل فى شأنها، فكلمة يَشْعُرُونَ أولى بها، و تأمل لذلك قوله تعالى: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (البقرة ۱۳). فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل، و قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (البقرة ۲۶). و قوله تعالى: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (البقرة ۷۷). و قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ

من بلاغة القرآن، ص: ۵۳

الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ (الأنعام ۱۱۴). و قوله تعالى: أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (يونس ۵۵). و قوله تعالى: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (الأنبياء ۲۴). و قوله تعالى: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ۲۵). إلى غير ذلك مما يطول بى أمر تعداده، إذا مضيت فى إيراد كل ما استخدمت فيه كلمة يعلمون.

و تأمل قوله تعالى: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ (البقرة ۱۵۴). فمن الممكن أن يرى الأحياء و أن يحس بهم، و قوله تعالى:

وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (الزمر ۵۵)، فالعذاب مما يشعر به و يحس، و قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (۱۲) (البقرة ۱۱، ۱۲). و قوله تعالى: قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (النمل ۱۸). و قوله تعالى: وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (القصص ۱۱). و غير ذلك كثير.

و استخدم القرآن كلمة التراب، و لكنه حين أراد هذا التراب الدقيق الذى لا يقوى على عصف الريح استخدم الكلمة الدقيقة و هى الرماد، فقال: الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ (إبراهيم ۱۸). كما أنه آثر عليها كلمة الثرى، عند ما قال: تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى (۴) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (۵) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى (۶) (طه ۴- ۶). لأنه يريد- على ما يبدو من سياق الآيات الكريمة- الأرض المكونة من التراب، و هى من معانى الثرى، فضلا عما فى اختيار الكلمة من المحافظة على الموسيقى اللفظية فى فواصل الآيات.

و عبر القرآن عن القوة العاقلة فى الإنسان بألفاظ، منها الفؤاد و اللب و القلب، و استخدم كلا فى مكانه المقسوم له، فالفؤاد فى الاستخدام القرآنى يراد به تلك الآلة التى منحها اللّه الإنسان، ليفكر بها، و لذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة، كالسمع، و البصر، قال تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (الإسراء ۳۶). و تجد هذا واضحا فيما وردت فيه تلك الكلمة من الآيات، و استمع إلى قوله تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (الملك ۲۳). و قوله تعالى: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (النجم ۱۱). و قوله تعالى: وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (الأنعام ۱۱۳). و قوله تعالى: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (۶) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى

من بلاغة القرآن، ص: ۵۴

الْأَفْئِدَةِ (۷) (الهمزة ۶، ۷). و قوله تعالى: مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (إبراهيم ۴۳).

أما اللب و لم يستخدم فى القرآن إلا مجموعا، فيراد به التفكير الذى هو من عمل تلك الآلة، تجد هذا المعنى فى قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة ۱۷۹). و قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (آل عمران ۱۹۰). و قوله تعالى: وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ (البقرة ۲۶۹).

أما القلب، و هو أكثر هذه الكلمات دورانا فى الاستخدام القرآنى، فهو بمعنى أداة التفكير، فى قوله تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها (الأعراف ۱۷۹). و قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها (الحج ۴۶). و قوله تعالى: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (آل عمران ۸). و قوله تعالى: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج ۴۶). و هو أداة الوجدان، كما تشعر بذلك فى قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (الأنفال ۲). و قوله تعالى: وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ (الأحزاب ۱۰). و قوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (۸) (النازعات ۶– ۸). و قوله تعالى: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً (الفتح ۴). و قوله تعالى: وَ جَعَلْنا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً (القيامة ۲۷). و قوله تعالى: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد ۲۸).

و هو أداة الإرادة، كما يبدو ذلك فى قوله تعالى: إِنْ كادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (القصص ۱۰). و قوله تعالى: وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (الأنفال ۱۱). و قوله تعالى: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ (الأحزاب ۵).

فالقرآن يستخدم القلب فيما نطلق عليه اليوم كلمة العقل، و جعله فى الجوف حينا فى قوله تعالى: ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ (الأحزاب ۴).

و فى الصدر حينا، فى قوله: وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج ۴۶). تعبير عما يشعر به الإنسان عند ما يلم به وجدان، أو تملؤه همة و إرادة.

و من الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ أنه لا يكاد يذكر المشركين، إلا بأنهم أصحاب النار، و لكنا نجده قال فى سورة (ص): وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (۶۲) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (۶۳) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ

من بلاغة القرآن، ص: ۵۵

النَّارِ (۶۴). فنراه قد استخدم كلمة أَهْلِ و هى هنا أولى بهذا المكان من كلمة (أصحاب)، لما تدل عليه تلك من الإقامة فى النار و السكنى بها. و كلمة (ميراث) فى قوله تعالى: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (آل عمران ۱۸۰). واقعة موقعها، و هى أدق من كلمة (ملك) فى هذا الموضع، لما أن المال يرى فى أيدى مالكيه من الناس، و لكنه سوف يصبح ميراثا للّه.

و قد يحتاج المرء إلى التريث و التدبر، ليدرك السر فى إيثار كلمة على أخرى، و لكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآنى، فمن ذلك قوله تعالى: قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (۶۵) (طه ۶۳– ۶۵). فقد يبدو للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال: إما أن تلقى و إما أن نلقى، و ربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم الموسيقى فحسب، حتى تتفق الفواصل فى هذا النغم، و ذلك ما يبدو بادئ الرأى، أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن فى تصوير نفسية هؤلاء السحرة، و أنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم، خائفين، أو شاكين فى نجاحهم، و إنما كان الأمل يملأ قلوبهم، فى نصر مؤزر عاجل، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عند ما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالنصر سواء أ ألقى موسى أولا، أم كانوا هم أول من ألقى.

و من ذلك قوله تعالى: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (البقرة ۱۷۶).

فقد يتراءى أن وصف الشقاق، و هو الخلاف، بالقوة أولى من وصفه بالبعد، و لكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء، و لا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذى اختاره القرآن. و من ذلك قوله تعالى: وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (الحج ۲۷). فربما كانت الموسيقى، و الفاصلة فى الآية السابقة دالية– تجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد، فيقال: فج بعيد، و لكن إيثار الوصف بالعمق، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين، فصار كأن له طولا، و عرضا، و عمقا.

و إيثار كلمة مَسْكُوبٍ فى قوله تعالى: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (۲۷) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) (الواقعة ۲۷- ۳۱).

من بلاغة القرآن، ص: ۵۶

مكان كلمة (غزيرة)، أدق فى بيان غزارته، فهو ماء لا يقتصد فى استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاده، بل ربما أوحت تلك الكلمة بمعنى الإسراف فى هذا الاستخدام.

و استخدام كلمة يَظُنُّونَ فى الآية الكريمة: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (۴۶) (البقرة ۴۵، ۴۶).

قوية فى دلالتها على مدح هؤلاء الناس، الذين يكفى لبعث الخشوع فى نفوسهم، و أداء الصلاة، و الاتصاف بالصبر- أن يظنوا لقاء ربهم، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا؟.

و من دقة أسلوب القرآن فى اختيار ألفاظه ما أشار إليه الجاحظ حين قال «۱»:

(و قد يستخف الناس ألفاظا و يستعملونها، و غيرها أحق بذلك منها، أ لا ترى أن اللّه تبارك و تعالى لم يذكر فى القرآن الجوع، إلا فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع، و العجز الظاهر، و الناس لا يذكرون السغب، و يذكرون الجوع فى حالة القدرة و السلامة، و كذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام، و العامة و أكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر، و ذكر الغيث).

لاختيار القرآن للكلمة الدقيقة المعبرة، يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير، ليشعرك به أتم شعور و أقواه، و خذ لذلك مثلا كلمة يُسْكِنِ فى قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ (الشورى ۳۳). و كلمة تَسَوَّرُوا فى قوله تعالى: وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (القصص ۲۱). و كلمة (يطوقون) فى الآية الكريمة: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ (آل عمران ۱۸۰). و كلمة يَسْفِكُ فى آية: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ (البقرة ۳۰). و كلمة (انفجر) فى قوله تعالى: وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً (البقرة ۶۰). و كلمة يَخِرُّونَ فى الآية: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (۱۰۷). وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا (۱۰۸) (الإسراء ۱۰۷، ۱۰۸). و كلمة مُكِبًّا فى قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (النمل ۲۲). و كلمة تَفِيضُ فى قوله تعالى: وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ (المائدة ۸۳). و كلمة يُصَبُّ فى قوله تعالى: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (الحج ۱۹). و كلمة (يدس) فى قوله تعالى:

---

(۱) البيان و التبيين ج ۱ ص ۳۴.

من بلاغة القرآن، ص: ۵۷

وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (النحل ۵۸، ۵۹). و كلمة قاصِراتُ فى قوله تعالى: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (الصافات ۴۸). و كلمة مُسْتَسْلِمُونَ. فى قوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) (الصافات ۲۵، ۲۶). و مُتَشاكِسُونَ فى قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ (الزمر ۲۹). و يطول بى القول، إذ أنا مضيت فى عرض هذه الكلمات التى توضع فى مكانها المقسوم من الجملة، فتجعل المعنى مصورا تكاد تراه بعينك، و تلمسه بيدك، و لا أريد أن أمضى فى تفسير الكلمات التى استشهدت بها؛ لأنها من وضوح الدلالة بمكان.

و لهذا الميل القرآنى إلى ناحية التصوير، نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات، مما أفرد له البيانيون علما خاصّا به دعوه علم البيان، و أوثر أن أرجئ الحديث عن ذلك إلى حين، و حسبى الآن أن أبين ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ فى النفس، ذلك أن تصوير الأمر المعنوى فى صورة الشىء المحسوس يزيده تمكنا من النفس، و تأثيرا فيها، و يكفى أن تقرأ قوله تعالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ (البقرة ٧). و قوله تعالى: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ (الجاثية ٢٣). لترى قدرة كلمة خَتَمَ، فى تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس، و قوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ (البقرة ٢٥٧). لترى قيمة كلمتى الظلمات و النور، فى إثارة العاطفة و تصوير الحق و الباطل. و قوله تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (البقرة ١٨). لترى قيمة هذه الصفات التى تكاد تخرجهم عن دائرة البشر، و قوله سبحانه: يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (البقرة ٢٧).

فكلمات ينقضون و يقطعون و يوصل، تصور الأمور المعنوية فى صور المحس الملموس، و فى القرآن من أمثال ذلك عدد ضخم، سوف نعرض له فى حينه.

و فى القرآن كثير من الألفاظ، تشع منها قوى توحى إلى النفس بالمعنى و حيا، فتشعر به شعورا عميقا، و تحس نحو الفكرة إحساسا قويّا. خذ مثلا قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (١٧) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (١٨) (التكوير ١٧، ١٨). فتأمل ما توحى به كلمة تَنَفَّسَ من تصوير هذه اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل، فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة، لا تحس فيها حركة و لا حياة، و كأنما

الأنفاس قد خفتت حتى لا يكاد يحس بها و لا يشعر، فلما أقبل الصبح صحا الكون، و دبت الحياة فى أرجائه.

و خذ قوله تعالى: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) (التوبة ١١٧، ١١٨). وقف عند كلمة (ضاق) فى ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، فإنها توحى إليك بما ألم بهؤلاء الثلاثة من الألم و الندم، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاء، فأصبحوا لا يجدون فى أنفسهم مكانا، يلتمسون فيه الراحة و الهدوء، فأصبح القلق يؤرق جفنهم، و الحيرة تستبد بهم، و كأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم.

و اقرأ قوله تعالى: تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً (السجدة ١٦).

و تبين ما تثيره فى نفسك كلمة تَتَجافى، من هذه الرغبة الملحة التى تملك على المتقين نفوسهم، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم، و لا يجدون فيها الراحة و الطمأنينة، و كأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها، و تنبو عنها. وقف كذلك عند كلمة يَعْمَهُونَ فى قوله سبحانه: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (البقرة ١٥). فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى فى الحروف كفيل بالإيحاء إلى النفس، بما فيه هؤلاء القوم من حيرة و اضطراب نفسى، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق.

و اقرأ الآية الكريمة: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (النساء ١٨٥). أ فلا تجد فى كلمة زُحْزِحَ ما يوحى إليك بهذا القلق، الذى يملأ صدور الناس فى ذلك اليوم، لشدة اقترابهم من جهنم، و كأنما هم يبعدون أنفسهم عنها فى مشقة و خوف و ذعر. و فى كلمة طمس فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (القمر ٣٧). ما يوحى إليك بانمحاء معالم هذه العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل فى هذا الوجه وجود. و يوحى إليك الراسخون فى قوله سبحانه: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ

تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ (النساء ٧). بهذا الثبات المطمئن، الذى يملأ قلب هؤلاء العلماء، لما ظفروا به من معرفة الحق و الإيمان به.

من بلاغة القرآن، ص: ۵۹

و توحى كلمة شَنَآنُ فى قوله سبحانه: وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا (المائدة ٢). توحى بهذا الجوى، الذى يملأ الصدر، حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه، و لا تستسيغ نفسه الاقتراب منه.

و لما سمعنا قوله تعالى لعيسى بن مريم: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (النساء ۵۵). أوحى إلينا التعبير بالتطهير، بما يشعر به المؤمن باللّه نحو قوم مشركين، اضطر إلى أن يعيش بينهم، فكأنهم يمسونه برجسهم، و كأنه يصاب بشىء من هذا الرجس، فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم. و كلمة سُكِّرَتْ فى قوله سبحانه: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١۴) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (الحجر ١۴، ١۵). قد عبر بها الكافرون عما يريدون أن يوهموا به، عما حدث لأبصارهم من الزيغ، فكانت كلمة سُكِّرَتْ، و هى مأخوذة من السكر دالة أشد دلالة على هذا الاضطراب فى الرؤية، و لا سيما أن هذا السكر قد أصاب العين و استقل بها، و معلوم أن الخلط من خصائص السكر، فلا يتبين السكران ما أمامه، و لا يميزه على الوجه الحق.

و اختار القرآن عند عد المحرمات كلمة أُمَّهاتُ، إذ قال: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ (النساء ٣). و آثر كلمة الْوالِداتُ فى قوله سبحانه: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ (البقرة ٢٣٣)، لما أن كلمة (الأم) تبعث فى النفس إحساسا بالقداسة، و تصور شخصا محاطا بهالة من الإجلال، حتى لتشمئز النفس و تنفر أن يمس بما يشين هذه القداسة، و ذلك الإجلال، و تنفر من ذلك أشد النفور، فكانت أنسب كلمة تذكر عند ذكر المحرمات، و كذلك تجد كل كلمة فى هذه المحرمات مثيرة معنى يؤيد التحريم، و يدفع إليه، أما كلمة الوالدات فتوحى إلى النفس بأن من الظلم أن ينزع من الوالدة ما ولدته، و أن يصبح فؤادها فارغا، و من هنا كانت كل كلمة منهما موحية فى موضعها، آخذة خير مكان تستطيع أن تحتله.

و قد تكون الكلمة فى موضعها مثيرة معنى لا يراد إثارته، فيعدل عنها إلى غيرها، تجد ذلك فى قوله سبحانه: وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً (الجن ٣).

فقد آثر كلمة صاحِبَةً على زوج و امرأة، لما تثيره كلاهما من معان، لا تثيرهما فى عنف مثلهما- كلمة صاحبة.

و قد يكون الجمع بين كلمتين هو سر الإيحاء و مصدره، كالجمع بين النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ فى قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (البقرة ٢۴). فهذا الجمع يوحى إلى النفس بالمشاكلة

من بلاغة القرآن، ص: ۶۰

بينهما و التشابه. و قد تكون العبارة بجملتها هى الموحية كما تجد ذلك فى قوله تعالى: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ (المؤمنون ١٩). أو لا تجد هذه الثياب من النار، موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم، فقد خلقت الثياب يتقى بها اللابس الحر و القر، فما ذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران.

لو بغير الماء صدرى شرق كنت كالغصان، بالماء اعتصارى و من هذا الباب قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (الزمر ١۶). فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس، فكيف إذا كان الظلة نفسها من النيران.

هذه أمثلة قليلة لما فى القرآن من كلمات شديدة الإيحاء، قوية البعث لما تتضمنه من المعانى. و هناك عدد كبير من ألفاظ، تصور بحروفها، فهذه «الظاء و الشين» فى قوله تعالى: يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (الرحمن ٣۵).

و «الشين و الهاء» فى قوله تعالى: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۶) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (الملك ٧). و «الظاء» فى قوله تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (الليل ١۴). و «الفاء» فى قوله سبحانه: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ

بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (۱۱) إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (الفرقان ۱۱، ۱۲). حروف تنقل إليك صوت النار مغتاظة غاضبة. و حرف «الصاد» فى قوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (القمر ۱۹). يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة، كما تحمل «الخاء» فى قوله سبحانه: وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (فاطر ۱۲). إلى أذنك صوت الفلك، تشق عباب الماء.

و ألفاظ القرآن مما يجرى على اللسان فى سهولة و يسر، و يعذب وقعه على الأذن، فى اتساق و انسجام.

قال البارزى فى أول كتابه: (أنوار التحصيل فى أسرار التنزيل): اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، و كذلك كل واحد من جزءى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، و لا بدّ من استحضار معانى الجمل، و استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها و أفصحها، و استحضار هذا متعذر على البشر، فى أكثر الأحوال، و ذلك عتيد حاصل فى علم اللّه، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث و أفصحه، و إن كان مشتملا على الفصيح و الأفصح، و المليح و الأملح، و لذلك أمثلة منها قوله تعالى: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (الرحمن ۵۴). لو قال مكانه: «و ثمر الجنتين قريب». لم يقم مقامه من

من بلاغة القرآن، ص: ۶۱

جهة الجناس بين الجنى و الجنتين، و من جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، و من جهة مؤاخاة الفواصل. و منها قوله تعالى: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ (العنكبوت ۴۸). أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة. و منها: لا رَيْبَ فِيهِ (البقرة ۲). أحسن من (لا شك فيه) لثقل الإدغام، و لهذا كثر ذكر الريب. و منها:

وَ لا تَهِنُوا (آل عمران ۱۳۹). أحسن من (و لا تضعفوا) لخفته. و وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (مريم ۴). أحسن من (ضعف)؛ لأن الفتحة أخف من الضمة، و منها «آمن» أخف من «صدق»، و لذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق. و آثَرَكَ اللَّهُ (يوسف ۹۱). أخف من (فضّك) و (آتى) أخف من (أعطى) و (أنذر) أخف من (خوّف) و (خير لكم) أخف من (أفضل لكم) و المصدر فى نحو: هذا خَلْقُ اللَّهِ (لقمان ۱۱). (يؤمنون بالغيب) أخف من (مخلوق) و (الغائب) و (نكح) أخف من (تزوج)؛ لأن فعل أخف من تفعّل، و لهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر، و لأجل التخفيف و الاختصار استعمل لفظ الرحمة، و الغضب، و الرضا، و الحب، و المقت، فى أوصاف اللّه تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة؛ لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام، كأن يقال: يعامله معاملة المحب، و الماقت، فالمجاز فى مثل هذا أفضل من الحقيقة، لخفته، و اختصاره، و ابتنائه على التشبيه البليغ، فإن قوله: فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ (الزخرف ۵۵). أحسن من (فلما عاملونا معاملة المغضب) أو (فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب) أ ه «۱».

و هناك لفظتان أبى القرآن أن ينطق بهما، و لعله وجد فيهما ثقلا، و هما كلمتا «الآجر» و «الأرضين». أما الأولى فقد أعرض عنها فى سورة القصص، فبدل أن يقول: (و قال فرعون: يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى، فهيئ لى يا هامان آجرا، فاجعل لى صرحا، لعلى أطلع إلى إله موسى). قال: وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى (القصص ۳۸).

و أما الثانية فقد تركها فى الآية الكريمة: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (الطّلاق ۱۲).

هذا و مما ينبغى الإشارة إليه أن القرآن قد أقل من استخدام بعض الألفاظ، فكان يستخدم الكلمة مرة أو مرتين، و ليس مرجع ذلك لشىء سوى المقام الذى يستدعى

---

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۱۲۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۶۲

ورود هذه الكلمة. و للقرآن استعمالات يؤثرها، فمن ذلك وصفه الحلال بالطّيب، و ذكر السّجّيل مع حجارة، و إضافة الأساطير إلى الأولين، و جعل مسنون وصفا للحمأ، و يقرن التأثيم باللغو، و إلّا بذمّة، و مختالا بفخور، و يصف الكذاب بأشر.

و وازن ابن الأثير بين كلمات استخدمها القرآن و جاءت فى الشعر، فمن ذلك أنه جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن و بيت من الشعر، فجاءت فى القرآن جزلة متينة، و فى الشعر ركيكة ضعيفة ... أما الآية فهى قوله تعالى: فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ (الأحزاب ۵۳). و أما بيت الشعر، فهو قول أبى الطيب المتنبى:

تلذ له المروءة، و هى تؤذىو من يعشق يلذ له الغرام و هذا البيت من أبيات المعانى الشريفة، إلا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه و فى آية القرآن، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، و حسن موقعها فى تركيب الآية ... و هذه اللفظة التى هى تؤذى إذا جاءت فى الكلام، فينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها، متعلقة به، كقوله تعالى: إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَ و قد جاءت فى قول المتنبى منقطعة، أ لا ترى أنه قال: تلذ له المروءة و هى تؤذى، ثم قال: و من يعشق يلذ له الغرام، فجاء بكلام مستأنف، و قد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى، و أضيف إليها كاف الخطاب، فأزال ما بها من الضعف و الركة، قال: «باسم اللّه أرقيك، من كل داء يؤذيك» «۱». و كذلك ورد فى القرآن الكريم، إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ، فلفظة (لى) أيضا مثل لفظة يؤذى، و قد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، و إذا جاءت منقطعة لا تجىء لائقة، كقول أبى الطيب أيضا:

تمسى الأمانى صرعى دون مبلغهفما يقول لشىء: ليت ذلك لى «۲» و هنا من هذا النوع لفظة أخرى، قد وردت فى القرآن الكريم، و فى بيت من شعر الفرزدق، فجاءت فى القرآن حسنة، و فى بيت الشعر غير حسنة، و تلك اللفظة هى لفظة القمل، أما الآية فقوله تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ (الأعراف ۱۳۳). و أما بيت الشعر فقول الفرزدق:

من عزه احتجرت كليب عندهزريا، كأنهم لديه القمّل و إنما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر؛ لأنها جاءت فى الآية مندرجة فى ضمن كلام، و لم ينقطع الكلام عندها، و جاءت فى الشعر قافية

---

(۱) المثل السائر: ص ۵۷.

(۲) المرجع السابق: ص ۵۸.

من بلاغة القرآن، ص: ۶۳

أى آخرا انقطع الكلام عندها، و إذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم، غصنا فى بحر عميق لا قرار له، فمن ذلك هذه الآية المشار إليها، فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ، هى: الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و أحسن هذه الألفاظ الخمسة هى: الطوفان، و الجراد، و الدم، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا الطوفان، و الجراد، و أخرت لفظة الدم آخرا، و جعلت لفظة القمل و الضفادع فى الوسط؛ ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة، و ينتهى إليه آخرا، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان، و الجراد، و أخف فى الاستعمال، و من أجل ذلك جىء بها آخرا، و مراعاة مثل هذه الأسرار و الدقائق فى استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية «۱».

و قال ابن سنان الخفاجى، معلقا على قول الشريف الرضى:

أعزز علىّ بأن أراك و قد خلتعن جانبيك مقاعد العواد إيراد مقاعد فى هذا البيت صحيح، إلا أنه موافق لما يكره فى هذا الشأن، لا سيما و قد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم، و هم العواد، و لو انفرد، كان الأمر فيه سهلا، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء به «۲». و ابن سنان يشترط لفصاحة الكلمة ألا يكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره «۳»، قال ابن الأثير: و قد جاءت هذه اللفظة المعيبة فى الشعر فى القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية، و هى قوله تعالى: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ

لِلْقِتالِ (آل عمران ۱۲۱).

و كذلك قوله تعالى: وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (۸) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (۹) (الجن ۸، ۹). أ لا ترى أنها فى هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه، كما جاءت فى الشعر، و لو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد، مقاعد الزيادة، أو ما جرى مجراه، لذهب ذلك القبح، و زالت تلك الهجنة، و لذا جاءت هذه اللفظة فى الآيتين على ما تراه من الحسن، و جاءت على ما تراه من القبح، فى قول الشريف الرضى «۴».

و من ذلك استخدام كلمة شىء، ترجع إليها فى القرآن الكريم، فترى جمالها فى مكانها المقسوم لها. و استمع إلى قوله تعالى: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (الكهف ۴۵). و قوله تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (الطّور ۳۵). و قوله

---

(۱) المرجع السابق نفسه.

(۲) سر الفصاحة: ص ۷۹.

(۳) المرجع السابق: ص ۷۸.

(۴) المثل السائر: ص ۷۱.

تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس ۴۴). إلى غير ذلك من عشرات الآيات التى وردت فيها تلك اللفظة، و كانت متمكنة فى مكانها أفضل تمكن و أقواه، و وازن بينها فى تلك، و بينها فى قول المتنبى يمدح كافورا:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيهلعوقه شىء عن الدوران فإنك تحس بقلقها فى بيت المتنبى، ذلك أنها لم توح إلى الذهن بفكرة واضحة، تستقر النفس عندها و تطمئن، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشىء، الذى يعوق الفلك عن الدوران، فكأن هذه اللفظة لم تقم بنصيبها فى منح النفس الهدوء الذى يغمرها، عند ما تدرك المعنى و تطمئن إليه.

و لم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظا لإشراقها، و سياجا لجلالها، لم تهن لفظة و لم تتخل عن نصيبها، فى مكانها من الحسن، و قد يقال: إن كلمة الغائط من قوله سبحانه: وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً (المائدة ۴۳). قد أصابها الزمن، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها، و لكنا إذا تأملنا الموقف، و أنه موقف تشريع و ترتيب أحكام، وجدنا أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى، و صاغه فى كناية بارعة، فمعنى الغائط فى اللغة المكان المنخفض، و كانوا يمضون إليه فى تلك الحالة، فتأمل أى كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة، و إن شئت أن تتبين ذلك، فضع مكانها كلمة تبرزتم، أو تبولتم، لترى ما يثور فى النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان، و من ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية يوم نزل القرآن، و أنها لا تزال إلى اليوم أسمى ما يمكن أن يستخدم فى هذا الموضع التشريعى الصريح.

الفاصلة «۱»

نعنى بها تلك الكلمة التى تختم بها الآية من القرآن، و لعلها مأخوذة من قوله سبحانه: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (فصلت ۳). و ربما سميت بذلك؛ لأن بها يتم بيان المعنى، و يزداد وضوحه جلاء و قوة، و هذا لأن التفصيل فيه توضيح و جلاء و بيان، قال تعالى: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ (فصلت ۴۴).

فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميزة فى بناء هيكل السورة.

---

(۱) رجعت فى كثير من هذا الفصل إلى كتاب الإتقان.

من بلاغة القرآن، ص: ۶۵

و تنزل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، و يتم بها النغم الموسيقى للآية، فنراها أكثر ما تنتهى بالنون و الميم و حروف المد، و تلك هى الحروف الطبيعية فى الموسيقى نفسها، قال سيبويه: إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف و الياء و النون، لأنهم أرادوا مد الصوت، و يتركون ذلك إذا لم يترنموا.

و تأتى الفاصلة فى القرآن مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى موضعها، غير نافرة و لا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى و اضطرب الفهم، فهى تؤدى فى مكانها جزءا من معنى الآية، ينقص و يختل بنقصانها، و هاك قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۷) (البقرة ۲- ۷). ترى الآية قد كمل معناها بالفاصلة، و أن الفاصلة قامت بأداء نصيبها منه.

و قد يشتد تمكن الفاصلة فى مكانها، حتى لتوحى الآيات بها، قبل نطقها، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال: أملى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَكِينٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً (المؤمنون ۱۳، ۱۴). و هنا قال معاذ بن جبل: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ، فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول اللّه؟ قال: بها ختمت «۱»- و حتى ليأبى قبولها، و الاطمئنان إليها، من له ذوق سليم، إذا غيرت و أبدل بها سواها، كما حكى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ: «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن اللّه غفور رحيم»، و لم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام اللّه فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه «۲»، و الآية إنما ختمت بقوله تعالى: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، و سواء أصح ذلك أم لم يصح، فإنا نشعر هنا بما بين الفاصلة و الآية، من ارتباط لا ينفصم.

خذ مثلا تلك الآيات التى تنتهى بوصفه سبحانه بالحكمة، تجد فيها ما يناسب تلك الحكمة و يرتبط بها، و اقرأ قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة ۲۲۰). أ لا ترى المقام و هو مقام تشريع و تحذير

---

(۱) الإتقان: ص ۱۴.

(۲) المرجع السابق: ص ۱۰۱.

من بلاغة القرآن، ص: ۶۶

يستدعى عزة المحذر، و حكمة المشرع. و قوله تعالى: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۱) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۳۲) (البقرة ۳۱، ۳۲). فالمقام هنا مقام للتعليم، و وضع هذا التعليم فى موضع دون سواه، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم و الحكمة. و قوله تعالى: هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران ۶). فالتفرد بالألوهية، و التصرف المطلق فى اختيار ما يشاء، ثم تصوير الجنين على صورة خاصة، كل ذلك يناسب وصفه تعالى بالعزة و الحكمة. و قوله تعالى: بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (۱۲۵) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱۲۶) (آل عمران: ۱۲۵، ۱۲۶). فإمداد المؤمنين بالملائكة لتطمئن قلوبهم من نعم حكيم، يمهد للمسببات بأسبابها، و النصر لا يكون إلا من عزيز يهبه لمن يشاء. و قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِى أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً

مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۰) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۷۱) (الأنفال: ۷۰، ۷۱). فهو عليم بخيانتهم، حكيم فى التمكين منهم.

و ربما احتاج الأمر إلى إمعان و تدبر، لمعرفة سر اختتام الآية بهذا الوصف، و يبدو أن ختمها بسواه أولى، و من ذلك قوله تعالى: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المائدة ۱۱۸). فقد يبدو بادئ ذى بدء أن قوله: و إن تغفر لهم، يحتم أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم، و لكن تأملا- هادئا يهدى إلى أنه لا- يغفر لمن استحق العذاب إلا- من ليس فوقه أحد، يرد عليه حكمه، فهو عزيز غالب، و حكيم يضع الشىء فى موضعه، و قد يخفى وجه الحكمة على الناس فيما يفعل، فيتوهم أنه خارج عن الحكمة، و ليس كذلك، فكان الوصف بالحكيم احتراسا حسنا، أى و إن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب، فلا اعتراض لأحد عليك فى ذلك، و الحكمة فيما فعلته، و نظير ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة: أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة ۷۱). و فى سورة الممتحنة: وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الممتحنة ۵). و فى سورة غافر: رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (غافر ۸). و فى سورة النور: وَ لَوْ لا- فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (النور ۱۰). فقد يكون من المناسب فى بادئ الرأى أن يوصف سبحانه هنا بتواب رحيم؛ لأن الرحمة

من بلاغة القرآن، ص: ۶۷

مناسبة للتوبة، لكن التعبير بالحكمة هنا، إشارة إلى حكمته سبحانه فى مشروعية اللعان، الذى سن أحكامه، فى هذه السورة «۱».

و خذ الآيات التى تنتهى بوصفه تعالى بالعلم، أو بالقدرة، أو بالحلم، أو بالغفران، تجد المناسبة فى ذلك الختم واضحة جلية، و اقرأ قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة ۱۱۵). فهو يعلم بما يجرى فى المشرق و المغرب، و قوله تعالى: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة ۱۲۷). السميع لنجوانا، و العليم بما تضمره أفئدتنا من الإخلاص لك، و قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى (۱۸۰) الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ (البقرة ۱۸۰، ۱۸۱). فهو سميع بما تم من وصية و عليم بمن يبدلها. و قوله تعالى: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل ۷۷). فالمجىء بالساعة فى مثل لمح البصر أو أقرب، يستدعى القدرة الفائقة، و قوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الحج ۶). فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة، و قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ- لا ريب- يقدر على كلّ شىء.

و ربما خفى الأمر فى الختم بأحد هذين الوصفين، كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة ۲۹). و فى آل عمران: قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران ۲۹). فإن المتبادر إلى الذهن فى آية البقرة الختم بالقدرة، و فى آية آل عمران الختم بالعلم، و لكن لما كانت آية البقرة عن خلق الأرض و ما فيها، على حسب مصلحة أهلها و منافعهم، و خلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، و الخالق على هذا النسق يجب أن يكون عالما بما فعله، كليّا و جزئيا، مجملا و مفصلا، ناسب ذلك ختمها بصفة العلم، و لما كانت آية آل عمران مسوقة للوعيد، و كان التعبير بالعلم فيها، يراد به الجزاء بالعقاب و الثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة القادرة على هذا الجزاء «۲».

و اقرأ قوله تعالى: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (البقرة ۲۲۵). تجد مناسبة الغفران و الحلم لعدم المؤاخذة على

---

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۱۰۳.

(۲) المرجع السابق نفسه.

من بلاغة القرآن، ص: ۶۸

اللغو فى الإيمان، واضحة قوية. و قوله تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (البقرة ۲۶۳). فاللّه غنى عن هذه الصدقة المتبوعة بالأذى، و حليم لا يعجل العقوبة، فربما ارتدع هذا المتصدق المؤذى. و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (البقرة ۱۵۵). فالعفو عن هؤلاء الذين استزلهم الشيطان، يناسبه وصف اللّه بالغفور الحليم أتم مناسبة، و قد يخفى وجه الوصف بذلك فى بعض الآيات، كما فى قوله سبحانه: تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (الإسراء ۴۴). فختم الآية بالحلم و المغفرة عقب تسبيح الأشياء غير ظاهر فى بادئ الرأى، و لكن لما كان كل شىء فى السموات و الأرض يسبح بحمد اللّه، و يشير إليه، و يدل عليه، كان من الغفلة التى تستحق العقوبة ألا نفقه دلالة هذه المخلوقات على الخالق، فناسب ذلك وصفه بالحلم و الغفران، حين لم يعاجل هؤلاء الغافلين بالعقاب.

و اقرأ قوله سبحانه: قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (هود ۸۷). وصفوه بالحلم أى العقل، الذى لا يتناسب فى زعمهم مع دعوته إياهم إلى ترك عبادة ما كان آباؤهم يعبدون، و وصفوه بالرشد الذى يتنافى فى زعمهم كذلك، مع دعوته إياهم إلى ترك تصرفهم فى أموالهم، كما كانوا يتصرفون، فقد ناسبت الفاصلة معنى الآية كما رأيت.

و قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ «۱» فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (۲۷) (السجدة ۲۶، ۲۷). ختمت الآية الأولى ب يَسْمَعُونَ، لأن الموعظة فيها مسموعة، و هى أخبار من قبلهم من القرون، و ختمت الثانية ب يُبْصِرُونَ؛ لأن الموعظة فيها مرئية من سوق الماء إلى الأرض الجرز، و إخراج الزرع و أكل النبات «۲».

و قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الأنعام ۱۰۳).

ختمت الآية باللطيف، و هو يناسب ما لا يدرك بالبصر، و بالخبير، و هو يناسب ما يدرك الأبصار «۳».

و قد تجتمع فواصل متنوعة، بعد ما يكاد يتشابه، لحكمة فى هذا التنوع، و من

---

(۱) الأرض التى لا تنبت أو أكل نباتها.

(۲) الإتقان ج ۲ ص ۱۰۱.

(۳) المرجع السابق نفسه.

من بلاغة القرآن، ص: ۶۹

ذلك قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۲) (النحل ۱۰- ۱۲).

ختمت آية ب يَتَفَكَّرُونَ، لما أن الاستدلال بإنبات الزرع، و الثمر، على وجود اللّه و قدرته، يحتاج إلى فضل تأمل، يرشد إلى أن حدوث هذه الأنواع، يحتاج إلى إله قادر، يحدثه، فناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به، و انتهت الثانية ب يَعْقِلُونَ، لما أن تسخير الليل و النهار لخدمة الإنسان، فيرتاح ليلا و يعمل نهارا، و تسخير الشمس، و القمر، و النجوم، فتشرق و تغرب فى دقة و نظام تامين، يحتاج إلى عقل يهدى إلى أن ذلك لا بدّ أن يكون بيد خالق مدبر، فختمت الآية ب يَعْقِلُونَ، و ختمت الآية الأخيرة ب يَذَّكَّرُونَ؛ لأن

الموقف فيها يستدعى تذكر ألوان مختلفة بثها اللّه فى الأرض، للموازنة بين أنواعها، بل الموازنة بين أصناف نوع منها، فلا يلهيهم صنف عن سواه، و لا يشغلهم نوع عن غيره، و هذه الموازنة تفضى إلى الإيمان بقدرة اللّه، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة.

و من ذلك قوله تعالى: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۵۱) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۱۵۲) وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۵۳) (الأنعام ۱۵۱- ۱۵۳).

قال صاحب الإتقان «۱»: فإن الأولى ختمت بقوله لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، و الثانية بقوله لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، و الثالثة بقوله لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، لأن الوصايا التى فى الآية الأولى، إنما يحمل على تركها عدم العقل، الغالب على الهوى؛ لأن الإشراك لعدم استكمال العقل، الدال على توحيده، و عظمته، و كذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل، لسبق إحسانهما، إلى الولد بكل طريق، و كذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق، مع وجود الرازق الحى الكريم، و كذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل، و كذا قتل النفس لغيظ أو غضب فى القاتل، فحسن بعد ذلك يعقلون.

---

(۱) ج ۲ صفحة ۱۰۲.

من بلاغة القرآن، ص: ۷۰

و أما الثانية فتعلقها بالحقوق المالية، و القولية، فإن من علم أن له أيتاما، قد يخلفه عليهم غيره من بعده، لا يليق به أن يعامل أيتام غيره، إلا بما يحب أن يعامل به أيتامه، و من يكيل، أو يزين، أو يشهد لغيره، لو كان ذلك الأمر له، لم يحب أن يكون فيه خيانة، و كذا من وعد لو وعد، لم يحب أن يخلف، و من أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبره و تأمله، فلذلك ناسب الختم بقوله: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، و أما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع اللّه الدينية مؤد إلى غضبه، و إلى عقابه، فحسن: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أى عقاب اللّه.

و من ذلك قوله تعالى وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۹۷) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۹۹) (الأنعام ۹۷- ۹۹). ختمت الآية الأولى بالعلم، لأن الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر و البحر مما يختص به العلماء، فكان إدراك هذا الفضل آية يستدلون بها على وجود اللّه و قدرته، و ختمت الآية الثانية بالفقه؛ لأن إدراك إنشاء الخلائق من نفس واحدة، و تنقلهم فى الأصلاب و الأرحام، مما يحتاج إلى تدبر و تفكر، ناسبه ختم الآية بيفقهون، إذ الفقه فهم الأشياء الدقيقة، و تحدثت الآية الثالثة عن النعم التى أنعم اللّه بها على عباده: من إخراج النبات و الثمار، و ألوان الفواكه، فناسب ختمها بالإيمان، الداعى إلى شكره تعالى على نعمه.

و من ذلك قوله تعالى: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۴۲) (الحاقة ۴۱، ۴۲). فختم الأولى ب (تؤمنون)؛ لأن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة، فمن قال إنه شعر كان كافرا و معاندا عنادا محضا، فكان من المناسب ختمه بقوله: قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ؛ أما مخالفة القرآن لنظم الكهان فمما يحتاج إلى تدبر و روية، لأن كلا منها نثر، فليست مخالفته له فى وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، و لكنها تظهر بتدبر ما فى القرآن من بلاغة رائعة و معان أنيقة، فحسن لذلك ختمه بقوله: قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ «۱».

و مما يجمل إيراده هنا أن تختلف الفاصلتان فى موضعين، و المتحدث عنه واحد فيهما، و ذلك كقوله تعالى فى سورة إبراهيم: وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا

---

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۲۰۲.

من بلاغة القرآن، ص: ۷۱

تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم ۳۴). و قوله تعالى فى سورة النحل: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸) (النحل ۱۷، ۱۸).

و المتأمل يجد سر هذا الاختلاف، أن القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم اللّه، فهو ظلوم كفار، و أخرى مقابلة اللّه سبحانه نكران الجميل و الظلم و الكفر بالنعم، بالغفران و الرحمة، و كان ختام الآية الأولى بما ختمت به، لأنها كانت فى معرض صلة الإنسان باللّه، و كانت الثانية فى معرض الحديث عن اللّه، فناسب ختم الآية بذكر صفاته.

و نظير ذلك قوله سبحانه فى سورة الجاثية: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵) (الجاثية ۱۴، ۱۵). كررت هذه الآية فى سورة فصلت، و ختمت بفاصلة أخرى، إذ قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت ۴۶). و لعل سر ذلك أن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكرى البعث، فناسب ختم الآية بالحديث عنه، أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها: من جزاء كل بما يستحق؛ و نظير هذا أيضا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (النساء ۴۸). و قال مرة أخرى فى السورة نفسها: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً (النساء ۱۱۶). و نستطيع أن نلتمس سر هذا الاختلاف فى أن الآية الأولى وردت فى حديث عن اليهود الذين افتروا على اللّه الكذب، مما ناسب أن تختم الآية بالافتراء، الذى اعتاده اليهود، و هم أهل الكتاب. أما الآية الثانية فقد وردت فى حديث عن المشركين، و هم فى إشراكهم لا يفترون، و لكنهم ضالون ضلالا بعيدا.

و قد تكون المخالفة لتعديد الأوصاف و إثباتها، حتى تستقر فى النفس، كما فى قوله سبحانه: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (المائدة ۴۴). فقد كررها قائلا: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (المائدة ۴۵). و قال مرة ثالثة: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (المائدة ۴۷). يريد أن يبين أن من لم يحكم بما أنزل اللّه ساتر لما أنزله اللّه، ظالم لنفسه، فاسق بهذا الستر.

و قد يتشابه المقامان فى الهدف و الغاية فتتحد الفاصلة فيهما كما فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۸) وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ

من بلاغة القرآن، ص: ۷۲

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۹) (النور ۵۸، ۵۹). فالآيتان فى الاستئذان، و قد ختمتا بفاصلة متحدة.

و اتحدت الفاصلة فى قوله سبحانه:

بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۸۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۸۲) (البقرة ۸۱، ۸۲).

للموازنة بين خلودين، أحدهما فى الجنة، و الآخر فى السعير.

و قد تحدث العلماء عما يكون فى الآية مما يشير إلى الفاصلة، و يسمون ذلك تصديرا و توشيحا، أما التصدير فأن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها فى الآية، و دعوه رد العجز على الصدر، و مثلوا له بقوله تعالى: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء ۱۶۶). و قوله تعالى: هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (آل عمران ۸). و قوله تعالى: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (الأنعام ۱۰). و قوله تعالى: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (الإسراء ۲۱). و قوله تعالى: قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (طه ۶۱). و قوله تعالى: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (نوح ۱۰).

و فى ذلك و شبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاما تاما، يستقر فى النفس و تتقبله أعظم قبول. و حينا يظن أن الآية تهيئ لفاصلة بعينها، و لكن القرآن يأتى بغيرها، إيثارا لما هو ألصق بالمعنى، و أشد وفاء بالمراد.

و من ذلك قوله سبحانه: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (البقرة ۶۷). فربما وقع فى النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء، و تتصل به، و لكنها جاءت تبرءوا من الجهل. و فى ذلك إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل و سفه، لا يليق أن يصدر من عاقل ذى خلق.

أما ما سموه توشيحا، فهو أن يكون معنى الآية مشيرا إلى هذه الفاصلة، و مثلوا له بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (آل عمران ۳۳). فإن الاصطفاء يكون من الجنس، و جنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون، و بقوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (يس ۳۷).

هذه الفواصل لها قيمتها فى إتمام المعنى، و هى مرتبطة- كما رأينا- بآياتها تمام الارتباط، و لها أثرها الموسيقى فى نظم الكلام، و لهذه الموسيقية أثرها فى النفس، و أسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى المؤثرة، و من أجلها حدث فى نظم الآى

من بلاغة القرآن، ص: ۷۳

ما يجعل هذه المناسبة أمرا مرعيّا، و تجد بعض ذلك فى كتاب الإتقان «۱»، و من ذلك إيثار أغرب اللفظين نحو قِسْمَةٌ ضِيزى و قد أحسن ابن الأثير توجيه هذه اللفظة إذ قال «۲»: «إنها فى موضعها لا يسد غيرها مسدها؛ أ لا ترى أن السورة كلها- التى هى سورة النجم- مجموعة على حرف الياء فقال تعالى: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى (۱) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (۲) (النجم ۱، ۲). و كذلك إلى آخر السورة. فلما ذكر الأصنام و قسمة الأولاد، و ما كان يزعمه الكفار، قال: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (۲۲) (النجم ۲۱، ۲۲). فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه، و غيرها لا يسد مسدها فى مكانها.

و إذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها، و لكنها فى هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها، و لا مناسبة؛ لأنها تكون خارجة عن حروف السورة، و سأبين ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظة فى معنى هذه اللفظة، قلنا: (قسمة جائرة أو ظالمة) و لا شك أن (جائرة، أو ظالمة) أحسن من ضِيزى، إلا أنا إذا نظمنا الكلام، فقلنا: «أ لكم الذكر و له الأنثى، تلك إذا قسمة جائرة، لم يكن النظم كالنظم الأول، و صار الكلام كالشىء المعوز، الذى يحتاج إلى تمام، و هذا لا يخفى على من له ذوق و معرفة بنظم الكلام»، هذا و إن غرابة هذه اللفظة من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة.

و قد يشتد التقارب الموسيقى فى الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان فى الوزن و القافية، كما فى قوله تعالى: فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴) (الغاشية ۱۳، ۱۴). و قوله: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (۲۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (۲۶) (الغاشية ۲۵، ۲۶).

و قوله: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (۱۳) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (الانفطار ۱۳، ۱۴). و قد تختلفان فى الوزن، و لكنهما تتقاربان فى حروف السجع، كقوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (۱۴) (نوح ۱۳، ۱۴). و قد تتساوى الفاصلتان فى الوزن دون التقفية، كقوله تعالى: وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶) (الغاشية ۱۵، ۱۶).

و قوله: وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸). (الصافات ۱۱۷، ۱۱۸).

و قد تختلفان وزنا و قافية، و لكنهما تتقاربان، كقوله تعالى: الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴) (الفاتحة ۳، ۴). و قوله: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) (ق ۱، ۲).

و يسمى العلماء الفواصل المتفقة فى الحرف الأخير متماثلة، و ما عداها

---

(۱) ج ۲ ص ۹۹.

(۲) المثل السائر ص ۶۲.

من بلاغة القرآن، ص: ۷۴

متقاربة، و لا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبدا، و قد تنتهى السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير، كقوله تعالى فى ختام سورة الضحى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (۱۱) (الضحى ۹- ۱۱).

و قد تتفق الفاصلتان لا فى الحرف الأخير فحسب، و لكن فى حرف قبله، أو أكثر، من غير أن يكون فى ذلك كلفة و لا قلق، بل سلاسة و لين و جمال، مثال التزام حرف قوله تعالى: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (۱) وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (۲) الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (۳) وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (۴) (الشرح ۱- ۴). و قوله تعالى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (الضحى ۹، ۱۰). و قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (۱۶) «۱» (التكوير ۱۵، ۱۶). و قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ «۲» (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) (الانشقاق ۱۷، ۱۸).

و مثال ما اتفقا فى حرفين، قوله تعالى: وَ الطُّورِ (۱) وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ (۲) (الطور ۱، ۲).

و قوله تعالى ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (۳) (القلم ۲، ۳). و قوله تعالى كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (۲۸). (القيامة ۲۶- ۲۸).

و مثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲۰۱) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (۲۰۲) (الأعراف ۲۰۱، ۲۰۲).

و أنت ترى فى كل ما التزم فيه حرف أو أكثر أنه طبيعى لا تكلف فيه.

هذا و إذا كانت الفاصلة فى الآية كالقافية فى الشعر، فقد رأينا فيما سبق بعض ما تختلف فيه الفاصلة عن القافية، حينما تتقارب الفواصل و لا تتماثل، كما أنه من المعيب فى الشعر أن تتكرر القافية قبل سبعة أبيات، و ليس ذلك بعيب فى الفاصلة. قال تعالى: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (۸۸) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (۸۹) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (۹۰) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (۹۱) (مريم ۸۸- ۹۱).

الغريب

نقصد بالغريب ما قل دورانه على الألسنة، فلم يستعمله الخطباء و لا الشعراء استعمال غيره من الألفاظ، و يحوى القرآن الكريم عددا منه، فكان العرب فى عصر نزول القرآن، يمضون إلى كبار الصحابة، يسألونهم عن معانى هذه الألفاظ الغريبة، فيجيبونهم و يقربون لهم هذه المعانى، مستشهدين بأبيات الشعر، و الواقع أن قدرة الصحابة على فهم نصوص القرآن لم تكن فى درجة واحدة:

---

(۱) الكواكب السيارة.

(۲) جمع.

من بلاغة القرآن، ص: ۷۵

فكان منهم المثقف ثقافة أدبية ممتازة، و لم يكن ما نسميه الآن غريبا، بغريب عند هؤلاء الذين تحداهم القرآن، فلم يكن استخدامه حينئذ معيبا و لا مستكرها، و مثال ذلك استعمال عباقرة الشعراء ألفاظا يعرفها جمهور المتأدبين، و يتذوقون جمالها، و إن كانت غير دائرة على ألسنة العامة، فلا يعاب الشاعر على هذا الاستخدام، و لا ينقص ذلك من قدر كلامه، بل يضع أدبه فى مستوى الأدب الرفيع، الذى هدره و تدرك قيمته الصفوة الممتازة من الأدباء.

و مما يدل على أن القرآن يؤثر رفعة الأسلوب أنه يفضل أحيانا كلمة أدبية، على أخرى شائعة عامية، فتراه يستخدم إِلْحافاً فى قوله تعالى: يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً (البقرة ۲۷۳). مكان «إلحاحا» و ربما كان لتكرير الحاءين فى الكلمة أثر فى الإعراض عنها، و ليس ذلك بعجيب على كتاب نزل، ليتحدى أبلغ البلغاء، مستخدما أجمل و أرقى ما يعرفونه من الألفاظ.

و ينبغى أن نقرر أن ما نسميه اليوم غريب القرآن، قد برئ من الثقل على اللسان، و الكراهة على السمع، و القرآن الكريم لا يستخدم هذا النوع من الألفاظ إلا قليلا، و ليس كل ما ذكره المؤلفون فى القرآن مما يندرج فى هذا النوع، بل يضعون فيه كل ما يرتفع قليلا عن مستوى العام الشائع، فتجد السجستانى مثلا يعد منه كلمات «انفصام، و إسرافا، و ادرءوا، و إعصار» «۱»، و ليس ذلك بغريب.

أما ما نعده اليوم غريبا فعدد محدود من الكلمات، مثل قَضْباً و (أبا) فى قوله تعالى: أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا (۲۹) وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) (عبس ۲۵- ۳۱).

و القضب: القث، و الأب ما ترعاه الأنعام، و يقال: الأب للبهائم كالفاكهة للناس «۲»، و قد جاءت الكلمتان فاصلتين محافظتين أقوى محافظة على النغم الموسيقى، كما أن الكلمة الثانية استخدمت فى معناها الدقيق.

و على هذا الوجه جاءت إِدًّا فى قوله تعالى: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (مريم ۸۹).

بمعنى الأمر العظيم.

و قد يكون ما يحيط بالكلمة دالا على معناها، كما نجد ذلك فى «أركس» فى قوله تعالى: كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها (النساء ۹۱). و فى أَكِنَّةً فى قوله تعالى:

وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً (الأنعام ۲۵). و أَمْتاً بمعنى ارتفاعا و هبوطا «۳» من قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (۱۰۵) فَيَذَرُها قاعاً

---

(۱) غريب القرآن ص ۳۶ و ۳۷.

(۲) المرجع السابق ص ۲۸ و ۱۸۰.

(۳) المرجع السابق ص ۱۷.

من بلاغة القرآن، ص: ۷۶

صَفْصَفاً (۱۰۶) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (۱۰۷) (طه ۱۰۵- ۱۰۷). و (ألتنا) بمعنى نقصنا، من قوله تعالى: وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (الطور ۲۱).

و يكاد يكون هذا الأمر مبدأ عاما فى معظم ما نسميه اليوم بالغريب، فهو مع قلته يحاط بما يشير إلى معناه، و قد يتولى القرآن نفسه تفسير ما يرد من تلك الألفاظ، و يكون ذلك فى موضع الترهيب و الزجر، أو الوعد بالخير، فيكون النطق بهذه الكلمة الغريبة، مثيرا فى نفس سامعها السؤال عنها، و التنبه القوى لمعناها، حتى إذا جاء هذا المعنى استقر فى النفس، فملأها خوفا، أو غمرها بالبهجة و الحبور، و من أمثلة ذلك قوله تعالى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (۲۶) وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ (۲۷) لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ (۲۸) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (۲۹) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (۳۰) وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (۳۱) (المدثر ۲۶- ۳۱). و قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ

كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (٨) كِتابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) (المطففين ٧- ١١). و مثله قوله سبحانه: كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (١٩) كِتابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) (المطففين ١٨- ٢١).

و لعل من وجوه بلاغة استخدام هذه الألفاظ الأدبية التى لم تشع على الألسنة إلّا قليلا، ما نراه من اختيار ما حسن وقعه على الأذن، و جريه على اللسان منها، ثم فى وضعه حيث لا يغنى غيره من الألفاظ غناءه، لتناسب موسيقاه، أو لأنه يؤدى المعنى الدقيق دون سواه، و فى ذلك من براعة الاستعمال ما لا نجده فى الألفاظ المستعملة الشائعة.

و إذا أردت أن تعرف ما عده العلماء من غريب القرآن، فارجع إلى مؤلف السجستانى، و إلى كتاب الإتقان (ج ١ ص ١١٥) و فيهما تفسير هذا الغريب، و فى الإتقان أبيات الشعر، التى استشهد بها على معانى ما ورد فى القرآن من هذه الألفاظ.

المعرب

و استخدم القرآن ألفاظا تكلمت بها العرب، و أدخلتها فى لغتها، و إن كانت فى أصلها ليست من اللغة العربية، و قد صقلتها العرب بألسنتها، و شذبتها، و ربما تكون قد غيرت بعض حروفها، أو أسقطت بعضها، و إذا أدخلت العرب هذه الألفاظ، استغنت بها غالبا عن أن تضع ألفاظا فى معناها.

و من هذه الكلمات المعربة التى استخدمها القرآن، و هى فى جملتها طائفة قليلة، كلمة (إبريق) «١» فى قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) (الواقعة ١٧- ١٨). و كلمات إِسْتَبْرَقٍ، و زَنْجَبِيلًا، و سُنْدُسٍ، و (سلسبيل) «٢»، فى قوله سبحانه: وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها

---

(١) المعرب للجواليقى ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٥ و ١٧٤ و ١٧٧ و ١٨٩ على التوالى.

من بلاغة القرآن، ص: ٧٧

زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (١٩) وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (٢١) (الإنسان ١٧- ٢١).

و (كافور) «١»، فى قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (الإنسان ٥). و الْفِرْدَوْسِ «٢» فى قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (الكهف ١٠٧). و التَّنُّورُ «٣» فى الآية: حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (هود ۴٠)، و بِدِينارٍ «۴»، فى قوله تعالى: وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً (آل عمران ٧۵).

و دَراهِمَ، فى قوله: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (يوسف ٢٠). و سِجِّيلٍ «۵» فى الآية الكريمة: وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴) (الفيل ٣، ۴). و (سرادق) «۶»، فى قوله سبحانه: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها (الكهف ٢٩). و (القسطاس) «٧» فى قوله تعالى: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (الإسراء ٣۵). وَ الْمَجُوسَ «٨»، فى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ (الحج ١٧). و غير ذلك و قد أحصى كتاب الإتقان «٩» هذه الكلمات المعربة، و لكنه عد فيها ما ليس منها، متبعا فى ذلك بعض

الآراء، مثل كلمة سيد، و ابلعى، و أواب، و تحت، و غير ذلك، و ربما اتفقت العربية و غيرها من اللغات السامية، فى بعض الكلمات؛ لأنها جميعها من أصل واحد و حينئذ لا يقال إن اللغة العربية قد أخذتها عن غيرها من اللغات السامية.

و ليس استخدام هذه الألفاظ المعربة بمخرج القرآن عن أن يكون بلسان عربى مبين، فقد ارتضى العرب هذه الألفاظ، و استخدموها فى لغتهم، و ارتضوها بين كلماتهم، و قد نزل القرآن بما ألف العرب استعماله، ليدركوا معناه، فليس غريبا أن يتخذ من تلك الأدوات المعربة، أدوات له يؤدى بها أغراضه، و معانيه.

و وجه البلاغة فى إيثارها، أنها تؤدى معانيها الدقيقة فى عبارة موجزة، فإن

---

(۱) المرجع السابق ص ۲۸۵.

(۲) المرجع السابق ص ۲۷۰.

(۳) المرجع السابق ص ۸۴.

(۴) المرجع السابق ص ۱۳۹.

(۵) المرجع السابق ص ۱۸۱.

(۶) المرجع السابق ص ۲۰۰.

(۷) المرجع السابق ص ۲۵۱.

(۸) المرجع السابق ص ۲۳۰ و القاموس مادة مجوس.

(۹) ج ۱ ص ۱۳۸.

من بلاغة القرآن، ص: ۷۸

العرب لم تضع لفظا تدل به على معنى ما عربته، فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه، سوى اختيار اللفظ المعرب، أو الإتيان بأكثر من كلمة لأداء معناه، فإذا أريد مثلا الاستغناء عن كلمة استبرق، احتيج إلى كلمتين أو أكثر، فقيل الديباج الثخين، و ما دامت الكلمة المعربة خفيفة على اللسان، فهى أولى من الكلمتين، و هى متعينة حين لم يضع العرب بدلا منها.

*** الزائد

أحصى النحاة ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات زائدة، و حصروها فى خمسة عشر لفظا: هى إِذْ، فى قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّى أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (البقرة ۳۰). و إذا فى قوله تعالى: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (الانشقاق ۱). أى انشقت السماء كما قال: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ (القمر ۱). و إلى، فى قوله تعالى: رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم ۳۷). فى رواية من قرأ تهوى، بفتح الواو. و أم، فى قوله تعالى: وَ نادى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) (الزخرف ۵۱، ۵۲). و التقدير: «أ فلا تبصرون؟! أنا خير» و إن فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ (الأحقاف ۲۶). و أن، فى قوله تعالى: وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً (العنكبوت ۳۳). و قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (يوسف ۹۶). و قوله سبحانه: وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا (البقرة ۲۴۶). و قوله تعالى:

وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا (إبراهيم ۱۲). و (الباء) فى قوله تعالى: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (البقرة ۱۹۵). وَ هُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (مريم ۲۵). فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (الحج ۱۵).

وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (الحج ۲۵). فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (۵) بِأَيِّكُمُ

من بلاغة القرآن، ص: ۷۹

الْمَفْتُونُ (۶) (القلم ۵، ۶). وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها (يونس ۲۷). وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ (البقرة ۲۲۸). و (الفاء)، فى قوله سبحانه: هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (۵۶) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) (ص ۵۵- ۵۷). و فى، من قوله تعالى: وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها (هود ۴۱).

و (الكاف)، فى الآية الكريمة: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى ۱۱).

و (اللام)، فى قوله تعالى: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (النمل ۷۲).

هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (المؤمنون ۳۶). و لا فى قوله تعالى: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ (الأعراف ۱۲). قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِى (۹۳) (طه ۹۲، ۹۳). و قوله سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۸) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۹) (الحديد ۲۸، ۲۹). و قوله تعالى: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (القيامة ۱). و ما على شاكلته من الآيات، و قوله سبحانه: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء ۶۵). و قوله تعالى: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (الأنعام ۱۵۱). و قوله تعالى: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ۱۰۹). و قوله سبحانه: وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (الأنبياء ۹۵). و قوله سبحانه: ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً (۸۰) (آل عمران ۷۹، ۸۰). و ما، فى قوله سبحانه: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (آل عمران ۱۵۹)، و فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ (النساء ۱۵۵). و قوله سبحانه: مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً (نوح ۲۵). و من، فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (الأنعام ۳۴). و (الواو)، فى قوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها

من بلاغة القرآن، ص: ۸۰

خالِدِينَ (الزمر ۷۳). و قوله سبحانه و تعالى: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۰۵) (الصافات ۱۰۳- ۱۰۵).

ذلك ما أحصاه النحويون من حروف، قالوا: إنها زائدة وردت فى القرآن، يعنون بزيادتها أنهم لا يستطيعون لها توجيها إعرابيّا، و إن كانوا يجدونها قد أدت معانى، لا تستفاد من الجملة إذا هى حذفت، و سنقف عند كل آية نتبين فيها ما زيد و سر زيادته.

أما زيادة إذ فى الآية الأولى فمما لم يرتضه ابن هشام فى مغنيه «۱»، و قال صاحب الكشاف «۲»: إذ منصوبة بإضمار اذكر، و يجوز أن ينتصب بقالوا، و عليه، فليست إذ بزائدة.

و كذلك لم يرتض «۳» زيادة إذا فى الآية السابقة بل رآها شرطية حذف جوابها، لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب، أو اكتفاء بما

علم فى مثلها من سورتى التكوير و الانفطار، ففى كلتا السورتين قد ذكر جواب إذا، فقيل فى سورة التكوير فى الجواب: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (التكوير ۱۴). و قيل فى سورة الانفطار: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (الانفطار ۵).

و قيل فى توجيه آية (إلى): إن تهوى بفتح الواو قد ضمنت معنى تميل «۴»، و هو يتعدى بإلى فليست على ذلك بزائدة. و أم فى آيتها ليست زائدة كذلك، بل هى منقطعة بمعنى بل، و تفيد الإضراب الانتقالى، و ليست إن فى آيتها زائدة، بل نافية و المعنى و لقد مكناهم، فى أمور لم نمكنكم فيها، و المجيء بإن هنا أفضل من المجيء بما، حذرا من التكرير اللفظى.

أما أن فى الآيتين الأوليين فزائدة، جيء بها مؤذنة بتراخى حدوث الفعلين بعدها فى الزمن، تراخيا عبّر عنه القرآن بهذه اللفظة، و لو أن الفعل كان على الفور لا- تصل الفعل بلما من غير فاصل بينهما. و أما فى الآيتين الأخيرتين، فأن غير زائدة فيهما، و المعنى أى داع لنا فى ترك القتال فى سبيل اللّه، و فى ألا نتوكل على اللّه، و قد هدانا سبلنا.

و الباء ليست زائدة فى الآية الأولى، فمعناها: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، أى: لا تكونوا سببا فى هلاك أنفسكم بأفعالكم. أما فى الآية الثانية فقد ضمن (هزى) معنى أمسكى هازة، فجيء بالباء مصورة لمريم، ممسكة بجذع النخلة،

---

(۱) ج ۱ ص ۱۳۴.

(۲) ج ۱ ص ۵۳۳.

(۳) ج ۲ ص ۵۳۳.

(۴) مغنى اللباب ج ۱ ص ۱۲۳.

من بلاغة القرآن، ص: ۸۱

تهزها، مبعدة هذا الجذع حينا، و مقربة له إليها حينا آخر. و أما الباء فى (بسبب) فعلى تضمين يمدد معنى يتصل، إذ ليس المراد مطلق مد سبب إلى السماء، بل الهدف أن يعلق المغيظ نفسه بهذا السبب، فساغ لذلك هذا التضمين و دلت الباء عليه.

و ليست الباء فى (بإلحاد) داخلة على المفعول به بل هو محذوف، و الجار و المجرور حال من فاعل يرد، كشأن الجار و المجرور بعده، و المعنى و من يرد فيه مرادا ما، عادلا عن القصد، ظالما، و الإلحاد العدول عن القصد «۱» فالباء للمصاحبة لا زائدة.

و ليس من الضرورى جعل الباء زائدة فى بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ، بل من الممكن أن تكون بمعنى فى، و التقدير فى أيكم المفتون، أى سنرى و يرون فى أى الفريقين منكم يكون المجنون، أ فى فريق المسلمين، أم فى فريق الكافرين.

و لم يرتض ابن هشام أن تكون الباء فى (بمثلها) زائدة، بل قال: و الأولى تعليق بمثلها، باستقرار محذوف، هو الخبر «۲»؛ كما لم يرتض زيادة الباء فى بأنفسهن فى الآية الكريمة، بل قال: «فيه نظر، إذ حق الضمير المرفوع المتصل، المؤكد بالنفس، أو العين، أن يؤكد أولا- بالمنفصل، نحو قمتم أنتم أنفسكم، و لأن التوكيد هنا ضائع، إذ المأمورات بالتربص، لا يذهب الوهم إلى أن المأمور غيرهن، بخلاف قولك زارنى الخليفة نفسه «۳»» و علل صاحب «۴» الكشاف ذكر الأنفس هنا، فقال: «فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص، و زيادة بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه، فيحملهن على أن يتربصن، و ذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، و يغلبنها على الطموح، و يجبرنها على التربص».

و ليست (الفاء) فى قوله سبحانه: هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (ص ۵۷).-

بزائدة، بل هى آية ضمت ثلاث جمل قصيرة، يوحى قصرها الخاطف بالرهبة فى النفس، و الخوف؛ فالجملة الأولى مبتدؤها مذكور حذف خبره، فكأنه قال:

هذا حق ثابت لا مراء فيه، و كأنه يشير إلى ما تقدم من قوله: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (ص ۵۶). ثم فرع على ذلك العذاب الذى أعد لهم، قائلا: فَلْيَذُوقُوهُ ذاكرا ضميرا يبعث فى النفس ترقب تفسيره، ففسره بأن ما سيذوقونه حميم يحرق بحرّه، و غساق يقتل ببرده،

و لم يـذكر المبتـدأ هنا إسـراعا إلى ذكر العـذاب المعـد لهم. و خرجه ابن هشام «۵» على أن خبر هـذا هو حميم و غسـاق، لاـ الجملة الطلبية،

---

(۱) مدارك التنزيل ج ۳ ص ۷۶.

(۲) مغنى اللبيب ج ۱ ص ۱۷۹.

(۳) المرجع السابق نفسه.

(۴) ج ۱ ص ۱۰۶.

(۵) المرجع السابق ص ۲۴۷.

من بلاغة القرآن، ص: ۸۲

و عليه فتأويل الآية: «هذا حميم و غساق، فليذوقوه» و إنما أسرع بالجملة الطلبية، تهديدا لهم، و تشفيا منهم.

و لاـ وجه لزيـادة «فى» من قوله سـبحانه: وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها (هود ۴۱). لأـن ركوبهم كان فى السـفينة. و لم ير صاحب الكشاف الكاف زائـدة بل وجه الآيـة الكريمة بقوله: «قالوا مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، و هم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة فى ذلك، فسـلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، و عمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه، و نظيره قولك للعربى: العرب لا تخفر الـذمم، كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر، و منه قولهم قـد أيفعت لـداته، و بلغت أترابه، يريدون إيفاعه و بلوغه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: «ليس كاللّه شىء»، و بين قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «۱».

و إذا ضـمنت رَدِفَ معنى دنا، فى قوله سـبحانه: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۷۱) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) (النمل ۷۱، ۷۲).

لم تعـد اللام زائـدة، كما لا تصير اللام زائـدة فى الآيـة التاليـة إذا جعلناها و ما بعدها متعلقة بالفاعل المحذوف، و كان تأويل الجملة: هيهات هيهات الوقوع لما توعدون، و كان حذف الفاعل لوضوح دلالة الجملة عليه.

أما لا الواقعـة بعـد منع فى الآيتين فزائدة، أريد بها تصوير فعل الممتنع، فإبليس فى الآية الأولى لم يسـجد، حين أمره اللّه، و هارون فى الثانيـة لم يتبـع موسـى، و عصـى أمره. و أريـد بهـا كـذلك تصوير مـا يكون من هؤلاـء الكفرة، إذا اسـتجيب لهم، و نزلت الآيـة الـتى اقترحوهـا، فقـال تعـالى: وَ ما يُشْـعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ۱۰۹).- و تصوير أمر القريـة الـتى أهلكت، و أن من المحـال عودتها فقال سـبحانه: وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (الأنبياء ۹۵).- و بيان ما يكون من هذا البشر الذى يؤتيه اللّه الكتاب و الحكم و النبوة، فهو لا يأمر باتخاذ الملائكة و النبيين أربابا. و تشـعر فى لا و هى زائدة فى قوله تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ (الحديد ۲۹). بأن أهل الكتاب هؤلاء، لن يتدبروا الأمر تدبرا يؤدى بهم إلى الإيمان، و أن علمهم حينئذ سيكون كلا علم، فكأنهم لم يعلموا.

و أمـا لاـ الواردة فى القسم القرآنى، فإنهـا مزيـدة توطئـة للنفى بعـده، و توكيـدا له، كمـا فى قوله سـبحانه: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ (النساء ۶۵).

و ذلك مستفيض فى أشعارهم، كقول امرئ القيس:

---

(۱) الكشاف ص ۳۸۸ ج ۲.

من بلاغة القرآن، ص: ۸۳ فلا و أبيك ابنـة العامرىلا يدعى القوم أنى أفر و منها ما كان للنفى تعظيما للمقسم به، كما فى قوله تعالى: فَلاـ أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَـمٌ لَوْ تَعْلَمُـونَ عَظِيمٌ (۷۶) (الواقعة ۷۵، ۷۶). و ليس ذلـك بمانع من أن تكون هـذه الصـيغة مؤكدة لما يذكر بعدها.

أما الآيـة الكريمـة: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ (الأنعام ۱۵۱). فنظرة إليهـا تريك أنه لم يـذكر فيها المحرم، و إنما ذكر فيها ما أمروا به، من عـدم الشـرك باللّه، و الإحسان إلى الوالـدين، إلى غير ذلك، فكان المحرم عليهم ضـد هذا الذى ذكره، فليست لا زائدة بل هى للنفى، و الجملة متسقة مع ما تلاها.

و ما ليست زائـدة فى الآيات الثلاث الواردة، بل هى نكرة تامـة بمعنى شـىء، و ما بعـدها بدل كل منها، و المجىء بهذه النكرة متصـلة بحرف الجر، و هى تبعث فى النفس معنى مبهمـا، ليزداد الشوق إلى معرفـة معناها، حتى إذا ورد اسـتقر فى النفس و اطمأنت إليه. و لا يكون ذلـك إلاـ حيث يكون الكلاـم مرتبطـا بـأمر عظيم، كالرحمـة الـتى ألاـنت قلب الرسول، و الخطيئـات التى أغرقتهم فـأدخلوا بها النيران، و نقض المواثيق التى كانت سبب ما يعانونه من اللعنة و سوء المصير.

أمـا من فى الآيـة الكريمـة فاسم بمعنى بعض. و الواو فى الآيتين ليست بزائـدة، و جواب إذا و لما محـذوف ترك إلى النفس إدراكه، حتى كأن العبارة لا تفى بالدلالة عليه.

و من كل ذلك يبـدو أن ما يمكن عده زائدا، إنما هو حروف نادرة، جىء بها لأغراض بلاغية، وفت هذه الحروف الزائدة، و يظهر أن تسميتها زائدة معناه أنها لا يرتبط بها حكم إعرابى، لا أنها لم تؤد فى الجملة معنى.

و ورد فى القرآن مـا يبـدو للنظرة السـريعة أنه يمكن الاسـتغناء عنه، و لكن التأمل يبين عن دقـة بارعـة، فى اختيار هـذا التعبير، و بلاغة مؤثرة فى المجىء به، و هاك قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هـذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا (البقرة ۷۹). فتأمل قوله بأيـديهم يصور بها جريمـة الافتراء، و يرسم بها مقـدار اجترائهم على اللّه، و يؤكـد ارتكابهم الجريمـة بأنفسـهم، و إن شئت فأسقط تلك الكلمة، و انظر أى فراغ تتركه إذا سقطت.

و قوله تعالى: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (النحل ۲۶). فمن فوقهم صورت هذه الكارثة، التى نزلت بهم أكمل تصوير، و من هذا الباب قوله سبحانه: أَوْ كَصَيِّبٍ

من بلاغة القرآن، ص: ۸۴

مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ (البقرة ۱۹). فالمطر لا يكون إلا من السماء، و لكن التعبير عن المطر بالصيب، و وصفه بأنه من السماء، يصوره لك كأنما هو حجارة مصوبة، تهبط من هذا العلو الشاهق، فتصيب بأذاها هذا السائر الضال.

و قوله تعالى: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (النور ۱۵). و قوله تعالى: وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ (الأحزاب ۴). فأفواهكم تدل فى الآية الأولى على أن الحـديث الـذى يجرى على ألسـنتهم حـديث لم يشترك فيه العقـل، و لم يصـدر عنه، و فى الآيـة الثانيـة، تـدل على أن النطق اللسانى، لا يغير من الحقيقة شيئا، فهو لا يتعدى اللسان، إلى ما فى الأفئدة من حقائق.

و قوله تعـالى: مـا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ (الأـحزاب ۴). ففى ذكر الجوف تأكيـد لإنكـار وجود قلبين لرجـل، فـإذا تصور القارئ جوفا، بادر بإنكار أن يكون فيه قلبان.

و ذكر واحـدة فى قوله تعالى: فَإِذا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (۱۴) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱۵) (الحاقة ۱۳- ۱۵).- فضـلا عما فيه من صـيانة النغم الموسـيقى، يوحى بقصر النفخة، و سرعة الدكة، و فى ذلك من إثارة الرعب، و تصوير شـدة الهول مـا فيه. و قوله تعـالى: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى (۱۹) وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (۲۰) (النجم ۱۹، ۲۰). تجد فيه وصف منـاة بالثالثـة، زيـادة عمـا فيه من الحفـاظ على الاتسـاق القرآنى، و الموسـيقى المتناسـبة، إشـارة إلى ما منى به هؤلاء القوم من ضعف فى العقول، و فساد فى التفكير، حتى إنهم لم يقفوا بإشـراكهم عنـد حد إلهين، بل زادوا عليهما ثالثا، و إنى أشـعر بالتهكم المر فى قوله:

الْأُخْرى.

و قد كفانى الأدباء أمر البحث فى توجيه قوله سبحانه: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ (البقرة ۱۹۶). فقوله: تِلْكَ عَشَرَةٌ مع أن الثلاثة و السبعة معلوم أنها عشرة، رفع لتوهم أنها ثلاثة فى الحج أو سبعة فى الرجوع لاحتمال الترديد. و قوله: كامِلَةٌ مع أن العشرة لو نقصت لم تكن عشرة، فائدته أنّ التفريق ما نقص أجرها، بل أجرها كامل، كما لو كانت متوالية فنسب الكمال إليها، لكمال أجرها «۱».

---

(۱) الأقصى القريب ص ۸.

الفصل الثانى الآية القرآنية

تكونها:

كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود ۱). ذلك خير ما توصف به الجملة القرآنية، فهى بناء قد أحكمت لبناته، و نسقت أدق تنسيق، لا- تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغنى فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئا، و صار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة فى القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق اللّه لأداء تلك المعانى، غير هذه الألفاظ، و كأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، و هى بحر خضم، ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

و الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسى، فتصوره بألفاظها، لتلقيه فى النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهرا فيه المهم و الأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، و لكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، و إلا- اختل و انهار. خذ مثلا قوله تعالى: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة ۱۲۷).

تجد إسماعيل معطوفا على إبراهيم، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، و لكن تأخره فى الذكر، يوحى بأن دوره فى رفع القواعد دور ثانوى، أما الدور الأساسى فقد قام به إبراهيم، «قيل كان إبراهيم يبنى، و إسماعيل يناوله الحجارة «۱»» فنزلت الآية، و كأنما كانت ستنسى دور إسماعيل لثانويته، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكونها.

و خذ قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (الفاتحة ۵). فإنك ترى تقديم المفعول هنا؛ لأنه موضع عناية العابد و رجاء المستعين، فلا جرم و هو مناط الاهتمام أن يتقدم

---

(۱) الكشاف ج ۱ ص ۷۴.

كما يتقدم كل ما يهتم به و يعنى. و خذ قوله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ (البقرة ۴۵). تجد المستعان عليه فى الآية غير مذكور، لا تخففا من ذكره، و لكن ليوحى هذا الحذف إلى النفس أن كل ما يقوم أمام المرء من مشقة، و ما يعترضه من صعوبات، يستعان على التغلب عليه، بالصبر و الصلاة.

تمضى الجملة القرآنية، و قد كونت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت فى سلك من النظام، فلا ضعف فى تأليف، و لا تعقيد فى نظم، و لكن حسن تنسيق، و دقة ترتيب، و إحكام فى تلاؤم. و اقرأ قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) (البقرة ۲- ۵). ترى آيات قد التحم نسجها، و ارتبط بناء بعضها ببعض، تسلم الجملة إلى أختها، فى التئام و اتساق، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال، و وصفته الجملة الثانية، بأنه لا يعلق به الريب، لا فى أخباره، و لا فى نسبته إلى اللّه، و فى الجملة التالية جعله هاديا لأولئك الذين يخشون اللّه و يتقونه، و مضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها، و يقومون بواجبهم للّه، فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدى، و واجبهم للمجتمع، فيقدمون من أموالهم ما يساعدون به البائس و المعتر، و لا يتعصبون لرسول دون رسول، بل يؤمنون بما أنزل على محمد، و ما أنزل من قبله، و رأس الإيمان و أساسه هو إيمانهم باليوم الآخر، لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، و ينهى عن المنكر و البغى، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم و كانوا هم المفلحين.

ذلك مثل من أمثلة الارتباط القوى بين جمل الآية القرآنية، و كثير من الجمل فى القرآن توحى إليك ألفاظها، بمعان لا يستطيع لفظ أن يحدها، بل يترك للنفس أمر إدراكها، و حسبى أن أشير من ذلك إلى قوله سبحانه: وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۸۴) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ (البقرة ۸۴، ۸۵). أولا توحى إليك جملة ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه، و ما هم حقيقة عليه، فأى خيبة أمل تملأ النفس منهم، أو لا تدل هذه الجملة القصيرة على سخط شديد، و تعجب لأمور ما كان ينتظر حدوثها، و نتائج كانت المقدمات تمهد لغيرها.

من بلاغة القرآن، ص: ۸۷

و قوله تعالى: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (البقرة ۱۱۱). أولا تحس فى قوله سبحانه: تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ؛ بالتهكم اللاذع بهم، و أن تلك الأمانى التى تجول فى صدورهم، لن تجد لها سبيلا إلى التحقق فى غير أحلامهم.

و تستخدم الجملة الفعلية فى القرآن للدلالة على التجدد و الحدوث، و الاسمية للثبوت و الاستمرار، و المراد بالتجدد فى الماضى حصوله، و فى المضارع تكراره، تأمل ذلك فى قوله تعالى على لسان إبراهيم: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (الشعراء ۷۸- ۸۰). فأتى فى الخلق بالماضى لحصوله مرة واحدة، و فيما عداه بالمضارع لتكرره طول الحياة، و تأمل قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۶) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (آل عمران ۲۶، ۲۷). تجد المضارع هنا دالا على ما يتجدد من فعل اللّه سبحانه فى كل حين، و من الجملة الاسمية قوله تعالى: أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها (آل عمران ۱۳۶).

و قد يتغير اتجاه الجملة تبعا لتغيّر الاتجاه النفسى ففاتحة الكتاب قد تلون فيها الحديث، و تغير اتجاه الجملة، فكان حديثا عن اللّه المستحق للحمد، و كان التصريح باسمه و صفاته مؤذنا بأنه أهل للحمد و الثناء، فإذا كان المقام مقام العبادة و الاستعانة، تحولت الجملة إلى الخطاب إيذانا بقربك ممن تحمد قربا قلبيا، و يسمح لك الشعور بهذا القرب أن تطلب منه العون و المساعدة، و يستمر الخطاب فى الجمل إلى اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ حتى إذا جاء دور المغضوب عليهم، تحول الأسلوب مرة أخرى، فمن تعظيم اللّه ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه و الإضلال.

و قوله تعالى: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (۸۸) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (۸۹) (مريم ۸۸، ۸۹).

فالانتقال من الحديث عنهم، إلى الحديث إليهم زيادة فى تهديد من قالوا، و مواجهة لهم بالسخط عليهم، و التأنيب لهم. و من ذلك

قوله تعالى: سُبْحانَ الَّذِی أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِی بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الإسراء ١). فقد يكون ظاهر السياق أن يقال: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذى بارك حوله، ليريه من

من بلاغة القرآن، ص: ٨٨

آياته، إنه هو السميع البصير»، و لكنه عدل عن الغيبة إلى الحضور فى وسط الآية، تعظيما من شأن المسجد الأقصى، و من شأن ما يرى اللّه من آياته. و قوله سبحانه: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِی فَطَرَنِی وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس ٢٢). فقد يتراءى أن اتجاه الآية يقضى بأن تنتهى بقوله: و إليه أرجع: و لكنه عدل عن ذلك؛ لأن المقام مقام نقاش بين من آمن و من كفروا؛ فهو ينتهز كل فرصة ليقنعهم فيها بوجود الإيمان باللّه و اليوم الآخر. أولا تدلنا هذه الخاتمة على أن كمال الأدب هو الذى صاغ العبارة هذا الصوغ. و أنه يخفى وراءها قوله: و ما لكم لا تعبدون الذى فطركم؛ و قد يكون فى تعبيره هذا موحيا لهم بأنه لا يريد لهم غير ما يريد لنفسه؛ و ذلك أسرع إلى قبول النصح، و أشد إظهارا للإخلاص.

و من ذلك قوله سبحانه: هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِی الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ (يونس ٢٢، ٢٣). فقد كان السياق يقضى أن تسير الآية على الخطاب. و لكنه انتقل ليقص قصة هؤلاء الذين لا يذكرون اللّه إلا عند شدة تنزل بهم، حتى إذا انقضت المحنة بغوا فى الأرض، و فى ذلك تعجيب من أمر هؤلاء القوم، و إنكار عليهم كفرهم بأنعم اللّه، و نسيانهم التخلص من المآزق متى ابتعدوا عنها، و فى الحديث عن غائبين إيحاء للمخاطبين بألا يفعلوا هذا الفعل المستنكر. و على منوال هذه الآية يجرى قوله تعالى: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣) (الأنبياء ٩٢، ٩٣).

و قوله سبحانه: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِی لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِی وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِیِّ الْأُمِّیِّ الَّذِی يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف ١٥٨). فقد يكون ظاهر السياق يقضى أن يقول: (فآمنوا باللّه و بى)، و لكنه عدل عن ذلك ليبين الدوافع التى تدعو إلى الإيمان به و اتباعه».

و قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِی يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِی كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) (فصلت ١١، ١٢). فعند ما جاء الحديث عن زينة السماء الدنيا، نسب ذلك إلى نفسه صراحة، لما فيها من الجمال الذى يبهر نفس رائيه، و النفع الملموس لهم، فذكرهم اللّه بأنه خالق هذا الجمال، و مبدع هذه الزينة.

من بلاغة القرآن، ص: ٨٩

و قوله سبحانه: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ٨٧)، فربما ظن أن وجه العبارة أن تسند الأفعال كلها إلى ضمير الاثنين: «موسى و هارون» و لكنه أسند الفعل مرتين إلى واو الجماعة إشارة إلى أن هذا التكليف لا يخصهما فحسب، بل هما و قومهما جميعا، ثم أفرد الفعل فى آخر الآية يشير بذلك إلى أن المخاطب أولا و بالذات إنما هو أحدهما، و هو الرسول موسى.

و من ذلك قوله تعالى: قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِی آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) (هود ٥٣، ٥٤)، فلم يقل: و أشهدكم، لما يشعر به هذا التعبير من العناية بأمرهم، لجعلهم قرناء للّه، فى الشهادة عليه؛ أما التعبير بفعل الأمر ففيه تنبيه لهم، و إيقاظ، حتى يتلقوا ما سيلقيه عليهم، مؤذنا إياهم بمباينتهم فيما يعبدون.

و تأمل سر تلوين الأسلوب فى قوله تعالى: قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (الأعراف ۲۹). فقد أبرز هذا التلوين العناية بكل واحد مما أمروا به على حدة، فاتجه أمر الرب إلى القسط وحده، ثم أمروا أمرا جديدا، بأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، و أمرا جديدا آخر بأن يدعوه مخلصين له الدين، و فى ذلك من العناية بتوكيد كل أمر ما فيه، و لم يجعل أحد هذه الأمور ملحقا بصاحبه- و انظر تفخيم أمر النبى صلوات اللّه عليه من تغيير نهج الأسلوب، فى قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (النساء ۶۴). إذ لم يقل: و استغفرت لهم.

و من ذلك استعمال أحد الفعلين الماضى و المضارع، موضع صاحبه، فيأتى بالمضارع مكان الماضى؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع، حتى لكأنه يشاهده؛ و ليس ذلك مما يثيره الفعل الماضى، لأن سامعه قد يكتفى بأن يتخيل فعلا قد مضى، و ربما لا يستحضر صورته أو تكرره. و اقرأ قوله تعالى: أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (البقرة ۸۷). تجد الفعل المضارع قد صور جريمتهم كأنهم يرتكبونها؛ و فى ذلك من التشنيع عليهم ما فيه. و قوله تعالى: وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (فاطر ۹). ففى (تثير) ما يحضر تلك الصورة الطبيعية، الدالة على القدرة الباهرة. و قوله تعالى: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ (الحج ۳۱). ففى ذكر المضارع استحضار صورة

من بلاغة القرآن، ص: ۹۰

خطف الطير له، و هوىّ الريح به. و يستخدم الماضى مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل، حتى كأنه قد وقع، و ذلك يكون فيما يستعظم من الأمور؛ و من أمثلته قوله سبحانه وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّماواتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (النمل ۸۷). و قوله تعالى: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (الكهف ۴۷). و قوله تعالى: أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (النحل ۱). و قوله تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (إبراهيم ۲۱). و فى الإتيان بالماضى هنا من إيقاع الرهبة فى النفوس ما فيه لأن الفعل كأنه قد تم، و القرآن يتحدث عنه، و فى استخدام الماضى فى قوله تعالى: الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (۱۵۹) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة ۱۵۹، ۱۶۰).

إشارة إلى ما اتسم به هؤلاء التائبون من مبادرة، و إسراع إلى التوبة. و فى قوله تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (۱۶۵) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (۱۶۶) وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (۱۶۷) (البقرة ۱۶۵- ۱۶۷). تأكيد لما سيحدث فى المستقبل حتى كأنه حدث.

التقديم و التأخير

إذا كانت الواو لمطلق الجمع، و لا تقتضى ترتيبا، و لا تعقيبا، فليس معنى ذلك أن الآية القرآنية، تجمع بها معطوفات على غير ترتيب و لا نظام، و إذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد حرصت الجملة فى القرآن، على أن يكون هذا التقديم، مشيرا إلى مغزى، دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج نفسى، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذى يدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود و المعنى، و النفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم فى الجملة، كما تقدم فى النفس، و يدعو البلاغيون هذا التقديم بالاختصاص، و

من أمثلته قوله تعالى:

من بلاغة القرآن، ص: ۹۱

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (الفاتحة ۵). فاللّه هنا وحده أهل العبادة، و منه وحده نستمد المعونة، و قوله: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (۳۲) (الحاقة ۳۰- ۳۲). أولا ترى أن الجحيم و هذه السلسلة، لن يفلت منهما أبدا هذا العاصي الأثيم، و قوله تعالى: اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا فتقديم شاخصة «۱» على أبصار، يصورها لك كأن كل صفة أخرى لها قد انمحت، و لم يبق لها سوى الانفتاح الذى يؤذن بالخوف، و الذهول معا. و لذلك كان نفى الغول «۲» مقصورا على خمر الآخرة، دون خمر هذه الحياة الدنيا، دل على ذلك قوله تعالى: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (۴۷) (الصافات ۴۵- ۴۷). و كان الإنكار منصبا على عبادة غير اللّه فى قوله تعالى: قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (الزمر ۶۴). قال عبد القاهر «۳» «و من أجل ذلك قدم غَيْرَ فى قوله تعالى: أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ (الأنعام ۴۰). و كان له من الحسن و المزية و الفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل: قل أأتخذ غير اللّه وليّا، و أ تدعون غير اللّه، و ذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك أ يكون غير اللّه بمثابة أن يتخذ وليّا، و أ يرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك، أو يكون جهل أجهل، و عمى أعمى من ذلك؟! و لا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأتخذ غير اللّه وليّا، و ذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، و لا يزيد على ذلك فاعرفه. و كذلك الحكم فى قوله تعالى: أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ (القمر ۲۴). و ذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا، لم يكن بمثابة أن يتبع و يطاع، و ينتهى إلى أن يأمر و يصدق أنه مبعوث من اللّه تعالى، و أنهم مأمورون بطاعته».

و قلّ فى القرآن أن يأتى التقديم للاحتفاظ بالموسيقى فى الآية القرآنية، و لزيادة التناسق اللفظى فحسب، و من ذلك قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) (طه ۶۷، ۶۸). فالتقديم و التأخير لهذه الصياغة التى يعنى بها القرآن، و هى إحدى وسائل تأثيره فى النفس، و أصل الجملة «فأوجس موسى فى نفسه خيفة» و إذا أنت قرنت هذا التعبير بالآية السابقة و اللاحقة، وجدت خروجا على النسق، و نفرة لا تلتئم. و للمحافظة على هذه الموسيقى كذلك ورد قوله تعالى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ

---

(۱) شخص بصره فتح عينيه و جبل لا يطرف.

(۲) غاله يغوله غولا إذا أهلكه و أفسده. من بلاغة القرآن ۹۱ التقديم و التأخير ..... ص : ۹۰

(۳) دلائل الإعجاز ص ۹۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۹۲

فَلا تَنْهَرْ (۱۰) (الضحى ۹، ۱۰)، و عد ابن الأثير منها قوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۳۹) (يس ۳۷- ۳۹). قال «۱»: فقوله: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ، ليس تقديم المفعول به على الفعل من باب الاختصاص، و إنما هو من باب مراعاة نظم الكلام، فإنه قال: اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ، ثم قال: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي، فاقتضى حسن النظم أن يقول: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ، ليكون الجميع على نسق واحد فى النظم أى أن تبدأ الجمل كلها بالأسماء المتناسبة.

و بتقديم بعض المعطوفات و الصفات على بعض، كما يتقدم السبب على المسبب، فى قوله سبحانه: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (الفاتحة ۵). فتقديمهم العبادة على الاستعانة، تقديم للوسيلة، قبل طلب الحاجة، و ذلك أنجح فى توقع حصولها، و قوله سبحانه: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹) (الفرقان ۴۸، ۴۹). فتقدم ذكر البلدة

الميتة؛ لأن فى حياتها حياة الأنعام، فمن نباتها تأكل و تنمو، و تقدم الأنعام على الأناس، لأن فى حياة تلك حياة هؤلاء؛ و لهذا قدمت التوبة، على الطهارة، فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (البقرة ۲۲۲). و قدم الإفك على الإثم فى قوله سبحانه: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (الجاثية ۷). و الاعتداء عليه، فى قوله تعالى: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (۱۰) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (۱۱) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) (القلم ۱۰- ۱۲). و يرد الحكيم بعد العليم، فى معظم الآيات التى ورد فيها الوصفان، فإن ورد الوصف بالحكمة أولا كان ذلك لاتجاهات أخرى، اقتضاها سياق الآية.

و تتقدم الكلمة لتقدمها فى الزمن، أو العمل، كما فى الآيات التى ورد فيها ذكر الأنبياء و كتبهم، فإن بعضهم يتقدم على بعض، يسبق زمنه، كقوله تعالى:

وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ (آل عمران ۳، ۴). و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا (الحج ۷۷). و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ (المائدة ۶).

و للترقى من العدد القليل إلى الكثير، كما فى قوله سبحانه: فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ (النساء ۳). و قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا

---

(۱) المثل السائر ص ۱۷۹.

أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (المجادلة ۷). و أما قوله سبحانه: قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (سبأ ۴۶). فقد سيقت فى مقام دعوتهم إلى التفكير فى شأن محمد و رسالته، و ربما كان اجتماعهم مثنى، أسرع فى وصولهم إلى الحق، فقد تعترض أحدهم شبهة، فيبددها صاحبه، و لهذا قدم مثنى على فرادى.

و لتقديم الكثير على ما دونه، و لهذا قدم السارق على السارقة فى قوله تعالى:

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (المائدة ۳۸). لأن السرقة فى الذكور أكثر. و الأزواج على الأولاد، فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (التغابن ۱۴)؛ لأن العداوة فى الأزواج أكثر منها فى الأولاد.

و قدمت الأموال على الأولاد، فى قوله سبحانه: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (التغابن ۱۵). لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد، كما قدمت فى الآية الكريمة: الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا (الكهف ۴۶). و لكنه عند ذكر الشهوات، قدم النساء و البنين عليها، فقال: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (آل عمران ۱۴).

و لشرف المقدم و علو رتبته، و لهذا قدم اسمه تعالى فى قوله سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء ۵۹). و قوله تعالى:

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً (المؤمنون ۵۰). أما قوله تعالى: وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (الأنبياء ۹۱). فلأن الكلام السابق كان حديثا عنها.

و لأنه أدل على القدرة، كما فى قوله تعالى: وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ (النور ۴۵). و مما يحتاج إلى تدبر لإدراك سر تقدمه قوله سبحانه: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ (البقرة ۲۵۵). فقد

يبدو أن نفى النوم بعد السنة لا محل له، فنفى السنة يدل من باب أولى على نفى النوم، و لكن نسق الآية يريد أن ينفى الشبه بين اللّه و الإنسان، فهو قيوم، مدبر لشئون السموات و الأرض، لا يدركه ما يدرك الناس، من سنة، يعقبها نوم، فيترك شئون العالم، و لا يديرها، فالترتيب هنا ترتيب زمنى، لا ترتيب يتجه إلى نفى الأدنى فالأكثر.

من بلاغة القرآن، ص: ۹۴

و تقدم ضمير المخاطبين على الضمير العائد على الأولاد فى قوله سبحانه:

وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ (الأنعام ۱۵۱). و فى موضع آخر، تقدّم الضمير العائد على الأولاد، و تأخر ضمير المخاطبين فى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ (الإسراء ۳۱). و لعل السّر فى ذلك أنه فى الآية الأولى يخاطب آباء مملقين، بدليل قوله من إملاق، فكان من البلاغة أن يسرع فيعد هؤلاء الآباء بما يغنيهم من الرّزق، و أن يكمل ذلك بعدتهم برزق أبنائهم، حتى تسكن نفوسهم، و لا يجد القلق سبيلا إليها. أما فى الآية الثانية فالخطاب للأغنياء، بدليل قوله خشية إملاق، فإنه لا يخشى الفقر إلا من كان غنيّا، إذ الفقير منغمس فى الفقر، فكان من البلاغة أن يقدم وعد الأبناء بالرزق، حتى يسرع بإزالة ما يتوهمون من أنهم بإنفاقهم على أبنائهم، صائرون إلى الفقر بعد الغنى، ثم مضى يكمل طمأنينتهم فوعدهم بالرزق بعد عدة أبنائهم به.

و هكذا نرى القرآن الكريم، لا ينهج فى ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفنّى الذى يقدم ما يقدم، لمعنى نفهمه وراء رصف الألفاظ، و حكمة ندركها من هذا النسج المحكم المتين.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۹۵

الذكر و الحذف

يذكر القرآن ما يذكره، مما يبدو أن السياق يجيز حذفه، عند ما يكون فى هذا الذكر تثبيت للمعنى، و توطيد له فى النفس، و يكون فى ذكره فضلا عن ذلك معان لا تستفاد إذا حذف فمما ذكر فيه المسند إليه قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) اللَّهُ الصَّمَدُ (۲) (الإخلاص ۱، ۲)، ذكر اسم الجلالة فى الجملة الثانية ليستقر فى النفس مرتبطا بخبره، و ليفيد بتعريفه و تعريف الخبر أنه وحده السيد الذى يقصد إليه، عند اشتداد الخطوب، و فضلا عن ذلك نرى فى الأسلوب هذا التناسق الموسيقى، الذى يفقد إذا حذفنا لفظ اللّه، برغم ما فى الكلام مما يدل عليه. و من ذلك قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (الإسراء ۸۵).

أ لا ترى فى ذكر الروح و ارتباطها بخبرها، ما يثبت معنى الجملة فى نفسك، و لا يشتت أركانها فى فؤادك، فيذكر لك ما يتحدث عنه صراحة، و لا يدعك تلتمسه من الكلام. و إن شئت فاحذف كلمة الروح من الجملة، و انظر أ تجد المعنى فى الجلاء و الاستقرار مثله عند ما تذكر.

و من هذا الباب قوله تعالى: وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (۱۷) قالَ هِيَ عَصايَ (طه ۱۷، ۱۸) و ذكر البلاغيون أن ذكر المسند إليه هنا للرغبة فى إطالة الكلام، و تلذذا بهذه الإطالة، هذا التلذذ الذى دفع موسى إلى أن يتحدث بما لم يسأل عنه، فقال:

أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِى وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (طه ۱۸).

و يذكر المسند إليه أيضا صراحة، تأكيدا لوقوع المسند، إذا كان ذكر اسمه مما يطمئن السامع إليه، و اقرأ قوله تعالى: لا يَسْتَوِى الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (المائدة ۹۵). أو لا ترى فى ذكر اسم اللّه بعد الوعد ضمانا لتنفيذه، كما يذكر للتصوير الباعث على الرهبة، كما فى قوله تعالى: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (۱) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

أَثْقالَها (۲) (الزلزلة ۱، ۲). فذكر الأرض إلى جانب إخراج الأثقال، يصور هذا الجرم الهائل، و قد انشق عن فجوات تقذف بما ضمت الأرض من أثقال،

من بلاغة القرآن، ص: ۹۶

و ذكرها و هى المكان المستقر الثابت الذى نجد على سطحه الاستقرار، يصورها مائدة مضطربة تحت أقدامنا، فأى فزع يلم بنا عند هذا التصور. كما يذكر تأكيدا لنعمة أداها، فيكون ذكره مثيرا لشكره، كما فى قوله تعالى: وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ (الأحزاب ۲۵). أ لا ترى هذه النعمة الكبرى نعمة حقن دماء المسلمين جديرة بذكر المنعم، ليشكر.

و فى ذكر المسند كذلك تثبيت لمعنى الجملة فى النفس، و قد يثير حذفه برغم ما قد يدل عليه، معنى لا يراد، و تأمل قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (المائدة ۴۱). ففى تكرير لهم ما يشعر بكمال قوة الجزاءين، و يؤكد أن العذاب العظيم قد أعد لهم فى الآخرة.

و يحذف الفاعل من الجملة عند ما تدل عليه قرينة واضحة، فيصبح كالمتعين الذى تنصرف إليه النفس أول وهلة، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (۲۸) (القيامة ۲۶- ۲۸). فالحديث فى ذكر الموت، و لا يبلغ التراقى عند الموت إلا النفس، و إذا نظرنا إلى الآيتين الكريمتين اللتين حذف الفاعل منهما، و هما قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ۹۴). و قوله تعالى: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (يوسف ۳۵). وجدنا ذكر الفعل فى الجملة الأولى مغنيا عن ذكر فاعله، فالمراد أن التقطع حل بينهم مكان التواصل، فكأنه قيل: لقد تم التقاطع بينكم، و فى الجملة الثانية أغنى ذكر ليسجننه، بما فيه من أدوات التوكيد عن ذكره، و كان المجىء بتلك الجملة مصورا لما حدث من هؤلاء القوم، و معبرا عما كان من أمرهم، و هم يتشاورون فى أمر يوسف، فقد قلبوا وجوه الرأى بينهم، ثم بدا لهم فى عقولهم أمر، عبروا عنه بقولهم: ليسجننه، فكانت الآية حاكية لما حدث، مصورة له.

و يحذف المبتدأ عند ما يكون ذكر الخبر المتصف بصفة، كأنه يشير إلى هذا المبتدأ، و كأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغا يغنى عن ذكره، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود ۱).

و يحذف لأن ذكره يبعث فى النفس السأم، لشدة وضوحه، لقرب الحديث عنه، كما تحس بذلك فى قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (البقرة ۲). أو لا ترى أن فى ذكر الضمير العائد على الكتاب قلقا، لشدة قرب الكتاب الماثل أمام النفس، و من ذلك قوله سبحانه: وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ (۱۰) نارٌ حامِيَةٌ (۱۱) (القارعة ۱۰، ۱۱). و تأمل الفرق بين

من بلاغة القرآن، ص: ۹۷

هذا الأسلوب الموجز و بين أن يقال. «و ما أدراك ماهيه، هى نار حامية» من الإسراع إلى ذكر النار، بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها، و على ذلك قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ. نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، و قوله تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (البقرة ۱۸). فما دام فى معرض الحديث عنهم، ليس فى حاجة إلى إعادة ذكرهم.

و يحذف الخبر عند ما يقوم دليل فى الكلام عليه، فيكون ذكره كاللغو، و اقرأ قوله تعالى: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (الطلاق ۴). فالصمت عن الخبر، و عطف اللائى لم يحضن على اللائى يئسن، مؤذن باتحادهما فى الخبر. و تأمل حذف الخبر فى قوله سبحانه: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الزمر ۲۲). أولا ترى فى حذف الخبر ما يشير إلى أن عقد الموازنة بين من هو على نور من ربه، و من هو قاسى القلب مظلمة، لا تستسيغه النفس، حتى فى معرض الإنكار.

و يحذف الفعل إذا وقعت جملته جواب سؤال، فيكون فى ذكر الفاعل إسراع بذكر المسئول عنه، بعد أن فهمت النفس الفعل المسئول عنه، و استقر أمره فى الفؤاد، و من ذلك قوله سبحانه: قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (۵۰) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵۱) (الإسراء ۵۰، ۵۱). و مثله قوله سبحانه: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (العنكبوت ۶۱).

و حذف الفعل فى باب التحذير، مثل قوله تعالى: فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (الشمس ۱۳). يشير إلى أن هذا المفعول المذكور منهى عن المساس به، بأى نوع من أنواع الأذى، ففى حذف الفعل تعميم، لا يتأتى إذا ذكر فعل بعينه.

و حذف فعل القول فى الجمل القرآنية الآتية: وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الكهف ۴۸). أى فقيل لهم: لقد جئتمونا؛ و قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا (الأحقاف ۲۰). أى، فيقال لهم:

أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ، و قوله تعالى: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما (العنكبوت ۸). أى و قلنا له إن جاهداك .. هذا الحذف يصور ما حدث، و لما كان ما حدث هو أنهم عرضوا على اللّه صفّا، ثم سمعوا هذا التأنيب، فكان القول مضمرا فى الواقع، فأضمر فى الجملة المعبرة عنه، و على هذا النسق نرى قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ (الأحقاف ۲۰).

من بلاغة القرآن، ص: ۹۸

فإنهم عرضوا، فسمعوا، فالقول مضمر كذلك و من السائغ لدىّ فى الآية الثالثة، أن تكون من باب تلوين الأسلوب، فقد كان الحديث عن غائب فلما كان أمر الوصية بالتوحيد معنيّا به العناية كلها، اتجه إلى المأمور يخاطبه، موجها له الحديث زيادة فى التأكيد، و لن يكون ذلك إذا كان الحديث عن غائب.

و يحذف المفعول، عند ما يكون المراد الاقتصار على إثبات المعانى، التى اشتقت منها الأفعال لفاعليها، من غير تعرض لذكر المفعولين، فيصبح الفعل المتعدى كغير المتعدى، و من أمثلة هذا الحذف، قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ (الزمر ۹). إذ المعنى أ يستوى من له علم و من لا علم عنده، من غير أن يقصد النص على معلوم.

و قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا (۴۴) (النجم ۴۳، ۴۴). و قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى «۱» (النجم ۴۸). فالمعنى هو الذى منه الإضحاك و الإبكاء، و الإماتة، و الإحياء، و الإغناء، و الإقناء، فالغرض هنا إثبات الفعل للفاعل. قال عبد القاهر «۲»: و إن أردت أن تزداد تبينا لهذا الأصل .. فانظر إلى قوله تعالى: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (۲۳) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِ (القصص ۲۳، ۲۴). ففيها حذف مفعول فى أربعة مواضع، إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم، أو مواشيهم، و امرأتين تذودان غنمهما، و قالتا لا نسقى غنمنا، فسقى لهما غنمهما، ثم إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره، و يؤتى بالفعل مطلقا، و ما ذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى، و من المرأتين ذود، و أنهما قالتا لا يكون منا سقى، حتى يصدر الرعاء، و أنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى، فأما ما كان المسقى، أ غنما أم إبلا أم غير ذلك، فخارج عن الغرض و موهم خلافه، و ذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود ... فاعرفه، تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة و الحسن ما وجدت، إلا لأن فى حذفه و ترك ذكره فائدة جليلة، و أن الغرض لا يصح إلا على تركه».

و يحذف المفعول بعد فعل المشيئة بعد لو، و بعد حروف الجزاء، حذرا من التكرير كما فى قوله سبحانه: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى

الْهُدى (الأنعام ۳۵). و لا يكاد يأتى مفعول المشيئة إلا فى الأمور الغريبة المتعجب منها، كقوله تعالى: لَوْ أَرَدْنا

---

(۱) أقنى: أعطى ما يقتنى.

(۲) دلائل الإعجاز ص ۱۲۴.

من بلاغة القرآن، ص: ۹۹

أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (الأنبياء ۱۷). و قوله تعالى: لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ (الزمر ۴).

و يحذف المضاف كثيرا فى القرآن؛ لأغراض شتى، تفهم من هذا الحذف، و قد أحصى عز الدين بن عبد السلام فى كتابه: الإشارة إلى الإيجاز، ما حذف من مضافات فى القرآن الكريم، و يطول بى المقام إذا أنا حاولت ذكر السبب فى كل حذف، و حسبى أن أورد هنا بعض الأمثلة، مشيرا إلى ما يحدثه الحذف فيها من جمال و روعة:

قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ (البقرة ۲۶۱). قالوا: أى كمثل باذر حبة أو زارعها. و لعل السر فى هذا الحذف هو اتجاه القرآن إلى الصدقة نفسها، و الجزاء عليها هذا الجزاء المضاعف.

و قال تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ (آل عمران ۲۸). أى فليس من موالاة اللّه فى شىء، يعنى أنه منسلخ من ولاية اللّه؛ أو لا- ترى أن حذف المضاف فى هذه الآية قد أوحى إلى أنفسنا معنى براءة اللّه منه، و انقطاع الصلة بينه و بين اللّه، تمام الانقطاع. و مثل ذلك قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً (آل عمران ۱۰). و من أجمل ما حذف فيه المضاف قوله تعالى:

وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا- يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (البقرة ۱۷۱). فأصل الجملة و مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع، ثم حذف المضاف و هو داعى، رفعا لشأنه، فى اللفظ، عن أن يقرن بهذا الذى ينعق بما لا يسمع، و بقى المراد و هو أن هؤلاء الكفار صم بكم عمى فهم لا يعقلون.

و حذف الصفة فى قوله سبحانه: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (الكهف ۷۹). فقد حذفت الصفة بعد سفينة، إذ المراد بها السفينة الصالحة، لدلالة الآية على هذه الصفة، فإن عيب السفينة لا يخرجها عن أن تكون سفينة، و قد أوحى إلينا هذا الحذف، بأن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة، كأنها فقدت حقيقتها.

و كثيرا ما يحذف جواب القسم فى القرآن كقوله تعالى: وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴) هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (۵) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (۷) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (۸) (الفجر ۱- ۸).

و قوله تعالى: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (۳) (ق ۱- ۳).

و قوله سبحانه و تعالى: وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (۱) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (۲) وَ السَّابِحاتِ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۰

سَبْحاً (۳) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (۴) فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (۵) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) (النازعات ۱- ۷).

فجواب القسم فى ذلك كله محذوف يفهم من السورة التى ورد فيها هذا القسم، و إن فى هذا الحذف بعث النفس على التفكير، لتهتدى إلى الجواب، و تظل النفس تتبع هذه الآيات، يتلو بعضها بعضا، تستوحى منها هذا الجواب، الذى لا بدّ أن يكون شيئا عظيما يقسم عليه اللّه، و إذا أنت تتبعت آيات السورة رأيتها حديثا عن البعث، و تعجبا من منكريه، مما يؤذن بأن هذا القسم وارد لتأكيده، و أنه سيكون لا محالة، أو لا ترى فى حذف هذا الجواب دلالة على مثوله فى الذهن لشدة ما شغل النفس، و استأثر بعميق تفكيرها، يوم

نزل القرآن مؤكدا مجيء اليوم الآخر.

و كذلك يحذف في القرآن جواب- لو، و لو لا، و لما، و أما، و إذا- و يورث هذا الحذف الكلام قوة و شدة أسر:

فمن أمثلة لَوْ قوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (سبأ ۵۱). أو لا ترى في هذا الحذف إشارة إلى أن الجواب أمر عظيم، يترك إلى الخيال إدراكه، أما اللفظ فلا يستطيع الإحاطة به.

و قوله سبحانه: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا- يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا- عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۳۹) (الأنبياء ۳۸، ۳۹). و حذف الجواب هنا كأنه يشير إلى تعينه، فإن من يعلم أنه سيعرض للنار، فيشوى بها وجهه و ظهره، و لا يجد ناصرا ينصره، إن لم يؤمن، يعمل بكل قواه على أن يتقى هذه النار، فكأن تقدير الآية لو يعلم الذين كفروا .. لما أنكروا البعث، و ما لجوا في كفرهم. و قوله تعالى: قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (۷۹) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (۸۰) (هود ۷۹، ۸۰). و في حذف الجواب هنا إخفاء لأمنية تجول في نفس لوط، كأنما لا يستطيع أن يبديها أمام قومه.

و قوله سبحانه: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى (الرعد ۳۱). و حذف الجواب هنا يشير إلى أنه من الوضوح بمكان، فلو أن قرآنا أوتي تلك القوة الخارقة، لكان هذا القرآن جديرا أن تكون له هذه القوة. فإذا لم يتضح جواب (لو) و لم يشر إليه سياق الآيات ذكر، كقوله تعالى: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵) (الحجر ۱۴، ۱۵)؛ لأنه إذا حذف احتمل وجوها، منها أن يقال لما آمنوا، أو لطلبوا ما وراء ذلك.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۱

و من حذف جواب لَوْ لا قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لا- فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰) (النور ۱۹، ۲۰). و ترك جواب لَوْ لا هنا يثير في نفس هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة الرهبة من عذاب اللّه، الذي يشير إليه ما بعد لو لا. و من حذف جواب لما قوله سبحانه: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۰۵) (الصافات ۱۰۳- ۱۰۵). و في هذا الحذف إشارة كذلك إلى أن اللفظ لا يستطيع أن يصف ما أصاب إبراهيم و ابنه من المسرة و الابتهاج. و من حذف جواب أما قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، و استغنى هنا عن الجواب و هو القول، إذ التقدير فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم استغناء بالمقول عنه. و من حذف جواب إذا قوله سبحانه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (يس ۴۵، ۴۶). و كأن في حذف جواب إذا إشارة إلى أنه معروف واضح عند المخاطبين، لا يكاد يحتاج إلى أن يذكر، فضلا عما في الآية الثانية من دلالة عليه فكأنه قيل: و إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم و ما خلفكم لعلكم ترحمون، أعرضوا، و بينت الآية التالية أن هذا الإعراض سجية لهم، فلا تكاد الآية تأتي إليهم حتى يعرضوا عنها.

و يعتمد القرآن على ذكاء قارئه فيحذف من الجمل ما يستطيع القارئ أن يدركه، لأن السياق يستلزمه و يستدعيه، فمن ذلك قوله تعالى، في قصة سليمان عليه السلام:

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) (النمل ۲۷- ۲۹). فحذف ما حذف هنا من تفصيلات جزئية تدرك من السياق، و في تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة، و قل مثل ذلك في قوله تعالى: يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (۷) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (۸) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (۹) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (۱۰) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ

الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (۱۱) يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (۱۲) (مريم ۷- ۱۲). فأغفل القرآن الحديث عن مجيء الغلام، و نشأته، و ترعرعه، مما ليس بعنصر أساسى فى القصة، ما دامت مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه، و نهج القرآن ذلك النهج فى كثير من قصصه، و يدخل البلغاء كل ما ذكرناه من الحذف فى باب الإيجاز.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۲

التنكير و التعريف

وقفت طويلا عند الاسم النكرة، أتبين ما قد يدل عليه التنكير من معنى، و درست ما ذكر العلماء من معان، قالوا إن هذا التنكير يفيدها، و بدا لى من هذا التأمل الطويل أن النكرة يراد بها، واحد من أفراد الجنس، و يؤتى بها، عند ما لا يراد تعيين هذا الفرد، كقوله سبحانه: وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (القصص ۲۰). فليس المراد هنا تعيين الرجل، و لكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل.

و النكرة بعدئذ تفيد معناها مطلقا من كل قيد، أما ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة، فإنها لم تفدها بطبيعتها، و إنما استفادتها من المقام الذى وردت فيه، فكأنما المقام هو الذى يصف النكرة، و يحدد معناها، فكلمة حياة مثلا تدل على معناها المجرد، و المقام يهبها معنى التحقير حينا، و التعظيم حينا آخر، و النوعية من موضع ثالث، و لنقف قليلا عند بعض الآيات التى ورد فيها الاسم نكرة، نتبين مدى الجمال فى وروده.

قال تعالى: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ (البقرة ۹۶). أ و لا ترى أن المراد هنا بيان حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة، و أنها غالية عندهم كل الغلو، لا يعنيهم أن تكون تلك الحياة رفيعة أو وضيعة، و لهذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، و من هنا جاء التنديد بهم، لأن الإنسان المثالى، لا يريد الحياة، إلا إذا كانت رفيعة صالحة.

و قال تعالى: وَ لَكُمْ فِى الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِى الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة ۱۷۹). و هنا تجد المراد كذلك مطلق حياة يستفيدها المجتمع من حكم القصاص، هى تلك التى يظفر بها من يرتدع عن القتل، و لا- يقدم عليه خوفا، أن تناله يد القانون فيقتل، فهذا الحكم العادل، استزاد به المجتمع حياة بعض الأفراد الذين كانوا عرضة للقتل قصاصا.

و قال تعالى: قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۸۳) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ (۱۸۴) (آل عمران ۱۸۳، ۱۸۴). فالرسل منكرة لا تدل على أكثر من معنى المرسلين و الكثرة إنما استفيدت

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۳

من هذه الصيغة من جموع التكثير، الدالة على هذه الكثرة، أما التعظيم فلا يستفاد من التنكير، و إنما يستفاد من وصف هؤلاء الرسل، بأنهم جاءوا بالبينات، فالمقام هو الذى عظم هؤلاء الرسل، و قد تأتى الكلمة نفسها فى مقام آخر، و يكون ما يحيط بها دالا على حقارتها وضعتها، مما يدل على أن التنكير فى ذاته لا يؤذن بتعظيم و لا تحقير.

و قال تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (البقرة ۲۷۹). فكلمة حرب منكرة، لا تدل على أكثر من حقيقتها، و إذا كان ثمة تعظيم لهذه الحرب فمنشؤه وصفها بأنها من اللّه و رسوله، و إن حربا يثيرها اللّه، جديرة أن تبعث فى النفس أشد ألوان الفزع و الرعب.

و قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة ۷۲). فلا- تحمل كلمة رضوان فى الآية معنى أكثر من العطف، أما أن يدل التنكير هنا على

التقليل لا تفيده النكرة وحدها، و إن كان معنى الآية يحتمل، أن قليل رضوان اللّه أكبر من الجنات و المساكن الطيبة، لأن النكرة تطلق على القليل و الكثير فما يطلق عليه رضوان قل أو كثر، أكبر مما أثيبوا به.

و دل المقام على تعظيم الاسم المنكر، فى قوله تعالى: وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (الأعراف ۱۱۳). ذلك أنهم يطلبون مكافأة على عمل ضخم يقومون به، هو إبطال دعوة موسى، و الإبقاء على دين فرعون، أو لا يكون ثواب ذلك عظيما يناسبه.

كما دل المقام على تعظيم الذكر، فى كل آية وردت فيها تلك الكلمة منكرة، كقوله تعالى: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا (الأعراف ۶۳). و قوله تعالى: وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (يوسف ۱۰۴). فوصفه حينا بأنه من اللّه، و حينا بأنه ذكر للعالمين، و حينا بأنه مبارك، يؤذن بعظمة هذا الذكر و جلال قدره.

كما دل المقام على التقليل فى قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (الجاثية ۳۲). أ لا ترى أن جحدهم للساعة، لا يؤذن إلا بظن ضئيل فى وجودها يتردد فى رءوسهم. و قد تكون الكلمة النكرة موحية بمعنى حقير إلى النفس، كما فى قوله تعالى: أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (الكهف ۳۷). و قوله سبحانه: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) (عبس ۱۷- ۱۹).

و لأن النكرة لا تدل على شىء معين، كان استخدامها فى بعض المقام مثيرا

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۴

للشوق و الرغبة فى المعرفة، كما فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (الصف ۱۰). و لأنها تدل على القليل و الكثير كانت بعد النفى لقصد العموم و على ذلك قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ (البقرة ۲).

و تحدث العلماء عن تنكير السلام الصادر من اللّه فى قوله سبحانه: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (يس ۵۸). و قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (الصافات ۷۹). و قوله:

سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ (الصافات ۱۳۰). و قوله: وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (مريم ۱۵). و قوله: قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ (هود ۴۸). و الذى أحسه فى هذا التعبير أن المقام هنا يدل على تعظيم هذا السلام الصادر منه سبحانه، و المقام ينبئ بهذا التعظيم و يشير إليه.

و تستخدم ألوان المعارف فى القرآن الكريم فى مواضعها الدقيقة الجديرة بها:

فيستخدم الضمير الذى يجمع بين الاختصار الشديد، و الارتباط المتين، بين جمل الآية بعضها و بعض، و من روائع استخدام ضمير المخاطب، أن يأتى به مخاطبا كل من يستطاع الخطاب معه، عند ما يكون الأمر من الوضوح بمكان، و من ذلك قوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (السجدة ۱۲).

و قوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (سبأ ۵۱). فكأن سوء حالهم من الوضوح لدرجة ظهوره لكل أحد.

و عادة القرآن فى ضمائر الغيبة أنها تتفق إذا كان مرجعها واحدا، حتى لا يتشتت الذهن و لا يغمض المعنى، و لذا كانت الضمائر كلها تعود إلى موسى، فى قوله سبحانه: إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (۳۸) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (طه ۳۸، ۳۹). و ما بعدها. و ليس من قوة النظم فى شىء أن يعود بعض هذه الضمائر على موسى و بعضها الآخر على التابوت. كما تعود الضمائر كلها إلى اللّه فى قوله تعالى:

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (الفتح ۹).

فإن اتحد الضميران، و كانا يعودان إلى مختلفين، كان المقام يحددهما تحديدا واضحا؛ و من ذلك قوله سبحانه: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ

فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (الكهف ٢٢). فضمير فيهم يرجع إلى أهل الكهف، و ضمير منهم يرجع إلى ما رجع إليه ضمير سيقولون.

من بلاغة القرآن، ص: ١٠٥

و لكن الكثير فى الاستعمال القرآنى أن يخالف بين الضمائر إذا تعدد مرجعها لسهولة التمييز «١» كما فى قوله تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ (التوبة ٣۶).

فضمير منها و هو لاثنى عشر شهرا، أتى به مفردا، و ضمير منهن و هو للأربعة، أتى به جمعا، و كلا الأمرين جائز فى كليهما، و لكن سنة القرآن إذا أعاد الضمير على جمع ما لا يعقل، أعاده مفردا إذا كان لأكثر من عشرة، و جمعا إذا كان لأقل منها «٢».

و إذا كان مرجع الضمير مفرد اللفظ جمع المعنى، راعى الأسلوب القرآنى اللفظ أولا، و المعنى ثانيا عند تعدد الضمير، و ذلك أجمل فى السياق من العكس، و تأمل ذلك فى قوله سبحانه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (البقرة ٨). و قوله سبحانه: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً (الأنعام ٢۵)، فإن هذا الأسلوب حديثا عن كل فرد من أفراد هذا المجموع أولا، ثم حديثا عنه فى جماعة ثانيا.

و قد لا تجد فى الآية مرجعا للضمير، و لكنك تحس بوضوح معناه أيما وضوح، لدلالة المقام على هذا المرجع، و من ذلك قوله سبحانه: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (الرحمن ٢۶)، فالضمير فى عليها يعود إلى الأرض، من غير أن يجرى لها ذكر، و لكنك لا تجد حرجا و لا مشقة فى إدراك معناه.

و قد يضع القرآن الاسم الظاهر موضع الضمير، لأمور تلمسها فى كل مكان حدث فيه هذا الوضع، و تأمل قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) (العنكبوت ١٩، ٢٠). فوضع اللّه مكان ضميره لأن هذا الاسم يوحى بالجلال، المؤذن بيسر بدء الخلق عليه، و قدرته على إنشاء النشأة الآخرة.

و قوله تعالى: وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها (التوبة ٢۵، ٢۶). ففى إظهار المؤمنين بدل أن يقول ثمّ أنزل اللّه سكينته عليكم، إظهار لمن ثبت منهم فى مظهر من يستحق اسم المؤمن الحقيقى.

و قوله تعالى: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (سبأ ۴٣). فأظهر الذين كفروا بدل الإتيان بضمير يعود عليهم، لما فى

---

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى بيومى ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

من بلاغة القرآن، ص: ١٠۶

ذلك من إبرازهم متعنتين جاحدين، لا يرعون ما يجب أن يكون للحق، من حسن القبول و الرضا به، و الاطمئنان إليه، و فى ذلك تشنيع عليهم، و تصوير لمدى ضلالهم و مكابرتهم، و على هذا المنهج جاء قوله تعالى: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (٣) وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۴) (ص ١- ۴). و هو بذلك يشير إلى أن هذا القول لا يكون إلا من كافر يخفى الحق و لا يقربه.

و مما استخدمه القرآن ضمير الشأن أو القصة، و هو ضمير لا مرجع له، تسمعه النفس فتتهيأ لسماع ما يأتى بعده، لأن الأسلوب العربى

لا يأتى بهذا الضمير إلا فى المواطن التى يكون فيها أمر مهم، تراد العناية به، فيكون هذا الضمير أداة للتنبيه، يدفع المرء إلى الإصغاء، فإذا وردت الجملة بعده استقرت فى النفس و اطمأن إليها الفؤاد.

و استمع إلى قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (الإخلاص ١). أو لا- ترى الشوق يحفز السامع عند ما يصغى إلى هذا الضمير- إلى أن يدرك ما يراد به، فإذا وردت الجملة ثبتت فى النفس، و قرت فى القلب.

و قوله تعالى: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (الحج ۴۶).

تجد للضمير هنا من الإثارة و تثبيت المعنى، ما يبين عن فضل هذا الضمير، و ما يمنحه الأسلوب من قوة و حسن بيان.

و يستخدم القرآن العلم و لم يستخدم الكنية «١» إلا فى قوله تعالى: تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَ (المسد ١)، و فى اختيار هذه الكنية من الذم، ما ليس فى الاسم، و هذا هو السر فى اختيارها، و قل استخدامه كذلك للقب، و منه استخدام إسرائيل، لقب يعقوب، و معناه عبد اللّه، و قيل صفوة اللّه، و لم تخاطب اليهود فى القرآن إلا ب «يا بنى إسرائيل» «٢». و منه المسيح، لقب لعيسى، قيل معناه الصديق، و قيل الذى لا يمسح ذا عاهة إلا برئ «٣».

و يأتى اسم الإشارة للقرب فى القرآن، مؤذنا بقربه، قربا لا يحول دون الانتفاع به، و من هنا أوثر هذا النوع من أسماء الإشارة، فى قوله سبحانه: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (الإسراء ٩)، أو لا ترى أن المقام هنا مقام حديث عن هاد، يقود إلى أقوم الطرق، و لأن يكون هذا الهادى قريبا أنجح لرسالته، و أقطع لعذر من ينصرف عن الاسترشاد بهديه، بينما استخدم اسم الإشارة للبعيد، مشيرا إلى القرآن نفسه عند ما تحدث عن بعده عن الريب، فكان الحديث عنه باسم الإشارة البعيد، أنسب فى الدلالة على ذلك.

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١۴۴.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

من بلاغة القرآن، ص: ١٠٧

و يستخدم اسم الإشارة للقريب تنبيها على ضعة المشار إليه، كما فى قوله تعالى: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ (الأنبياء ٣۶)، و قوله سبحانه: وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (الفرقان ۴١)، و كأن فى اسم الإشارة للقريب، ما يشير إلى أن هذا الشخص القريب منا، و الذى نعلم من أموره ما نعلم، لا تقبل منه دعوى الرسالة، و لا يليق به أن يذكر آلهتنا بسوء.

و يستخدم اسم الإشارة للبعيد أحيانا ليدل على ارتفاع مكانته، و بعده عن أن يكون موضع الأمل و الرجاء، كما فى قوله سبحانه، على لسان امرأة العزيز: قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (يوسف ٣٢)، أو ليدل على ما يجب أن يكون عليه من بعد فى المكان و المنزلة، و لعل من ذلك قوله تعالى: إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٧۵).

و فى اسم الإشارة لون من الإيجاز و التنبيه معا، عند ما يشير إلى موصوف بصفات عدة، فينبنى الحكم على هذه الصفات، كما فى قوله سبحانه: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) (الأنفال ٢- ۴).

و يأتى القرآن بالاسم الموصول، عند ما تكون صلته هى التى عليها مدار الحكم، كما فى قوله سبحانه: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (النساء ١٢٢). و قوله

تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (آل عمران ۹۱).

و المجيء باسم الموصول، فضلا عما ذكرناه، يثير فى النفس الشوق إلى معرفة الخبر، و قد تكون الصلة نفسها ممهدة لهذا الخبر و دالة عليه، و اقرأ قوله تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲) (التوبة ۲۰- ۲۲). أو لا ترى فى الصلة ما يوحى إليك بأنه قد أعد لهم خير عظيم، يناسب إيمانهم و هجرتهم، و جهادهم بأموالهم و أنفسهم.

و من خصائص اسم الموصول استطاعته أن يخفى تحته اسم المذنب، و فى ذلك من الرجاء فى هدايته، ما ليس فى إفشاء اسمه و فضيحته، و تأمل قوله تعالى:

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۸

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (الحج ۸)، و قوله تعالى:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ (العنكبوت ۱۰)، و قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ (لقمان ۶).

ففى هذا و غيره ذم لمن يتصف بذلك، و دعوة له فى صمت إلى الإقلاع و الكف، و من ذلك قوله سبحانه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (البقرة ۲۰۴). و جاء قوله تعالى بعده: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (البقرة ۲۰۷). ليكون فى مقابلته، حتى تكون الموازنة قوية جلية، تدفع إلى العمل الصالح ابتغاء مرضاة اللّه.

و قد يعدل القرآن عن العلم إلى الاسم الموصول، إذا كان فيه زيادة تقرير لأمر يريده القرآن، كما فى قوله تعالى: وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ (يوسف ۲۳).

أ لا ترى فى ذكر اسم الموصول زيادة تقرير لعفته، فهو فى بيتها، و وسائل إغرائه موفورة عندها، و هو تحت سلطانها، و لن تفهم هذه المعانى إذا جاء باسمها.

و يستخدم اسم الموصول كذلك، لإظهار أن الأمر لا يستطاع تحديده بوصف، مهما بولغ فيه، تلمس ذلك فى قوله تعالى: قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (الشعراء ۱۸، ۱۹). و قوله تعالى: فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (طه ۷۸). و فى ذلك ترك للخيال يسبح ليكمل الصورة و يرسمها.

و يستخدم القرآن التعريف بأل، فتكون للعهد حينا، و للجنس حينا آخر، و من أجمل مواقعها فيه أن تستخدم لاستغراق خصائص الجنس، كما فى قوله تعالى:

ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (البقرة ۲). فكأنه قال ذلك هو الكتاب المستكمل لخصائص جنسه، فهو الكتاب الكامل.

و تأتى الإضافة فى القرآن أحيانا لتعظيم المضاف كقوله تعالى: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (النمل ۸۸). أو تحقيره كما فى قوله سبحانه:

أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (المجادلة ۱۹).

و قد يعدل عن الإضافة، حيث يبدو فى ظاهر الأمر أن المقام لها، كما فى قوله سبحانه على لسان إبراهيم لأبيه: يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (مريم ۴۵). فالعدول عن إضافة العذاب إلى الرحمن لعدم التجانس بينهما، فالمناسب للعذاب أن يضاف إلى الجبار، أو المنتقم مثلا لا إلى مصدر النعم، أما السر فى وصف العذاب بأنه من الرحمن، فالإشارة إلى أن

العذاب إنما كان، لأنه كفر بمن كان مصدرا للنعمة، و لم يقم بواجب شكره.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۰۹

الإفراد و التذكير و فروعهما

قال أبو منصور الثعالبى: لم يأت لفظ الريح فى القرآن إلا فى الشر، و الرياح إلا فى الخير، قال اللّه عز و جل: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲) (الذاريات ۴۱، ۴۲). و قال سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) (القمر ۱۹، ۲۰).

و قال جل جلاله: وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ (الأعراف ۵۷).

و قال: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «۱» (الروم ۴۶).

و لعل السبب فى ذلك أن ريح الشر، تهب مدمرة عاصفة، لا تهدأ، و لا تدع الناس يهدءون، فهى لاستمرارها ريح واحدة، لا يشعر الناس فيها بتحول و لا تغير، و لا يحسون بهدوء يلم بها، فهى متصلة فى عصفها و شدة تحطيمها، و ذلك مصدر الرهبة منها و الفزع، أما الرياح التى تحمل الخير فتهب حينا، و تهدأ حينا، لتسمح للسحب أن تمطر، فهى متقطعة تهب فى هدوء، و يشعر المرء فيها بفترات سكون، و أنها رياح متتابعة، ففى تعبير القرآن تصوير للإحساس النفسى.

و وصفت الريح مفردة بالطيبة فى قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۲۲) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ (يونس ۲۲، ۲۳)؛ لتقابل ريح الشر، و لأن إفراد الريح مع السفن هو الرحمة بها، و لو أنها جمعت، فقد يدل الجمع على مجىء الريح من مهاب متعددة، و فى ذلك دمار لها.

و أبى القرآن- كما سبق أن ذكرنا- أن يجمع الأرض على أرضين، و لعله وجد فيها ثقلا على اللسان فتركها.

قال الأستاذ السباعى «۲»: «و من دقائق القرآن فى هذا الباب اختياره إفراد السبيل مع الحق، و جمعه مع الباطل، لأن سبيل الحق واحدة، و سبل الباطل

---

(۱) فقه اللغة ص ۴۰۳.

(۲) تاريخ الأدب العربى ص ۹۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۰

متعددة، قال تعالى: وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام ۱۵۳). و من هذه الجهة بعينها، مجىء النور مفردا للهدى، و الظلمات جمعا للضلال، و كلمة ولى بالإفراد مضافة إلى المؤمنين، و بالجمع مضافة إلى الكفار. قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ (البقرة ۲۵۷).

و استخدام القرآن السماء مفردة و مجموعة، يدلنا على الفرق بين المعنيين فى الاستخدام القرآنى قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة ۲۹). فهو يعنى بالسماء هذه الجهة المرتفعة التى نشاهدها فوق رءوسنا، و يعنى بالسماوات هذه الكواكب السبعة، التى تدور فى أفلاكها، و تأمل قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (البروج ۱).

و قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ

أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة ۲۲).

و قوله تعالى: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (فصلت ۱۲).

و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (فاطر ۴۱).

و استخدام القرآن جموعا لم يستخدم مفرداتها، كالأصواف و الأوبار، فى قوله تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (النحل ۸۰). و ليس فى مفرد هذين الجمعين من ثقل، بل هو مفردا و مجموعا حسن رائق، و إنما استخدم الجمع هنا، لأن المقام له فهى أصواف و أوبار عدة متنوعة.

و استخدم الأرجاء فى قوله سبحانه: وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (الحاقة ۱۷)، و الألباب فى قوله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (الزمر ۲۱)، و لم يستخدم مفرد هذين الجمعين، و هما رجا و لب، و المفرد الأول قل استعماله، و المفرد الثانى قل استعماله بالنسبة لجمعه، و جمع الكلمتين أرق على اللسان من مفرديهما، و المقام يستدعيه فيما ورد فيه، كما استدعى المجىء بالجمع فى قوله تعالى: وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (ص ۶۲). و لم يستخدم «الشرير». و قوله تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها (محمد ۱۸). فللساعة أشراط عدة، و استدعى المجىء بالمفرد دون الجمع، فى

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۱

كلمة البقعة، فى قوله تعالى فى قصة موسى: فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ (القصص ۳۰)، و ليس فى الجمع و هو البقاع ثقل و لا نفور. و لم ترد الكلمة فى غير هذا الموضع و ورد المشرق و المغرب مفردين بمعنى جهة الشروق و الغروب، كما فى قوله تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ (البقرة ۱۷۷)، و ورد المشرق مثنى فى آيتين، هما قوله تعالى: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (الزخرف ۳۸).

و واضح أن المراد بالمشرقين هنا المشرق و المغرب، و قوله تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (۱۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۸) (الرحمن ۱۷، ۱۸). و على النسق القرآنى يكون المراد بالمشرقين المشرق و المغرب، و بالمغربين المغرب و المشرق، فيكون فى ذلك تكرير، لتعظيم أمر المشرق و المغرب.

و قال بعض المفسرين: المشرقان هما مشرق الشمس فى الصيف و مشرقها فى الشتاء، و المغربان مغربها فى الصيف و مغربها فى الشتاء «۱».

فإذا جمعت كان المراد الجهات التى تشرق منها الشمس أو تغرب، و الشمس ترى من الأرض تشرق فى كل يوم من مشرق، غير الذى أشرقت منه بالأمس.

و للقرآن بعض لفتات فى التذكير و التأنيث، يعتمد فيها على ما تثيره الكلمة فى النفس من معنى، فيعيد الضمير على المعنى الذى أثارته الكلمة، و رأيت من ذلك ثلاثة مواضع:

أولها قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (۱۱) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (۱۲) (الفرقان ۱۱، ۱۲)، فلما كانت كلمة السعير تدل على النار المستعرة و توحى بها، أعاد الضمير عليها مؤنثا.

و ثانيها وصفه البلدة بالميت فى قوله سبحانه: ... وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹) (الفرقان ۴۸، ۴۹).

و قوله تعالى: وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (الزخرف ۱۱)، و سر ذلك أن الذى أحياه المطر؛

إنما هو المكان الذى تقام عليه البلدة، فهو فى الحقيقة الذى جرى المطر فى عروقه. فحيى، فلما كان المراد بالبلدة المكان صح وصفها بالمذكر.

و ثالثها قوله سبحانه: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (۱۷) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (۱۸) (نوح ۱۷، ۱۸).

---

(۱) الكشاف ج ۲ ص ۴۲۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۲

ذكر السماء و هى مؤنثة، لأنها بالنسبة إلى الأرض سقف لها، و تنبه الذهن إلى أن السماء سقف، يصور لك تشققها تصويرا قريبا إليك، دانيا منك. و إن فى انتهاج القرآن ذلك النهج من المخالفة الصورية لما يلفت الذهن إلى ما وراء الألفاظ، من معان مقصودة، و صور ملحوظة.

التوكيد و التكرير

التوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة فى نفوس الجماعات، و إقرارها فى قلوبهم إقرارا، ينتهى إلى الإيمان بها، و قيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها، ما أمكن ذلك، «فإذا تكرر الشيء رسخ فى الأذهان رسوخا، تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة» «۱» و للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين، و تأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى، و السبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية، التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار، و انتهى بتصديق المكرر «۲».

و استخدم القرآن التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه، و إقراره فى أفئدتهم، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم.

و قد يكرر القرآن الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها، علما منه بما لذلك.

من أثر فى النفس، فتراه مثلا- فى سورة الشعراء يكرر الجملتين الآتيتين خمس مرات، من غير أن يغير من ألفاظهما حرفا، فقال على لسان بعض رسله: إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) (الشعراء ۱۰۷، ۱۰۸ و ۱۲۶ و ۱۴۴ و ۱۶۳ و ۱۷۹).

و هى و إن كانت مقولة على ألسنة عدة رسل، توحى لتكررها بعبارة واحدة، بصدق هؤلاء الرسل و تثبيت التصديق بهم.

و يؤكد القرآن صفات اللّه، حتى يستقر الإيمان بها فى النفوس، و ذلك هو الأساس الذى ينبنى عليه الدين، فتسمعه يقول مكررا و مؤكدا فى كثير مما يكرره:

إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة ۲۰)، إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة ۱۱۰)، إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة ۱۱۵)، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة ۱۵۳)، فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (البقرة ۱۵۸)، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقرة ۱۷۳)، إِنَّ اللَّهَ لا- يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة ۱۹۰)، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة ۱۹۵)، أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (البقرة ۱۹۶)، أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة ۲۰۹)، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (البقرة ۲۲۲)، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

---

(۱) روح الاجتماع ص ۱۳۹.

(۲) المرجع السابق نفسه.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۳

عَلِيمٌ (البقرة ۱۸۱)، أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة ۲۳۱)، أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (البقرة ۲۶۷)، إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (آل عمران ۵)، إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا- رَيْبَ فِيهِ (آل عمران ۹)، إِنَّ اللَّهَ لا- يُخْلِفُ الْمِيعادَ (الرعد ۳۱)، فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسابِ (آل عمران ۱۹۹)، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (آل عمران ۳۷)، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (العنكبوت ۶)، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (آل عمران ۱۱۹)، إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (الأنفال ۴۷)، إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (آل عمران ۹).

فهذا التأكيد يقرر معانى هذه الصفات فى النفس، و إذا تكررت هذه المعانى فى النفس انبثق منها العمل الصالح، المبنى على أساس من الإيمان المكين. و فى أحيان كثيرة يستغنى القرآن عن التوكيد بتكريرها فى مواضع شتى، و هذا التكرير للصفات فى المناسبات المختلفة مصدر توطيدها فى النفس.

و يؤكد القرآن وعده و وعيده، فيكرر مؤكدا قوله: إن اللّه يحب المتقين، و إن اللّه مع المتقين، و فى مواضع شتى، و قوله: إن اللّه لا يحب الكافرين، و إن اللّه لا يهدى القوم الكافرين، و حينا يكتفى بالتكرير- كما قلنا- عن توكيد الجملة.

و يؤكد كل خبر هو مجال للشك أو الإنكار، و كلما توغل الخبر فى ميدان الشك زادت ألوان المؤكدات، و تأمل لذلك قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (۱۲) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (۱۴) (البقرة ۱۱- ۱۴). أولا تراهم عند ما أنكروا الإفساد فى الأرض و السفاهة، أكد اتصافهم بها بألا، و إن، و تعريف ركنى الجملة المؤذن بالقصر، و ضمير الفصل. و لمّا كان إقرارهم للمؤمنين بالإيمان بألسنتهم مبعثا للشك فى نفوس شياطينهم، دفعهم ذلك إلى تأكيدهم لهم الثبات على مبادئهم، و أنهم لا يبغون عنها حولا.

و اقرأ قوله تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (۱۳) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (۱۴) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) (يس ۱۳- ۱۶). أ لا ترى المرسلين قد أكدوا رسالتهم بإن، عند ما كذبهم أصحاب القرية، فلما لج هؤلاء فى التكذيب، زادوا فى تأكيد رسالتهم مؤكدا جديدا، هو اللام، و أشهدوا ربهم على صدق دعواهم.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۴

و للتوكيد أساليب كثيرة فى القرآن الكريم، فمنها التوكيد المعنوى بكل و أجمع، كما فى قوله تعالى: فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (الحجر ۳۰). و فائدة هذا اللون من التوكيد رفع ما يتوهم من عدم الشمول، و إنى أرى هنا ما رآه الفراء «۱» من أن كلهم أفادت ذلك، و أجمعون أفادت اجتماعهم على السجود، و أنهم لم يسجدوا متفرقين.

و منها التوكيد اللفظى، بأن يكرر السابق لفظه، اسما كان، أو فعلا، أو اسم فعل، أو حرفا، أو جملة، كما ترى ذلك فى قوله تعالى: كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (الفجر ۲۱). و قوله: فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (الطارق ۱۷). و قوله سبحانه: هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (المؤمنون ۳۶). و قوله: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (المؤمنون ۳۵)، و قوله: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (الشرح ۵، ۶)، و كثيرا ما تقترن الجملة الثانية بثم، كما فى قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (۱۷) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (۱۸) (الانفطار ۱۷، ۱۸).

و منه تأكيد الضمير المنفصل بمثله، كما قال تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (النمل ۳). و تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل، فى قوله سبحانه: قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (الأعراف ۱۱۵)، و فى تأكيدهم ما يشعر بثقتهم بأنفسهم، و قوله تعالى: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (طه ۶۸). و فى ذلك تثبيت قلب موسى و بعث الطمأنينة إليه.

و منه تأكيد الفعل بمصدره، و يكون ذلك فى الأمور التى يتوهم فيها المجاز، فيأتى الفعل لرفع هذا التوهم، و تأمل ذلك فى قوله تعالى: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً (النساء ۱۰۴)، فقد يطلق الكلام على الإيحاء، و ينصرف الذهن إليه، فجاء المصدر لإزالة هذا التوهم.

و قوله تعالى: إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (۷) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (۸) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (۱۰) (الطور ۷- ۱۰). أو لا ترى أن اضطراب السماء، و سير الجبال، مما قد تتردد النفس فى قبوله، فجيء بالمصدر تأكيدا لوقوعه. و قد يؤكد الفعل بمصدر فعل

آخر نيابة عن المصدر، كما فى قوله تعالى: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (الجن ٨). و فى ذلك دلالة على ما للتبتيل من أثر فى استجلاب رضوان اللّه، فأمر به مؤكدا، و لعل السر فى العدول إلى هذا المصدر، هو المحافظة على النغمة الموسيقية للآية.

و من ألوان التوكيد أن يكون فى الجملة أداة من أدوات التوكيد، و هى إن، و أن، و لام الابتداء، و القسم، و ألا الاستفتاحية، و هاء التنبيه، و كأن فى تأكيد التشبيه، و ضمير الشأن، و ضمير الفصل، و قد، و السين، و سوف، و النونان فى تأكيد الفعل، و دخول الأحرف

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ۶۶.

من بلاغة القرآن، ص: ١١٥

الزائدة فى الجملة، و تؤكد الجملة بذلك لتثبيت معناها و توطيده فى النفس، و كلما كان هذا المعنى مجالا للشك أو الإنكار، كان موضع التوكيد أنسب و أقوى، كما ذكرنا.

و قد يؤكد القرآن أمرا هو من البداهة بمكان، لأنه يرمى من وراء ذلك إلى هدف هام، تتبينه النفس عند ما تتدبر أمر هذا التوكيد، لترى ما موقعه، و لم كان، و تأمل قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (١۶) (المؤمنون ١۵، ١۶). فلما كان تماديهم فى الضلال يصرفهم عن التفكير المستقيم، المؤدى إلى الإيمان، باللّه و رسله، و اليوم الآخر، و كانت هذه الغفلة تلفتهم عن التفكير فى مصيرهم، فكأنهم مخلدون لا يصيبهم موت و لا فناء- أكد نزول الموت بهم تأكيدين ليفكروا فيه، و فيما يتطلبه نزوله بهم، من عمل صالح ينفعهم بعد هذا الموت.

و قد يكون تقوية التوكيد لقصد الترغيب، كما ترى ذلك فى قوله تعالى: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة ۵۴)، فتأكيد هذه الصفة بأربعة تأكيدات، لترغيب العباد فى التوبة، و الرجوع إلى اللّه سبحانه.

تدخل إن فى الكلام، ففضلا عن تأكيدها لمعنى الجملة، تربط ما بعدها بما قبلها. قال عبد القاهر: «هل شىء أبين فى الفائدة، و أدل على أن ليس سواء دخولها و ألا تدخل «١» من أنك ترى الجملة إذا هى دخلت، ترتبط بما قبلها و تأتلف معه، و تتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا و كأن أحدهم قد سبك فى الآخر، هذه هى الصورة، حتى إذا جئت إلى إن فأسقطتها، رأيت الثانى مبهما قد نبا عن الأول، و تجافى معناه عن معناه، و رأيته لا يتصل به، و لا يكون منه بسبيل، حتى تجىء بالفاء .. ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة، و ترد عليك الذى كنت تجد بإن من المعنى، و هذا الضرب كثير من التنزيل جدا، من ذلك قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (الحج ١)، و قوله عز اسمه: يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (لقمان ١٧)، و قوله سبحانه: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (التوبة ١٠٣)، و من أبين ذلك قوله تعالى:

وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (هود ٣٧). و قد يتكرر فى الآية الواحدة، كقوله عز اسمه: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (يوسف ۵٣)، و هى على الجملة من الكثرة، بحيث لا يدركها الإحصاء».

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢۴٣.

من بلاغة القرآن، ص: ١١۶

و إنما تقع إن موضع الفاء، إذا كانت جملتها توضح ما قبلها، و تبين وجه الفائدة فيه، كتلك الآيات التى أوردها عبد القاهر، فقوله تعالى: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (الحج ١). يبين سبب أمرهم بالتقوى فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ (الحج ١)، و كذلك إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (التوبة ١٠٣). بيان للسبب فى طلب الصلاة لهم من النبى، و لكن ذلك لا يطرد فى كل موضع، بل هناك ما لا يحصى من الجمل التى لا تقتضى الفاء، كقوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (۵١) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵٢) (الدخان ۵١، ۵٢). فقبله

إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (الدخان ۵۰)، و لو أنك قلت:

«إن هذا ما كنتم به تمترون، إن المتقين فى جنات و عيون» لم يكن كلاما «۱»، و قوله تعالى: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (۱۰۰) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (۱۰۱) (الأنبياء ۱۰۰، ۱۰۱). فلو أتينا مكان إن بالفاء لم تجد لها وجها، كما أنه لا يجوز المجيء بالفاء مكان إن فى قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ (الحج ۱۷).

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (الكهف ۳۰).

لأن جملة إن الثانية خبر عن الأولى فى الآيتين، و الخبر لا يجوز عطفه على المبتدأ.

قال عبد القاهر «۲»: «و من خصائصها أنك ترى لضمير الأمر و الشأن معها من الحسن و اللطف، ما لا تراه إذا هى لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلا بها، و ذلك فى مثل قوله: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (التوبة ۱۲۰).

و قوله: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ (التوبة ۶۳). و قوله: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ (الأنعام ۵۴). و قوله: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (المؤمنون ۱۱۷).

و قوله: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ (الحج ۴۶).

فإن قلت أو ليس قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرى من العوامل فى قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (الإخلاص ۱). قيل: هو، و إن جاء هنا فإنه لا يكاد يوجد مع الجملة مع الشرط و الجزاء، بل تراه لا يجيء إلا بإن، على أنهم قد أجازوا فى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ألا يكون الضمير للأمر».

و لما كان جواب السؤال و الجمل التى تلقى فى مواضيع الجدل مما يحتاج إلى إقراره فى نفس السائل و المجادل و تثبيته فى قلبهما، كانت الجملة التى تقع جوابا من المواضع التى تجيء فيها إن، كما فى قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (۸۳) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ (الكهف ۸۳، ۸۴). و قوله تعالى: فَإِنْ عَصَوْكَ

---

(۱) المرجع السابق ص ۲۴۴.

(۲) المرجع السابق نفسه.

فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (الشعراء ۲۱۶). و قوله تعالى: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (الأنعام ۵۶). فإذا كان الكلام جواب منكر حشد له أكثر من أداة واحدة للتوكيد.

و قد تدخل إن للدلالة على أن المتكلم كان يظن أمرا فحدث خلافه، فيأتى بهذا التوكيد ليرد على نفسه ظنه، و كأنه يريد لهذه النفس أن يستقر فيها هذا النبأ الجديد الذى لم تكن تتوقعه، بل تتوقع سواه، و كأنها تريد أن تخلى مكانا من القلب قد شغل بخاطر، لتحل فيه خاطرا جديدا، و تأمل قوله تعالى حكاية عن أم مريم: قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ (آل عمران ۳۶). فأم مريم كان الأمل يملأ قلبها فى أن تلد ذكرا نذرته للّه، و لطول ما شغلها هذا الأمل تجسم فى خيالها، حتى صار كأنه حقيقة واقعة، فلما وضعت مريم فوجئت، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد فى قلبها، حتى تروض نفسها عليه، و تستسلم لما كان. و كذلك قوله تعالى: حكاية عن نوح عليه السلام: قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (الشعراء ۱۱۷). فلم يكن نوح يتوقع أن يكذبه قومه، و قد جاءهم من ربهم بالنور و الهدى، فكان تكذيبهم صدمة له يريد أن يوطن عليها نفسه.

و التأكيد بإن أقوى من التوكيد باللام المؤكدة، و اللام المؤكدة هى لام الابتداء فى قوله تعالى: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ (الحشر ۱۳). و قوله سبحانه: وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم ۴). و قوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (۱۲) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (۱۳)

(اللیل ۱۲، ۱۳). و لام القسم، کما فی قوله تعالی: قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللَّهُ عَلَیْنا. (یوسف ۹۱).

و هنا نقف عند قوله تعالی: وَ یَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَیًّا (مریم ۶۶).

فقد یبدو أن اللام لا موضع لها هنا لأن الإنسان المتحدث منکر للبعث. و لکن التأمل یبین أن هذا الإنسان المنکر إنما یحکی ما حدثه به الرسول حین أکد له هذا البعث.

و من أمثلة «ألا» التنبیهیة التی تفید التوکید قوله تعالی: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لکِنْ لا یَعْلَمُونَ (البقرة ۱۳) و قوله سبحانه: أَلا یَوْمَ یَأْتِیهِمْ لَیْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ (هود ۸). و من أمثلة «ها» التنبیهیة، و لم ترد فی القرآن إلا داخلة علی ضمیر المخاطبین المخبر عنه باسم الإشارة- قوله تعالی: ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا یُحِبُّونَکُمْ (آل عمران ۱۱۹).

و یبدو لی أن منشأ التوکید فی البدء بهاتین الأداتین یعود إلی ما فیهما من تنبیه السامع إلی ما سیرد بعدهما من أخبار، و تهیئته لسماعها، و ذلک لا یکون إلا حیث یعتنی بهذه الأخبار، لتستقر فی النفس و نثبت بها.

و یفید ضمیر الشأن التوکید من ناحیة أنه یثیر النفس، و یدفعها إلی معرفة

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۸

المراد منه، فإذا جاء تفسیره استقر هذا التفسیر فی النفس، و تأکد فیها، و لیس بکثیر استخدام هذا الضمیر فی القرآن، و إنما یکون فی المواضع التی یراد بها تعظیم أمر و تفخیمه عن طریق إبهامه ثمّ إیضاحه. و من أمثلته قوله تعالی: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (الإخلاص ۱). و فَإِنَّها لا تَعْمَی الْأَبْصارُ وَ لکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ (الحج ۴۶). و فَإِذا هِیَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِینَ کَفَرُوا (الأنبیاء ۹۷).

أما ضمیر الفصل فهو کثیر فی القرآن، و من أمثلته قوله تعالی: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکی (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْیا (۴۴) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی (۴۵) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنی (۴۶) وَ أَنَّ عَلَیْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْری (۴۷) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنی وَ أَقْنی (۴۸) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْری (۴۹) وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عاداً الْأُولی (۵۰) وَ ثَمُودَ فَما أَبْقی (۵۱) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغی (النجم ۴۳- ۵۲).

و قد استخدم القرآن هنا ضمیر الفصل فی الأفعال التی هی مظنة الاشتراک، کما تری ذلک فی جملة الإضحاک و الإبکاء، و الإماتة و الإحیاء و الإغناء و الإقناء، أما حیث لا تدعی الشرکة فلا حاجة إلی هذا الضمیر، کما تری فی جمل خلق الزوجین، و النشأة الأخری، و إهلاک عاد الأولی.

و من ذلک قوله تعالی: قالَ أَ فَرَأَیْتُمْ ما کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی إِلَّا رَبَّ الْعالَمِینَ (۷۷) الَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ (۷۸) وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۸۰) وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ (۸۱) وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ (۸۲) (الشعراء ۷۵- ۸۲)، و تری هنا ما رأیته فی الآیة الماضیة من المجیء بضمیر الفصل حیث یتوهم فی الفعل شرکة، کما فی الهدایة و الإطعام و الشفاء، أما حیث لا تتوهم تلک الشرکة فلا یأتی ضمیر الفصل کما فی الخلق و الإماتة و الإحیاء.

و یقوی التوکید فی ضمیر الفصل حتی یدل علی القصر و الاختصاص، کما تری ذلک فی الآیتین السالفتین، فإن ضمیر الفصل نفی الشرکة، و جعل الفعل خاصا باللّه وحده، و تلمس القصر الذی أفاده ضمیر الفصل فی قوله سبحانه علی لسان عیسی: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (المائدة ۱۱۷)، فبعد وفاة عیسی لم یکن الرقیب علیهم سوی اللّه وحده.

هذا و قد تحدث البلاغیون طویلا فیما تفیده الباء الزائدة فی خبر ما، و لیس، من تأکید فی الجملة، منشؤه ما للباء الزائدة من معان، منها المصاحبة، ففی قوله تعالی: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا یَعْمَلُونَ (البقرة ۱۴۴). و قوله تعالی: وَ لَیْسَ بِضارِّهِمْ شَیْئاً

من بلاغة القرآن، ص: ۱۱۹

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (المجادلة ۱۰). تری هذه الباء قد نفت کل صلة تربط بین اللّه و الغفلة، فی الآیة الأولی، و بین السحر و الضیر فی الآیة

الثانية، فلا صحبة بينهما و لا تلاق.

*** و كرر القرآن فى سورة الرحمن نيفا و ثلاثين مرة قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (الرحمن ۱۶). متسائلا عما يستطيع أن ينكره الجن و الإنس مما أولاهما اللّه من نعم، فلعل فى هذا السؤال المتكرر ما يثير فى نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكررت و آلاء توالت.

و هنا يحسن أن أقف مشيرا إلى ما قد يبدو حينا من أن لا وجه لهذا التساؤل بعد بعض آيات السورة، كما يتراءى ذلك فى قوله سبحانه و تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (۲۶) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۲۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۸) (الرحمن ۲۶- ۲۸)، فأى نعمة يذكر بها الجن و الإنس فى فناء هذا العالم؟

و لكن تأملا فى هذه الآيات و ما ورد من هذا السؤال بعد وصف اليوم الآخر و أهواله، يدل على أن مثل هذا السؤال سيوجه بعد فناء هذا العالم، فكأن القرآن يقرر أن سيلقى مثل هذا السؤال، يوم تنشق السماء، و يوم يعرف المجرمون بسيماهم، أ فلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلا كما أوحى القرآن بذلك، فى تلك الآلاء و النعم، فيقوم بواجب الإيمان بالنعم و شكرها، حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب اللّه الثقلين.

و كررت فى سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة، و هى قوله تعالى: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (المرسلات ۱۹)، و إذا نظرنا إلى هذه السورة، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر، و تصفه، فلا جرم كرر هذا الإنذار عقب كل وصف له، أو فعل يقع فيه، أو عمل من اللّه يدل على قدرة، يحيى بها الناس بعد موتهم، و فى هذا التكرير ما يوحى بالرهبة، و يملأ القلب رعبا من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب.

و فى سورة الشعراء، كررت الآية الكريمة، و هى قوله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۹) (الشعراء ۸، ۹). ثمانى مرات و كانت متمكنة من موضعها فى كل مكان حلت فيه، فقد جاءت فى هذه السورة أولا، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى الأرض، أو ليس فيما تنبته من كل زوج بهيج ما يثير فى النفس التأمل لمعرفة خالق الأرض و محييها. و استمع إليه سبحانه يقول:

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۷) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۹) (الشعراء ۷- ۹).

و يكرر الآية فى موضع آخر، تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى، و نجاته، و غرق فرعون، و تلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه، فهى جديرة بتسجيلها

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۰

و الإشارة إليها. قال تعالى: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (۶۴) وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶۸) (الشعراء ۶۳- ۶۸).

و كررت تلك الآية ست مرات أخرى عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها، كتصوير جند إبليس، و قد كبكبوا فى جهنم، و أخذوا يختصمون فيما بينهم، و يقررون أنهم كانوا فى ضلالة و عمى، و يتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه، أو ليس فى ذلك من العظة ما ينهى عن مثل هذا المصير.

و كررها كذلك عقب قصة صالح و لوط و شعيب، لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تتلقى منه العظات و العبر، و كأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة من القول، يحسن الوقوف عندها و التريث لتدبرها، و تأمل ما تحوى من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ.

و ختم الآیة بوصفه تعالی بالعزة و الرحمة فیه کل المناسبة للحدیث عن مصیر الکافر و المؤمن، فهو عزیز یعاقب الکافر، و رحیم بمن آمن.

و تجد الآیة التی کررت فی سورة القمر، و هی قوله سبحانه: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (القمر ۱۷ و ۲۲ و ۳۲ و ۴۰)- منبهة فی کل موضع وردت فیه، إلی أن ما سیأتی بعدئذ مما عنی القرآن بالحدیث عنه، تذکرة و عظة، و هو لذلک جدیر بالتأمل الهادئ و التدبر و الادکار.

و قد یحدث التکریر فی آیتین متوالیتین، کما فی قوله سبحانه: لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ غَنِیًّا حَمِیداً (۱۳۱) وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا (۱۳۲) (النساء ۱۳۱، ۱۳۲). و ذلک لتثبیت الإیمان بغنی اللّه عن عبادة العابد، فی قلوب الناس، لیقبلوا علی العبادة مؤمنین بأنها لخیرهم وحدهم، بل قد یکون التکریر فی الآیة الواحدة و ذلک لتثبیت المکرر فی النفس، کما فی قوله:

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ (الحشر ۱۸)، و قوله تعالی: وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِکَةُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفاکِ عَلی نِساءِ الْعالَمِینَ (آل عمران ۴۲).

و یوحی التکریر فی سورة «الکافرون» بالیأس إلی قلوب من کفر من أن ینصرف الرسول عن دینه إلی ما کان یعبد هؤلاء الکفرة، فلیتدبروا أمرهم بینهم ملیّا، لیروا سر هذا الإصرار من محمد، فعساهم یدرکون أن هذا السر هو أن الرسول علی حق، فیما یدعو إلیه، فلم ینصرف عنه إلی أدیان لا سند لها من الصواب و الحق.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۱

القصر

یستخدم القرآن ألوانا من القصر، عند ما یراد إثبات الحکم لمذکور و نفیه عما عداه، فقد یقصر صفة علی موصوف قصرا حقیقیّا، بحیث لا یتصف بهذه الصفة إلا ذلک الموصوف وحده، کما تجده فی قوله سبحانه: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ مُتَقَلَّبَکُمْ وَ مَثْواکُمْ (محمد ۱۹)، و قوله سبحانه: إِیَّاکَ نَعْبُدُ (۴) وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ (۵) (الفاتحة ۴، ۵). و قد لا یرید هذا الحصر الحقیقی بل یبغی إثبات الحکم لموصوفات یعتقد اتصافها بغیر هذه الصفة، کما فی قوله تعالی:

قُلْ لا أَجِدُ فِی ما أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلی طاعِمٍ یَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ یَکُونَ مَیْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِیرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (الأنعام ۱۴۵)، فلیس الطعام المحرم هو ما ذکر فی تلک الآیة فحسب بدلیل آیة المائدة و إنما ذکرت تلک المحرمات هنا فی معرض الرد علی من کان یعتقد حلها.

و قد یقصر موصوفا علی صفة، و لم یرد فی القرآن هذا القصر حقیقیا، و مما ورد منه إضافیّا قوله تعالی: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ (آل عمران ۱۴۴)، فلیس المراد هنا قصر محمد علی الرسالة فحسب، بحیث لا یتعداها إلی غیرها، بل المراد أن محمدا مقصور علی الرسالة، لا یتعداها إلی الخلوص من الموت الذی استعظموا أن یلم به.

و قد تتجسم صفة من صفات الشیء، حتی تطغی علی ما سواها، و حتی کأن الموصوف قد خلص لها فلم یعد متصفا بغیرها، فیصح قصره علیها، کما فی قوله تعالی: وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (الأنعام ۳۲).

و یخاطب القرآن بأسلوب القصر من یعتقد الشرکة، فیثبت القرآن بهذا الأسلوب الحکم لواحد و ینفیه عن غیره، کما فی قوله تعالی: لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ یَنْتَهُوا عَمَّا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (المائدة ۷۳).

و قد يقلب به ما يعتقده المخاطب، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۲

آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (البقرة ۱۳)، فقد كان المنافقون، كما ترى، يعتقدون أن المؤمنين سفهاء دونهم.

و استخدم القرآن من طرق القصر (ما و إلا)، و هى أقوى أدواته لما فيها من وضوح معنى القصر، و لذا تستخدم فى الأمور التى هى مجال الشك و الإنكار، نجد ذلك فى قوله سبحانه: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (النمل ۴۷)، أ لا ترى أن الظالمين يخاطبون بذلك قوما آمنوا، و ينكرون دعوى سحر الرسول.

و قوله سبحانه: وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (النمل ۶)، فالتخويف يبعث فى النفس الشك فى أنهم ينصرفون عن كفرهم، فكان ثمة مدعاة لتأكيد زيادة طغيانهم.

و قوله تعالى: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً (الإسراء ۸۲)، فهذا القرآن الذى هو شفاء و رحمة، مجال لشك النفس فى أنه خسار للظالمين، فكان المجال مجال تأكيد ذلك بما و إلا.

فإذا جاء أمر من الأمور المسلم بها بالنفى و الإثبات، فذلك لتقدير أمر صار به فى حكم المشكوك فيه، كقوله سبحانه: وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (۲۳) (فاطر ۲۲، ۲۳)، فالمجيء هنا بالنفى و الإثبات لأن النبى قد خوطب خطاب من يظن أنه يستطيع أن يحول قلوب المشركين عما هى عليه من الإباء و العناد، و لا يعلم علم اليقين أن ليس فى وسعه شيء أكثر من التحذير و الإنذار، فجرى الأسلوب كما يجرى فى خطاب الشاك، فقيل: «إن أنت إلا نذير».

و كقوله تعالى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف ۱۸۸)، فهو يخاطب قوما يرون فى الرسول مخلوقا قد يملك لنفسه الضر و النفع، و يعلم الغيب، فكان من المناسب، و تلك حالهم، أن يأتى من أدوات القصر بالنفى و الاستثناء، يزيل بها بذور الشك من نفوس سامعيه.

و كقوله تعالى: قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۰) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (إبراهيم ۱۰، ۱۱).

فإن هؤلاء المشركين «جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۳

عن أن يكونوا بشرا مثلهم، و ادعوا أمرا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر، و لما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب و يدعى خلافه، ثم جاء الجواب من الرسل الذى هو قوله تعالى: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ (إبراهيم ۱۱). كذلك بإن و إلا دون إنما، لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر هو لا يخالف فيه، أن يعيد كلام الخصم على وجهه، و يجيء به على هيئته، و يحكيه كما هو» «۱».

و يجيء النفى و الاستثناء أيضا لبيان تأكيد الأمر فى نفس قائله، كما فى قوله سبحانه: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (الإسراء ۵۲). فهذا تعبير صادق لشعور المبعوثين يوم القيامة، بأنه ما انقضى عليهم منذ وفاتهم سوى أمد يسير.

كما يجيء للإجابة عن سؤال محقق أو مقدر لتأكيد لهذا الجواب، كما فى قوله سبحانه: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ (المائدة ۱۱۶، ۱۱۷).

و استخدم إنما، و الأصل فيها أن تأتى فى الأمور التى يدعى أنها من الوضوح بمكان، قال تعالى: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۱) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۹۳) (التوبة ۹۱- ۹۳). أ لا ترى أنه من الوضوح بمكان مؤاخذة هؤلاء الأغنياء القادرين على المساهمة فى الجهاد، ثم يستأذنون راضين بأن يكونوا مع الخوالف. و اقرأ قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (الأنفال ۲). فواضح بين أن المؤمنين ليسوا سوى هؤلاء الذين تخاف قلوبهم إذا ذكروا اللّه، و يزدادون إيمانا إذا تليت عليهم آياته و يتوكلون على ربهم.

و لأنها تستخدم فى الأمور الواضحة جاء قوله تعالى حكاية عن اليهود: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (البقرة ۱۱). فقد ادعوا أن إصلاحهم أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، و لذا احتوى الرد عليهم فنونا من التوكيد، إذ قال

---

(۱) دلائل الإعجاز ص ۲۵۶.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۴

سبحانه: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (البقرة ۱۲). و كذلك حكى القرآن عنهم فى موضع آخر فقال: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (البقرة ۱۴)، فهم يدعون لشياطينهم أن استهزاءهم بالمؤمنين من الأمور التى لا مجال للريب فيها، و لا تكون مبعثا لسوء ظن شياطينهم فيهم.

و قد تجىء إنما فى موضع هو مجال للشك أو الإنكار كما فى قوله تعالى:

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (الشعراء ۱۵۳)، فهم يخاطبون الرسول الذى ينكر و لا ريب هذا الحكم، و لكنهم أتوا بتلك الصيغة، كأنهم يدعون وضوح أنه مسحور لا ينطق عن عقل واع مفكر.

قال عبد القاهر «۱»: «ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون و أعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، و لكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (الزمر ۹)، أن يعلم السامعون ظاهر معناه، و لكن أن يذم الكفار، و أن يقال إنهم من فرط العناد و من غلبة الهوى عليهم، فى حكم من ليس بذى عقل و إنكم إذا طمعتم منهم فى أن ينظروا و يتذكروا، كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب، و كذلك قوله: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (النازعات ۴۵)، و قوله عز اسمه: إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (فاطر ۱۸)، المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع، و قلب يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار».

و إنما فى مقام التعريض وسيلة مؤدبة مؤثرة معا فضلا عن إيجازها. أما إنها مؤدبة فلأنها تصل إلى الغرض من غير أن تذكر الطرف المقابل، و مؤثرة من ناحية أنك توحى بأن ترك التصريح بما يخالف ما أثبته هو من الوضوح بمكان، كما أن الاكتفاء بالمثبت يوحى أحيانا بأنه لا يليق أن يوازن بين ما أثبت و ما نفى.

و يغلب على إنما فى القرآن أن تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحا أو ضمنا «۲»، يكثر فى الصريح سبقها بمادة القول، كما فى قوله سبحانه: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الأعراف ۱۸۷). و من السؤال الضمنى قوله تعالى:

---

(۱) المرجع السابق ص ۲۷۲.

(۲) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى ص ۱۰۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۵

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (۵۹) إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰) (التوبة ۵۸- ۶۰).

و قل أن تستخدم أنما مفتوحة الهمزة وسيلة للقصر فى القرآن، كقوله تعالى:

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ (الأنبياء ۱۰۸). فالآية الكريمة تقصر الوحى على وحدانية اللّه، و القصر هنا إضافى لا حقيقى.

و يفيد التقديم الحصر فى مواضع كثيرة، كما سبق أن ذكرنا، و من أظهر ما يبدو فيه الحصر للتقديم مواضع الاستفهام، و خذ لذلك مثلا قوله تعالى:

أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ مَنْ كانَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (الزخرف ۴۰)، فمعنى الآية أ أنت بخاصة قد أوتيت قدرة إسماع الصم و هداية العمى، و قوله تعالى: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام ۱۴). و قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (۴۱) (الأنعام ۴۰، ۴۱). ففى الآية الأولى اتجه الإنكار إلى اتخاذ غير اللّه وليا، و فى الآية الثانية لا يسألون عن مطلق الدعاء، و لكن عن دعاء غير اللّه، بإفراده بالدعاء أو بإشراكه مع اللّه، فقد حصل بالتقديم معنى قولك أ يكون غير اللّه بمثابة أن يتخذ وليا؟! و معنى قولك أ يكون غير اللّه بمثابة أن يكون موضعا لدعائكم. و كذلك الحكم فى قوله تعالى: فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ (القمر ۲۴).

و من وسائل القصر فى القرآن الكريم ضمير الفصل «۱»، و قد سبق بيان ذلك فى باب التوكيد.

و تعريف طرفى الجملة وسيلة للقصر أيضا، و كثيرا ما يذكر بين الطرفين ضمير الفصل كما فى قوله تعالى: لا يَسْتَوِى أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (الحشر ۲۰)، و قوله تعالى: أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (البقرة ۵). و ضمير الفصل فى هذا و مثله يجعل ما بعده خالصا لأن يكون خبرا.

---

(۱) هو ضمير حر لا محل له من الإعراب يأتى بصيغة المرفوع مطابقا لما قبله- السباعى بيومى.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۶

الاستفهام

ورد الاستفهام فى القرآن الكريم على أصل معناه، و هو طلب الفهم و معرفة المجهول، كما فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (الأعراف ۱۸۷).

و قوله: قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (الشعراء ۲۳)، و قوله: إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ (المائدة ۱۱۲)، و قوله: قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها (البقرة ۶۹)، و قوله: قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ (البقرة ۶۸)، و ذلك الاستعمال كثير فى القرآن، و أكثر منه أن يخرج الاستفهام عن أصل وضعه، لمعان أخرى تفهم من سياق الكلام.

فمن ذلك الإنكار و معنى الاستفهام حينئذ معنى النفى، و ما بعده منفى، و لذلك تصحبه إلا، و يعطف عليه المنفى، و يكون معناه فى الماضى معنى لم يكن، و فى المستقبل معنى لا يكون، و من ذلك قوله تعالى: قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (الشعراء ۱۱۱)، و أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا (المؤمنون ۴۷)، و فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (الأحقاف ۳۵). و أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى (النجم ۲۲). و أَ

نُلْزِمُكَمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (هود ۲۸)، و أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً (الإسراء ۴۰). و فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (آل عمران ۲۲).

و لعل السر فی جمال أسلوب الاستفهام هنا، و العدول إليه عن أسلوب النفی، هو أن الاستفهام فی أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب فی موضعه، و لما كان المسئول يجيب بعد تفكير و رويۀ عن هذه الأسئلۀ بالنفی، كان فی توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفی، و هو أفضل من النفی ابتداء.

و منها التوبيخ على فعل وقع، و كان الأولى ألا يقع، أو على ترك فعل ما كان ينبغی ألا يقع، و من ذلك قوله تعالى: أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (الصافات ۱۲۵). و قوله تعالى: أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها (النساء ۹۷)، و الاستفهام هنا كذلك يثير فی النفس التفكير و يدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص، بأنه ما كان ينبغی أن يقع ما وقع، أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع.

من بلاغۀ القرآن، ص: ۱۲۷

و منها التقرير، و هو حملك المخاطب على أمر قد استقر عنده، و الاستفهام فی التقرير للنفی، فإذا دخل على النفی صار الكلام موجبا، و لذا يعطف عليه الموجب الصريح، و يعطف هو على الموجب الصريح، و منه قوله تعالى: أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (الفيل ۲، ۳). و العدول عن الإخبار إلى الاستفهام حمل للمخاطب على الاعتراف بعد التدبر و الأناۀ، و تأمل قوله سبحانه: أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى (الأعراف ۱۷۲).

و منها التعجب كما فی قوله تعالى: أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ، و قوله سبحانه: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ (البقرۀ ۴۴)، و العتاب كقوله تعالى:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ (التوبۀ ۴۳). و الاستبطاء فی قوله سبحانه: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرۀ ۲۱۴). و تنبيه المخاطب على الضلال حين تدفعه بالاستفهام إلى التفكير و تدبر العواقب، كما ترى ذلك فی قوله سبحانه: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) ... فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) (التكوير ۱، ۲ و ۲۶).

و تحس بالهول و الخوف يثيره الاستفهام فی قوله تعالى: الْحَاقَّةُ (۱) مَا الْحَاقَّةُ (۲) (الحاقۀ ۱، ۲). و قوله: الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) (القارعۀ ۱، ۲). و فهم التهويل من الاستفهام، لأنك به توحی إلى المخاطب بأن ما ذكر لا يليق أن يمر به المرء مر الكرام، بل من الواجب التريث و التمهل و فهم حقيقته و مدلوله. و بالتهديد و الوعيد فی قوله: أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (المرسلات ۱۶). و بالتشويق و الترغيب فی قوله سبحانه: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (الصف ۱۰). و بالتحضيض فی قوله: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ (التوبۀ ۱۳) و بالأمر فی قوله: إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (المائدۀ ۹۱)، و إيراد الأمر فی صورۀ الاستفهام فضلا عما فيه من تعبير مؤدب، لأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل و ألا يفعل- فيه إغراء بالعمل و حث عليه.

و تستفيد التمنی من الاستفهام فی قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (الأعراف ۵۳)، و لعل السر فی إيرادهم التمنی فی أسلوب الاستفهام، هو تصوير هذا الأمل الذی

من بلاغۀ القرآن، ص: ۱۲۸

يجول بنفوسهم مجسما فيها تجسما قويّا، حتى ليتلمسونه بين ظهرانيهم.

و تحس بالاستهزاء فی الاستفهام الوارد فی قوله سبحانه: قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي

أَمْوالِنا ما نَشؤُا (هود ۸۷).

و بالاستبعاد فى قوله: أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (الدخان ۲۳).

و قد يكون الاستفهام مثارا لتنبيه المخاطب على أمر يغفل عنه، و لا يوليه من عنايته ما هو به جدير، كما فى قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً (الفرقان ۴۵). و فى إيراد هذه المعانى بأسلوب الاستفهام تشويق، و إثارة للتفكير للاهتداء إلى معرفة وجه الصواب.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۲۹

الأمر و النهى

الأصل فى الأمر أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإيجاب، كقوله تعالى: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (البقرة ۱۴۴).

و لكنه يجىء لغير الإيجاب كثيرا، فيكون مثلا- للدعاء فى قوله تعالى: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (الفاتحة ۶). و للتهديد فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا- يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (فصلت ۴۰)، أ لا- ترى أن هذا الأمر يحمل معنى عدم الاكتراث بأعمالهم، لأن و بالها عائد عليهم لا محالة. و للتعجيز فى قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ (يونس ۳۸)، و فى هذا الأمر معنى التحدى، ليظهر عجزهم فى وضوح و جلاء.

و لما كان الأثيم و لا ريب فى أقصى حالات التنبه لما ينزل به من عذاب أليم، و لما يغلى فى بطنه كغلى الحميم، كان الأمر فى قوله سبحانه: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (الدخان ۴۹)، للإهانة. و يأتى الأمر لأغراض أخرى تدرك من سياق المقام.

و الأصل فى النهى أن يكون لطلب الكف على سبيل التحريم كما فى قوله سبحانه: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ (الأنعام ۱۵۱).

و يأتى لغير ذلك، كالدعاء فى قوله تعالى: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا (آل عمران ۸).

و يفهم من النّهى فى قوله تعالى: قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ (المؤمنون ۱۰۸). الإهانة و من قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحريم ۷)، اليأس من جدوى الاعتذار. و يأتى النهى فى القرآن لغير ذلك.

التمنى و الترجى

التمنى طلب حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده، و الحرف الموضوع له «ليت» كما فى قوله سبحانه: يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (مريم ۲۳)،

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۰

و قوله سبحانه: يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (القصص ۷۹)، و المتمنى فى الآية الأولى مستحيل الوقوع، و الثانى بعيده.

و قد يتمنى بهل كما أشرنا إلى سر ذلك فى فصل الاستفهام، و بلو: كما فى قوله تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا (البقرة ۱۶۷)، و سر المجىء بلو للتمنى، و هى تدل على الامتناع، إشعار السامع من أول الأمر بامتناع هذا المتمنى و استحالة وقوعه.

أما الترجى ففى أمر محبوب قريب الوقوع، و الحرف الموضوع له لعل، كقوله تعالى: وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (القصص ۲۲). و قد ترد لعل دالة على توقع أمر محذور، كما فى قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (الشورى ۱۷).

النداء

لم يستخدم القرآن من أدوات النداء سوى يا، و يكون النداء لطلب إقبال المدعو ليصغى إلى أمر ذى بال، و لذا غلب أن يلى النداء أمر أو نهى، كقوله تعالى: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) (المدثر ۱، ۲)، و قوله سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ (المائدة ۸۷). و قد يتقدم عليه الأمر، كما فى قوله سبحانه: وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ۵۹)، و قد يعقب النداء جملة خبرية تليها جملة الأمر، كقوله تعالى: قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ (يوسف ۷۸)، و قد لا تأتى جملة الأمر كما فى قوله: قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (النمل ۲۹).

و حينا يأتى الاستفهام بعد النداء، كقوله سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ (التوبة ۳۸). أو قبله كقوله: قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (الزمر ۶۴).

و كثيرا ما يحذف لفظ النداء فى القرآن كما فى قوله سبحانه: قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (الحجر ۵۷)، و قوله: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (۵۱) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) (الواقعة ۵۱، ۵۲).

و لا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادى مجردا من حرف النداء، و لعل فى ذلك تعبيرا عن شعور الداعى بقربه من ربه، كقوله تعالى:

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (۲۸۵) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۱

نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا (البقرة ۲۸۵- ۲۸۶). و قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى (البقرة ۲۶۰).

و على كثرة ما نودى الرب فى القرآن لم أعثر عليه مسبوقا بحرف النداء إلا فى تلك الآية الكريمة: وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹) (الزخرف ۸۸، ۸۹). و ألمح فى المجىء بحرف النداء هنا خاصة، تعبيرا عن حالة نفسية ألمت بالرسول، و قد أفرغ جهده فى دعوة قومه و إنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلا تماديا فى كفرهم فأطبق الهم على فؤاده، و كأنما شعر بتخلى الرب عن نصرته، و بعده عن أن يمد إليه يد المساعدة فأتى بحرف النداء، كأنما يريد أن يرفع صوته، زيادة فى الضراعة إلى اللّه و استجلاب رضاه.

و لم يناد لفظ الجلالة فى القرآن، و استغنى عنه حينئذ بكلمة اللهم، قال سبحانه: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ (آل عمران ۲۶)، و أحس فى كلمة اللَّهُمَ فخامة و روعة لا أحس بهما فى «يا للّه».

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۲

القسم

لجأ القرآن إلى القسم متبعا النهج العربى فى توكيد الأخبار به، لتستقر فى النّفس، و يتزعزع فيها ما يخالفها، و إذا كان القسم لا ينجح أحيانا فى حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيرا ما يوهن فى النفس الفكرة المخالفة، و يدفع إلى الشك فيها، و يبعث المرء على التفكير القوى فيما ورد القسم من أجله.

أقسم القرآن برب، و لكنه ذكره حينا مضافا إلى السماء و الأرض، فقال: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ (الذاريات ۲۳). لما فى هذه الإضافة من الإشارة إلى خضوع السماء و الأرض لأمره، و فى ذلك تعظيم لشأنه، و إيحاء بأن من كان هذا أمره لا يزج باسمه إلا فيما هو حق لا مرية فيه. و حينا مضافا إلى المشارق و المغارب، فقال: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ (المعارج ۴۰). لما توحى به هذه الإضافة من القدرة البالغة التى تسخر هذا الجرم الهائل و هو الشمس، فيشرق و يغرب فى دقة و إحكام. و حينا مضافا إلى الرسول، فقال: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ (مريم ۶۸).

و كأنه بذلك يوحى بأن أرباب المشركين ليست جديرة بأن يقسم بها، أو تكون محل الإجلال و التقدير.

و استخدم ما كان العرب يستخدمونه من الحلف بحياة المخاطب، فأقسم بحياة رسوله عند ما قال: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (الحجر ۷۲). و فى ذلك تشريف لحياة الرسول، و تعظيم لأمره فى أعين السامعين.

فإذا أقسم القرآن بمصنوعات اللّه كان فى ذلك تنبيه إلى ما فيها من روعة، تدفع إلى التفكير فى خالقها، و تأمل جمال القسم فى قوله تعالى: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (۱) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (۲) وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (۴) وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (۵) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (۶) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (۹) وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (۱۰) (الشمس ۱- ۱۰). أو لا ترى هذا القسم مثيرا فى النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون، و منظم شئونه هذا التنظيم المحكم الدقيق، أو ليست هذه الشمس التى تبلغ أوج مجدها و جمالها عند الضحى، و هذا القمر يتلوها إذا غابت، و كأنه يقوم مقامها فى حراسة الكون و إبهاجه، و هذا

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۳

النهار يبرز هذا الكوكب الوهاج، ثم لا يلبث الليل أن يمحو سناه، و هذه السماء و قد أحكم خلقها، و اتسقت فى عين رائيها كالبناء المحكم الدقيق، و هذه الأرض و قد انبسطت فى سعة، و هذه النفس الإنسانية العجيبة الخلقة التى يتسرب إليها الهدى و الضلال فى دقة و خفاء، أ ليس فى ذلك كله ما يبعث النفس إلى التفكير العميق فى خالقها، و أن هذا الخالق لا يذكر هو و ما خلق محاطا بهذا الإجلال، إلا فى مقام الحق و الصدق.

و تأمل جلال القسم فى قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (۷۶) (الواقعة ۷۵، ۷۶)، و قوله سبحانه: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى (۱) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (۲) (النجم ۱، ۲)، و انظر كيف وجه النظر إلى ما فى حفظ النجوم فى مواقعها فلا تسقط و لا- تضطرب، من قدرة قديرة على هذه الصيانة و الضبط، و ما يبعثه هوىّ النجوم من رهبة فى النفس، و كلا الأمرين مثار إعجاب بخالقه، يبعث فى النفس الاطمئنان إلى خبر يكون هو موضع القسم فيه.

و أقسم القرآن فى مواضع أخرى بالليل و النهار و النجوم، لما أنها مظاهر للقدرة الباهرة. كما أقسم بالرياح تحمل السحب مليئة بالمياه، فتجرى بها فى رفق و يسر، ثم تدعها توزع مياهها هنا و هناك، إذ قال: وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً (۱) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (۲) فَالْجارِياتِ يُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (۴) إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (۵) (الذاريات ۱- ۵). و فى قدرة الريح على حمل السحب الموقرة بالماء، و جريها بها فى الفضاء، ثم فى نزول المطر ما يدل على قدرة الخالق الباهرة.

و هكذا فى كل ما أقسم به اللّه مظهر من مظاهر قدرته و عظمته. و حينا يثير العاطفة الوطنية، التى تدفع إلى تقديس الوطن و إعزازه، و تحمل النفس على قبول ما يقسم عليه به، تجد ذلك فى قوله تعالى: وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِينِينَ (۲) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (۴) (التين ۱- ۴). و فى قوله سبحانه: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ

(۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی کَبَدٍ (۴) (البلد ۱- ۴).

و یقسم القرآن غالبا علی صدق ما جاء به هذا الدین، الذی نزل القرآن لتثبیت أسسه و قواعده، فیقول: إِنَّ إِلهَکُمْ لَواحِدٌ (الصافات ۴). و إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (الذاریات ۵). و إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ (الواقعة ۷۷). و ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی (النجم ۲). و أحیانا یؤکد أحوال الإنسان فیقول: إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَکَنُودٌ (۶) وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ (۷) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ (۸) (العادیات ۶- ۸). إلی غیر ذلک من آیات تتحدث عن طبائع الإنسان، و أخلاقه، و صلته بهذا الدین.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۴

و قد تحدثنا فیما مضی عن حذف جواب القسم، و سر هذا الحذف، و نضیف إلی ما أسلفناه أن «أکثر ما یحذف الجواب إذا کان فی نفس القسم به دلالة علی المقسم علیه، فإن المقصود یحصل بذکره، فیکون حذف المقسم علیه أبلغ و أوجز، کقوله: ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ (ص ۱). فإن فی المقسم به من تعظیم القرآن و وصفه بأنه ذو الذکر .. ما یدل علی المقسم، و هو کونه حقا من عند اللّه غیر مفتری ..

و لهذا قال کثیرون: إن تقدیر الجواب، إن القرآن لحق. و هذا یطرد فی کل ما شابه ذلک، کقوله: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیدِ (ق ۱). و قوله: لا أُقْسِمُ بِیَوْمِ الْقِیامَةِ (القیامة ۱).

فإنه یتضمن إثبات المعاد» «۱»، و قد تحدثنا کذلک عن لا و موقعها فی القسم.

«و من لطائف القسم فی القرآن قوله تعالی: وَ الضُّحی (۱) وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی (۲) ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی (۳) (الضحی ۱- ۳). و تأمل مطابقة هذا القسم و هو نور الضحی الذی یوافی بعد ظلام اللیل- المقسم علیه، و هو نوره الوحی الذی وافاه بعد احتباسه عنه، حتی قال أعداؤه: ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة اللیل، علی ضوء الوحی و نوره، بعد ظلمة احتباسه و احتجابه» «۲».

الفصل و الوصل

عنی البلاغیون بالحدیث عن الواو، التی تذکر فتصل الجملة بأختها، أو تترک فتدع الجملتین منفصلتین، و غالوا فی تقدیر معرفة الموضع الذی تصلح فیه الواو، و الموضع الذی لا تصلح فیه، حتی قصر بعض العلماء البلاغة علی معرفة الفصل و الوصل، و قد قصروا حدیثهم فی ذلک الموضع علی الجمل التی لا محل لها من الإعراب، و هذا لأن الجمل التی لها موقع من الإعراب، و یکون موضع الواو فیها من الوضوح بمکان؛ لأنها تشرک الجملة الثانیة فی حکم الأولی، فتکون مثلها خبرا، أو صفة، أو حالا، أو مفعولا، أو غیر ذلک، و الأمر فیه سهل بیّن. أما الذی یشکل، فأن تعطف علی الجملة التی لا موضع لها من الإعراب جملة أخری، فهنا نقف لنری لم لم یستو الحال بین أن تعطف، و بین أن تدع العطف، و خصت الواو بالحدیث؛ لأن غیرها من حروف العطف تفید مع الإشراک معانی، کأن تدل الفاء علی الترتیب من غیر تراخ، و ثمّ علی الترتیب مع التراخی، و أو للتردد بین شیئین، فإذا عطفت جملة علی جملة بواحد منها، ظهرت فائدة هذا الحرف واضحة جلیة. أما الواو فإنها لما کانت لمطلق الجمع، لا تصل جملة

---

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۱۳۵.

(۲) المرجع السابق نفسه.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۵

بأخری، إلا إذا کان المعنی فی إحدی الجملتین متصلا بمعنی الجملة الأخری، و مرتبطا به، کما تری ذلک فی قوله سبحانه: إِنَّما یَسْتَأْذِنُکَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِی رَیْبِهِمْ یَتَرَدَّدُونَ (۴۵) وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لکِنْ کَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِیلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِینَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِیکُمْ ما زادُوکُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَکُمْ یَبْغُونَکُمُ الْفِتْنَةَ وَ

فِيكَمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۴۷) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (۴۸) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۴۹) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (۵۰) (التوبة ۴۵- ۵۰). فالواو فی هذه الآیات قد وصلت الجمل بعضها ببعض لمکان الصلة بینها و التناسب، فعدم إیمانهم باللّه و الیوم الآخر یناسبه ارتیاب قلوبهم ارتیابا ینغمسون فیه، و خذ الآیة الثانیة تر التناسب واضحا بین تقاعسهم عن الخروج، و عدم الإعداد له، و بین کره اللّه لانبعاثهم، و هکذا تجد الصلة جامعة بین الجملة و أختها جمعا یهیئ للواو مکانها بینهما.

و تأمّل جمال الوصل فی قوله تعالی: أَ فَلا یَنْظُرُونَ إِلَی الْإِبِلِ کَیْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَی السَّماءِ کَیْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَی الْجِبالِ کَیْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَی الْأَرْضِ کَیْفَ سُطِحَتْ (۲۰) (الغاشیة ۱۷- ۲۰). فالمطلوب فی الآیة التأمل فیما خلق اللّه، لیصلوا بهذا التأمل إلی الإیمان بالبعث الذی ینبنی علیه أساس الدین، و التناسب هنا بین الجمل واضح، فقد بدأ حدیثه بالإبل التی هی عنصر أساسی فی حیاة البدوی فی صحرائه، و انتقل من الإبل إلی ما یرونه أمامهم فی کل حین من سماء رفعت بلا عمد، و للسماء عند البدوی مکانة خاصة، یتجه إلیها ببصره، یستنزل منها الغیث و یهتدی بنجومها فی سراه باللیل، فإذا هبط ببصره قلیلا رأی هذه الجبال الشامخة، منصوبة تناطح السماء بقممها، و ترسو فی ثبات و اطمئنان علی أرض مهدت له، و سطحت أمامه، أو لا تری أن تنقل البصر بین هذه المخلوقات تنقّل هادئ طبیعی لا قفز فیه، و أن ارتباط بعضها ببعض فی طبیعة البدوی مهد للربط بینها، و عطف بعضها علی بعض.

و اتصلت الجمل فی قوله سبحانه: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْکَواکِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴) (الانفطار ۱- ۴). لما کانت تلک المظاهر من أمارات القیامة، و ما أقوی الصلة بین السماء تنشق، و الکواکب تنتثر، لا نظام یجمعها، و لا جاذبیة تحفظها فی مکانها، و ما أقوی الصلة أیضا بین تفجر البحار

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۶

فتطغی میاهها، و بعثرة القبور تخرج ما دفن فیها من الموتی، فکأنها تتفجر کذلک. و مثل هذا قوله تعالی: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ ما فِیها وَ تَخَلَّتْ (۴) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۵) (الانشقاق ۱- ۵).

و اقرأ قوله تعالی: وَ اذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النَّاسُ فَآواکُمْ وَ أَیَّدَکُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (الأنفال ۲۶). إن فی هذه النعم لرابطا یصل بعضها ببعض، و یسمح للواو أن تجمع بینها، فهؤلاء قوم کانوا قلیلین مستضعفین، یخشون أن یغیر علیهم مغیر، یسلبهم الحریّة، فلا جرم کانت نعمة الأمن، لها المکان الأول بین نعم اللّه علیهم، و لم یقف الأمر عند حدّ الأمن، بل زاد علیه أن أیدهم بنصره، و لم تنته نعمه عند حد الطمأنینة و الغلب، بل رزقهم خفض العیش، و طیبات الحیاة.

و تأمّل الواو الواصلة فی قوله تعالی: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّبِعُ کُلَّ شَیْطانٍ مَرِیدٍ (الحج ۳). فالمجادلة فی اللّه و اتباع الشیطان ینشئان من عدم الاحتکام إلی العقل. و قوله سبحانه: یا بُنَیَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ اصْبِرْ عَلی ما أَصابَکَ إِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِکَ إِنَّ أَنْکَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِیرِ (لقمان ۱۷- ۱۹). فإنه إذا کانت الصلاة تنهی عن الفحشاء و المنکر، فالمقیم لها جدیر أن یأخذ علی عاتقه الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و إن من یعرّض نفسه لذلک، جدیر أن یلم به بعض الأذی، فوصی من ینهض بهذا العبء أن یحتمل و یصبر، و إذا کان قد أمره بالصلاة، و هی خضوع للرّب، فجدیر به ألا یمتلئ بالتیه و لا الخیلاء، و أن یسیر علی الأرض فی تؤدة، و یتحدّث إن تحدث فی وداعة و هدوء، و من ذلک تری هذه الصلات القویة التی تربط بین هذه الجمل ربطا محکما. و خذ قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَی اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (فاطر ۱۵). لتری الرباط القوی بین فقر الناس و غنی اللّه.

و تأمل جمال الوصل فى قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (۱۳) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (۱۴) (الانفطار ۱۳، ۱۴). و قوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ (آل عمران ۵۴). و قوله:

يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ (النساء ۱۴۲). و قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ (يونس ۳۱)، و قوله: يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء ۱۴۲). و قوله:

كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا (الأعراف ۳۱).

و قد يحتاج الأمر إلى فضل تدبر لمعرفة الصلة التى تربط بين جملتين، تلك

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۷

الصلة التى تسمح بمجيء الواو بينهما، كما فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها (الحج ۱۸۹). ففى النظرة العاجلة يبدو كأنه لا ارتباط بين أحكام الأهلة و بين حكم إتيان البيوت من ظهورها، و لكن الربط نشأ من أن ناسا من العرب كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم بيتا و لا خيمة و لا خباء من باب، بل إن كان من أهل المدر نقب نقبا من ظاهر البيت ليدخل منه، و خرج من خلف الخيمة أو الخباء إن كان من أهل الوبر «۱». فلما تحدث القرآن عن الأهلة و أنها مواقيت للحج، ناسب ذلك أن يتحدث عن عادتهم هذه فى الحج، ذاكرا أنها ليس من البر فى شيء.

و تفصل الجملتان إذا كان بينهما امتزاج معنوى، كأن ترفع الجملة الثانية ما قد يتوهم فى الجملة الأولى من تجاوز أو سهو و نسيان، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (البقرة ۲). فتعريف جزءى الجملة الأولى، و المجيء باسم الإشارة للبعيد، مؤذن بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ أسمى درجات الكمال، و لما كان ذلك قد يوهم أن ثمة مبالغة فى هذا الوصف، نفى هذا الوهم، و أتبع ذلك بقوله: لا رَيْبَ فِيهِ أى فى بلوغه تلك الغاية من الكمال، تأكيدا لما فهم من الجملة الأولى، و أتبعه كذلك بقوله: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ تأكيدا ثانيا؛ لأن معنى بلوغ القرآن للكمال إنما هو كماله فى الهداية و الإرشاد.

و من هذا الباب قوله تعالى: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً (لقمان ۷). لم يقل: (و كأن لم يسمعها كأنّ فى أذنيه وقرا)؛ لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر، هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع، و لكن الثانى أبلغ و آكد فيما سيق له، فالمراد من التشبيهين جميعا بيان أنه ليس لتلاوة الآيات عليه من فائدة، و أن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل، و لا ريب فى أن تشبيهه بمن فى أذنيه وقر، أبلغ فى دلالته على هذا المعنى.

و على هذا النسق مما كانت الجملة الثانية فيه مؤكدة للجملة الأولى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۷) (البقرة ۶، ۷). فقوله: لا يُؤْمِنُونَ تأكيد لقوله: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ و قوله: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ ... تأكيد ثان أبلغ من الأول. و قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (۸) يُخادِعُونَ اللَّهَ (البقرة ۸، ۹). فليست المخادعة شيئا

---

(۱) الطراز ج ۲ ص ۴۹.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۸

سوى قولهم آمنا، من غير أن يكونوا مؤمنين و كذلك قوله سبحانه: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (البقرة ۱۴). و قوله تعالى: ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف ۳۱). و قوله سبحانه: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (يس ۶۹). و قوله: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى (۴) (النجم ۳، ۴).

و قد يكون الامتزاج المعنوى بين الجملتين منشؤه أن الجملة الثانية شارحة و موضحة للجملة الأولى، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (۸۱) قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (المؤمنون ۸۱، ۸۲)، فالقول الثانى ورد شارحا و مبيّنا

للقول الأول، و قوله تعالى: وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (۱۳۲) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (۱۳۳) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۳۴) (الشعراء ۱۳۲- ۱۳۴). فجاء الإمداد الثانى موضحا للأول. و قوله تعالى: قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (۲۰) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲۱) (يس ۲۰، ۲۱). فلما كان المراد حث المخاطبين على اتباع الرسل، جاء الاتباع الثانى موضحا ذلك، إذ معناه اتبعوا من لا تخسرون شيئا من دنياكم فى اتباعهم، و هم مهتدون، تنالون باتباعهم سلامة دينكم، و إذا أنت تأملت هذه الآيات وجدت الجملة الثانية فى الآية الأولى تقع من جملتها السابقة كما يقع بدل الكل من الكل، و وجدتها فى الآية الثانية واقعة موقع بدل البعض من الكل، و فى الآية الثالثة واقعة موقع بدل الاشتمال. و قد تقع موقع عطف البيان، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى (طه ۱۲۰). فجاء قوله: قالَ يا آدَمُ بدون الواو؛ لأنه يوضح الوسوسة و يبين عنها، و لو أنه جاء بالواو لأوهم المخالفة و التغاير.

و قد يكون منشأ هذا الامتزاج أن الجملة الثانية واقعة فى موضع جواب لسؤال صريح فى الجملة الأولى، أو يفهم منها، كما فى قوله تعالى: قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۳) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ (۲۵) قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷) قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) (الشعراء ۲۳- ۳۱). و منه قوله سبحانه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ (البقرة ۱۱، ۱۲). و قوله: وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (۱۴) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (البقرة ۱۴، ۱۵).

من بلاغة القرآن، ص: ۱۳۹

و تتجلى دقة القرآن كذلك فى وصل الجمل بباقى حروف العطف غير الواو، و تأمل قوله تعالى: قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (۷۷) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۸۰) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (الشعراء ۷۵- ۸۱). فهو قد عطف السقى على الإطعام بالواو إرادة للجمع بينهما بلا ترتيب، ثم عطف الإحياء على الإماتة بثم؛ لأنه إنما يكون بمهلة و تراخ، و ترى هذه الدقة فى قوله تعالى: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) (عبس ۱۷- ۲۲). فجاء قوله من نطفة خلقه بلا واو؛ لأنها مفسرة لقوله من أى شىء خلقه، «و عطف قوله: فقدره بالفاء، تنبيها على أن التقدير مرتب على الخلق و على عدم التراخى بينهما، و عطف السبيل بثم، لما بين الخلق و الهداية من التراخى و المهلة الكثيرة، ثم عطف الإماتة بثم، إشارة إلى التراخى بينهما بأزمنة طويلة، ثم عطف الإقبار بالفاء، إذ لا مهلة هناك، ثم عطف الإنشار بثم، لما يكون هناك من التراخى باللبث فى الأرض أزمنة متطاولة».

و قد يبدو فى بادئ الرأى أن الموضع لحرف غير ما ذكر، و لكن التأمل الدقيق يجعل الموضع للحرف المذكور، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (الكهف ۲۸). فقد يبدو بادئ الرأى أن الموضع للفاء هنا، فيقال: و لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه؛ لأن فعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء، تقول أعطيته فأخذ، و كسرته فانكسر، و لكن التأمل يدل على أن الآية تعدد صفات الشخص الذى نهى الرسول عن طاعته، و من أغفل اللّه قلبه عن ذكره فقد غفل قلبه، فكأنه قال: و لا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا، و اتبع هواه، و من هنا كانت الواو فى مكانها.

و يجمع القرآن بالواو أيضا بين المفردات المتناسبة، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (الأنعام ۱۶۲). و قوله:

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى

اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (الأعراف ۳۳).

و جرى الاستعمال القرآنى على ألا يعطف بعض الصفات على بعض إلا إذا كان بينها تضاد، تجد ذلك فى قوله تعالى: عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً (التحريم ۵). فقد مضت الصفات بعضها بجوار بعض من غير عاطف، إلا بين ثيبات و أبكار،

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۰

للتنويع و رفع التناقض، و فى قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۲۳) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (۲۴) (الحشر ۲۳، ۲۴). فلما تضادت الصفات عطفت كما فى قوله سبحانه: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ (الحديد ۳). و جاءت الواو فى قوله سبحانه: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۲) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۳) (غافر ۲، ۳). لأن الصفتين و هما غفران الذنوب و قبول التوبة تواردا على معنى واحد، هو التجاوز عن الذنب، فجاءت الواو بينهما مؤذنة بالتغاير، و مشيرة إليه، فاللّه يغفر الذنب حينا من تلقاء نفسه بفضله، و حينا يعفو عنه بسبب ندم التائب و اعتذاره، فدلت الواو على هذا المعنى، و أشارت إليه.

بدائع القرآن

ليس البديع فى يد الفنان حلية تقتسر، و لا زينة يستغنى الكلام عنها، و لا زخرفة يأتى دورها، بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه. و لا يجىء مكانه فى المرتبة الثالثة، بعد استيفاء علمى المعانى و البيان حقهما، فإن الإنتاج الأدبى يبرز إلى الوجود فى نظمه الخاص، و به الصور البيانية، و المحسنات البديعية، دفعة واحدة، فكأنما هذا المحسن البديعى جاء فى مكانه ليقوم بنصيبه من أداء المعنى أولا، أما ما فيه من جمال لفظى فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات يتطلبها المعنى، و يقتضى المجىء بها.

و ليس كل ما ذكره علماء البديع بألوان جمال تستحق أن تذكر بين المحسنات، و ذلك يتطلب معاودة النظر، فى دراسة هذه الألوان، لاستبقاء الجميل، و حذف ما لا غناء فيه.

و لست أريد الحديث الآن عن جناية البديع على الأدب العربى عند ما يراد لذاته، فيستغلق المعنى، و يضؤل. أما ما ورد فى القرآن مما نعده محسنات بديعية فقد وردت الألفاظ التى كان بها هذا المحسن البديعى فى مكانها، يتطلبها المعنى، و لا يغنى غيرها غناءها.

خذ ما ورد فى القرآن الكريم من الجناس التام، كقوله تعالى: يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (۴۳) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِى ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصارِ (۴۴) (النور ۴۳، ۴۴). تجد كلمة الْأَبْصارِ الأولى مستقرة فى مكانها فهى جمع بصر،

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۱

و يراد به نور العين الذى تميز بين الأشياء و كلمة الْأَبْصارِ الثانية جمع بصر بمعنى العين، و لكن كلمة الْأَبْصارِ هنا أدل على المعنى المراد من كلمة (العيون)، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الإبصار، و هى التى بها العظة و الاعتبار، فأنت ذا ترى أن أداء المعنى كاملا، تطلب إيراد هذه الكلمة، حتى إذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظى.

و اقرأ قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ (الروم ۵۵). فكلمة (الساعة) الأولى جىء بها دالة على يوم القيامة، و اختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا؛ للدلالة على معنى المفاجأة و السرعة، و كلمة ساعَةٍ الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين، فهم لا يحسون أنهم قضوا فى حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جدّا، حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا، و لا بفترة طويلة، يعبرون عنها بيوم مثلا، فكانت كلمة (ساعة) خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز.

و ما ورد فى القرآن من جناس ناقص، فسبيله سبيل الجناس التام، و انظر إلى قوله تعالى: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (الأنعام ۲۶).

أ لا ترى أن موقف الكفار من القرآن، أنهم يبعدون الناس عنه، كما يبعدون أنفسهم عنه، فعبر القرآن عن ذلك بكلمتين متقاربتين ليشعر قربهما بقرب معنييهما.

و يطول بى القول إذا أنا مضيت فى بيان كيف حلت كل كلمة فى جمل الجناس محلها، بحيث لا تغنى كلمة أخرى فى هذا الوضع غناءها، و حسبى أن أشير إلى تلك الآيات، التى ورد فيها ما كون بعض ألوان من الجناس، مثل قوله تعالى:

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) (الضحى ۹، ۱۰). و قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (۲۲) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (۲۳) (القيامة ۲۲، ۲۳). و قوله: وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (۲۹) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (۳۰) (القيامة ۲۹، ۳۰). و قوله سبحانه: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (۷۲) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳) (الصافات ۷۲، ۷۳).

فأنت ترى النهى عن القهر جاء إلى جانب اليتيم، بمعنى الغلبة عليه و الاستيلاء على ماله، و أما السائل فقد نهى عن نهره و إذلاله، فكلتا الكلمتين جاءت فى موضعها الدقيق، كما وردت كلمتا (ناظرة و ناضرة) أى مشرقة، و إشراقها من نظرها إلى ربها، و قد توازنت الكلمتان فى جملتيهما لما بينهما من صلة السبب بالمسبب. و اختيار كلمة الْمَساقُ فى الآية الثانية لتصور هذه الرحلة التى ينتقل فيها المرء من الدنيا إلى الآخرة، فكأنه سوق مسافر ينتهى به السفر إلى اللّه. و فى كلمة المنذرين ما يشير إلى الربط بينهم و بين المنذرين الذين أرسلوا إليهم.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۲

و قل مثل ذلك فى قوله تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (الهمزة ۱). فإن شدة التشابه بين الكلمتين توحى بالقرابة بينهما، مما يجعل إحداهما مؤكدة للأخرى فالهمزة المغتاب، و اللمزة العياب، فالصلة بينهما وثقى، كالصلة بين الفرح و المرح فى قوله تعالى: ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (غافر ۷۵).

و إيثار كلمة النبأ فى قوله سبحانه: وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (النمل ۲۲). لما فيها من معنى القوة؛ لأن هذه المادة تدل على الارتفاع و النتوء و البروز و الظهور، فناسب مجيئها هنا، و وصف النبأ تأكيدا لقوته باليقين.

و يعدون من أنواع البديع المشاكلة، و يعنون بها ذكر الشىء بغير لفظه، لوقوعه فى صحبته، و يمثلون لذلك بقوله تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها (الشورى ۴۰). قالوا:

فالجزاء عن السيئة فى الحقيقة غير سيئة، و الأصل و جزاء سيئة عقوبة مثلها.

و بقوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (آل عمران ۵۴). و الأصل أخذهم بمكرهم. و بقوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ (البقرة ۱۹۴). قالوا: و المراد فعاقبوه، فعدل عن هذا؛ لأجل المشاكلة اللفظية. و لكننى أرى القرآن أجل من أن يسمى الشىء بغير اسمه لمجرد وقوعه فى صحبته، بل أرى هذا التعبير يحمل معنى، و جىء به ليوحى إلى القارئ بما لا يستطيع أن يوحى به و لا أن يدل عليه ما قالوا إنه الأصل المعدول عنه، فتسمية جزاء السيئة سيئة؛ لأن العمل فى نفسه سوء، و هو يوحى بأن مقابلة الشر بالشر، و إن كانت مباحة، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها، و كأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل و أولى، و على هذا النسق تماما ورد قوله: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ (البقرة ۱۹۴). و أما مكر اللّه فأن يفعل بهم كما يفعل الماكر، يمدهم فى طغيانهم يعمهون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

و عدوا من ألوان البديع الاستثناء، و مثلوا له بقوله تعالى: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً (العنكبوت ۱۴). و فى هذا التعبير، فضلا عن إيجازه، إيحاء بطول المدة، و تهويل للأمر على السامعين، و فى ذلك تمهيد العذر لنوح فى الدعاء على قومه، و ذلك لأن أول ما يطرق السمع ذكر الألف، فتشعر بطول مدته، و تتصور جهاد نوح فى ذلك الزمن المديد، و لن يقلل الاستثناء من شأن هذا التصور، و لا يتحقق هذا الإحساس إذا بدأت بغير الألف.

و منها اللف و النشر بذكر شيئين أو أكثر، ثم ذكر ما يقابلها، و فيه جمع للمتناسبات من غير فاصل بينها. خذ قوله تعالى: وَ مِنْ رَحْمَتِهِ

جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۳

وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (القصص ۷۳). أ لا ترى بين الليل و النهار مناسبة تجمع بينهما، ثم يثير هذا تطلعا إلى معرفة السبب فى أنهما من رحمته، و فى ذلك عنصر التشويق، و فى تقديم السكون على ابتغاء الفضل تقديم الاستعداد للجهاد فى الحياة على الجهاد. و تأمل كذلك ما يثيره الإجمال من التشويق فى قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (آل عمران ۱۰۶، ۱۰۷)، و فى الإجمال الأول إعطاء صورة سريعة لهذا اليوم، ثم يعود بعدئذ إلى إكمال الصورة فى تفصيل و إيضاح، و ربما يكون قد بدأ عند ما فصل بذكر من اسودت وجوههم، ليكون الحديث منتهيا بذكر طريقة الخلاص من عذاب ذلك اليوم. و من اللف و النشر قوله تعالى: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (الإسراء ۲۹). و السر فى الجمع أولا ذكر النهى عنه جملة واحدة، ثم العود بعد ذلك لبيان سر هذا النهى.

و ما ورد فى القرآن من طباق بالجمع بين المتضادين، كانت الكلمة فيه مستقرة فى مكانها تمام الاستقرار، سواء كان التضاد لفظا أو معنى، حقيقة أو مجازا، إيجابا أو سلبا، كقوله تعالى: وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ (۱۹) وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ (۲۰) (فاطر ۱۹، ۲۰). فأنت تراه يعقد الموازنة بين هذين الضدين و لا مفر من الجمع بينهما فى الجملة لعقد هذه الموازنة التى تبين عدم استوائهما.

و كقوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا (۴۴) (النجم ۴۳، ۴۴)، و قوله سبحانه: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ (الكهف ۱۸).

و من الطباق السلبى قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (الزمر ۹). و قوله: فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ (المائدة ۴۴). و من الطباق المعنوى قوله تعالى: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) (يس ۱۵، ۱۶)، أى إنا لصادقون فإن الرسول يجب أن يكون صادقا.

و مما يرتبط بالطباق المقابلة بأن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثمّ بما يقابل ذلك على الترتيب، فمن الجمع بين الاثنين قوله تعالى: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً (التوبة ۸۲).

و بين الثلاثة قوله سبحانه: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ (الحديد ۲۳).

و بين الأربعة قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى (۶) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (۷) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى (۸) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى (۹) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (۱۰) (الليل ۵- ۱۰)، و هذه المقابلة بين المعانى تزيدها فى الفكر وضوحا، و فى النفس رسوخا.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۴

و من ذلك ترى أن ما ورد فى القرآن من طباق و مقابلة لم يجئ اعتسافا، و إنما جاء المعنى مصورا فى هذه الألفاظ، التى أدت المعنى خير أداء و أوفاه، و كان منها هذا الطباق و المقابلة.

و من ألوان البديع العكس بأن يقدم فى الكلام جزء، و يؤخر آخر، ثم يقدم المؤخر و يؤخر المقدم، و جمال العكس فى أنه يربط بين أمرين، و يعقد بينهما أوثق الصلات أو أشد ألوان النفور، تجد ذلك فى قوله سبحانه: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ (الحج ۶۱). و قوله تعالى: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ (يونس ۳۱). و قوله سبحانه: هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ (البقرة ۱۸۷). و قوله تعالى: لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَ (الممتحنة ۱۰). و قوله تعالى: ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ۵۲).

و من أجمل أنواعه ائتلاف المعنى مع المعنى بذكر الأمور المتناسبة بعضها إلى جانب بعض، كقوله سبحانه: قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ (يوسف ۸۶). و قد يخفى فى بعض الأحيان وجه الجمع بين المعنيين، كما فى قوله سبحانه: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا

تَعْرى (۱۱۸) وَ أَنَّکَ لاـ تَظْمَؤُا فِيهـا وَ لا تَضْـحى (۱۱۹) (طه ۱۱۸، ۱۱۹)، فقـد يبـدو أن الـوجه الجمع بين الجوع و الظمـأ، و العرى و الضحاء، و لكن التأمل الهادئ يدل على أن الجوع و العرى يسببان الشعور بالبرد فجمعا معا، و الظمأ و الضحاء يسببان الشعور بالحر، إذ الأول يبعث التهاب الجوف، و الثانی يلهب الجلد، فناسب ذلک الجمع بينهما.

هـذا و لست أرمى هنـا إلى حصـر مـا عثر عليه العلمـاء من ألوان البـديع فى القرآن، فقـد تكفل بـذلک غيرى، و أفرد ابن أبى الإصـبع لذلک كتابا عدّد فيه هذه الألوان و مثّل لها، و ذكر من ذلک أكثر من مائة نوع، و كل ما قصدت إليه هو بيان أن ما نشعر به من جمال لفظى حينا و معنوى حينا آخر، لم يأت إلا من أن اللفظـة القرآنيـة قـد اسـتدعاها المعنى، و لم يكن ثمـة لفظة أخرى تغنى غناءها، فلما استقرت فى مكانها زاد بها الكلام إشراقا، و المعنى وضوحا و جلاء.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۵

التشبيه فى القرآن

- ۱- أرى واجبـا علىّ قبـل الحـديث عن التشبيه فى القرآن الكريم، أن أتحـدث قليلاـ عن بعض نظرات للأقـدمين فى هـذا البـاب، لا أوافقهم عليها، و لا أرى لها قيمة فى التقدير الفنى السليم.

فمما اعتمد عليه القدماء فى عقد التشبيه العقل، يجعلونه رابطا بين أمرين أو مفرّقا بينهما، و أغفلوا فى كثير من الأحيان وقع الشىء على النفس، و شـعورها به سـرورا أو ألمـا، و ليس التشبيه فى واقع الأـمر سوى إدراک مـا بين أمرين من صـلة فى وقعهمـا على النفس، أما تبطن الأمور، و إدراک الصـلة التى يربطها العقل وحده فليس ذلک من التشبيه الفنى البليغ، و على الأساس الذى أقاموه اسـتجادوا قول ابن الرومى:

بذل الوعد للأخلاء سمحاو أبى بعد ذاک بذل العطاء فغدا كالخلاف، يورق للعين، و يأبى الإثمار كل الإباء

و جعلوا الجـامع بين الأمرين جمال المنظر و تفاهـة المخبر، و هو جامع عقلى، كما نرى، لا يقوم عليه تشبيه فنى صـحيح، ذلک أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار، لا ينطبع فى نفسه عند رؤيتها سوى جمالها و نضرة ورقها و حسن أزهارها، و لا يخطر ببـاله أن يكون لتلک الشـجرة الوارفـة الظلال ثمر يجنيه أو لا يكون، و لا يقلل من قيمتها لـدى رائيها، و لا يحط من جمالها و جلالها، ألا يكون لها بعد ذلک ثمر شـهى، فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذى المنظر الأنيق، و تعكس صورته منتقصة فى نفس رائيه، فإن الشـجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها، و بهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشـبّه و المشبه به، و لذلک لا يعد من التشبيه الفنى المقبول.

و قبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس الصلة بينهما، و إن لم تعقدها النفس، فاستجادوا مثل قول الشاعر يصف بنفسجا:

و لازورديّة تزهو بزرقتهابين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بهاأوائل النار فى أطراف كبريت

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۶

فليس ثمـة مـا يجمع بين البنفسـج و عود الكبريت، و قـد بـدأت النار تشـتعل فيه، سوى لون الزرقـة التى لا تكاد تبـدأ حتى تختفى فى حمرة اللهب، و فضـلا عن التفاوت بين اللونين، فهو فى البنفسـج شديـد الزرقة، و فى أوائل النار ضـعيفها، فضـلا عن هذا التفاوت نجد الوقع النفسـى للطرفين شديـد التباين، فزهرة البنفسج توحى إلى النفس بالهدوء و الاستسـلام و فقدان المقاومة، و ربما اتخذت لذلک رمزا للحب، بينمـا أوائـل النـار فى أطراف الكبريت تحمل إلى النفس معنى القوة و اليقظـة و المهاجمـة، و لا تكاد النفس تجـد بينهما رابطا. كما استجادوا كذلک قول ابن المعتز:

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجىنظير غرابا ذا قوادم جون قال صاحب الإيضاح: «شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان، ثم شرط قوادم ريشها بيضاء؛ لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها، من حيث يلى معظم الصبح و عموده، لمع نور، يتخيل منها فى العين كشكل قوادم بيض». و هكذا لم ير ابن المعتز من الدجى و ضوء الصباح سوى لونيها، أما هذا الجلال الذى يشعر به فى الدجى، و تلك الحياة التى يوحى بها ضوء الصبح، و التى عبّر القرآن عنها بقوله: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (التكوير ۱۸).- فمما لم يحس به شاعرنا، و لم يقدره نقادنا، و أين من جلال هذا الكون الكبير، ذرة تطير؟!

و قبلوا من التشبيه ما كان فيه المشبه به خياليّا، توجد أجزاؤه فى الخارج دون صورته المركبة، و لا أتردد فى وضع هذا التشبيه بعيدا عن دائرة الفن؛ لأنه لا يحقق الهدف الفنى للتشبيه، فكيف تلمح النفس صلة بين صورة ترى، و صورة يجمع العقل أجزاءها من هنا و هنا، و كيف يتخذ المتخيل مثالا لمحسوس مرئى، و قبل الأقدمون لذلك قول الشاعر:

و كأن محمرّ الشقيقإذا تصوّب أو تصعّد

أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد أ لا ترى أن هذه الأعلام من الياقوت المنشورة على رماح الزّبرجد، لم تزدك عمق شعور بمحمر الشقيق، بل لم ترسم لك صورته إذا كنت جاهله، فما قيمة التشبيه إذا و ما هدفه؟! و سوف أتحدث عن الآية الكريمة التى فيها هذا اللون من التشبيه لندرك سره و قيمته.

هذا، و لن نقدّر التشبيه بنفاسة عناصره، بل بقدرته على التصوير و التأثير، فليس تشبيه ابن المعتز للهلال حين يقول:

انظر إليه كزورق من فضةقد أثقلته حمولة من عنبر

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۷

و تلمس شبه له بهذا الزّورق الفضى المثقل بحمولة العنبر، مما يرفع من شأنه، أو ينهض بهذا التّشبيه الذى لم يزدنا شعورا بجمال الهلال، و لا أنسا برؤيته، و لم يزد على أن وضع لنا إلى جانب الهلال الجميل صورة شوهاء متخيلة، و أين الزورق الضخم من الهلال النحيل، و إن شئت فوازن بين هذه الصورة التى رسمها ابن المعتز للهلال، و تلك الصورة التى تعبر عن الإحساس البصرى و الشعور النفسى معا، حينما تحدّث القرآن عن هذا الهلال، فقال: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (يس ۳۹). فهذا العرجون القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين و كما تحسّ به النفس أكثر من تصوير الزورق الفضى له، كما سنرى.

- ۲- التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسى، و به يوضح الفنان شعوره نحو شىء ما، حتى يصبح واضحا وضوحا وجدانيّا، و حتى يحس السامع بما أحس المتكلم به، فهو ليس دلالة مجردة، و لكنه دلالة فنية، ذلك أنك تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه، و ليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل، فإذا قلت إنه كالحمار يحمل أسفارا، فقد وصفت لنا شعورك نحوه، و دللت على احتقارك له و سخريتك منه.

و الغرض من التشبيه هو الوضوح و التأثير، ذلك أن المتفنن يدرك ما بين الأشياء من صلات يمكن أن يستعين بها فى توضيح شعوره، فهو يلمح وضاءة و نورا فى شىء ما، فيضعه بجانب آخر يلقى عليه ضوءا منه، فهو مصباح يوضح هذا الإحساس الوجدانى، و يستطيع أن ينقله إلى السامع.

ليس من أغراض التشبيه إذا ما ذكره الأقدمون من «بيان أن وجود المشبه ممكن و ذلك فى كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه و يدعى امتناعه» «۱». و قد استشهدوا على هذا الغرض بقول المتنبى:

فإن تفق الأنام و أنت منهمفإن المسك بعض دم الغزال و ليس فى هذا البيت تشبيه فنّى مقبول، فليس الأثر الذى يحدثه المسك فى النفس سوى الارتياح لرائحته الذكية، و لا يمر بالخاطر أنه بعض دم الغزال، بل إن هذا الخاطر إذا مرّ بالنفس قلّل من قيمة المسك و من التّلذذ به، و هذه الصورة التى جاء بها المتنبى ليوضح إحساسه نحو سموّ فرد على الأنام، ليست قوية مضيئة، تلقى أشعتها

(۱) الإيضاح ج ۲ ص ۳۴.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۸

على شعوره، فتضيئه لنا، فإن تحول بعض دم الغزال إلى مسك ليس بظاهرة قريبة مألوفة، حتى تقرب إلى النفس ظاهرة تفوق الممدوح على الأنام، كما أن ظاهرة تحول الممدوح غير واضحة، و من ذلك كله يبدو أن الرابط هنا عقلى لا نفسى وجدانى.

و ليس من أغراضه ما ذكره الأقدمون أيضا من الاستطراف، فليس تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب- تشبيها فنيّا على هذا المقياس الذى وضعناه، فإن بحر المسك ذا الموج الذهبى، ليس بهذا المصباح الوهاج الذى ينير الصورة و يهبها نورا و وضوحا.

و لما كان هدف التشبيه الإيضاح و التأثير أرى الأقدمين قد أخطئوا حينما عدّوا البليغ من التشبيه ما كان بعيدا غريبا نادرا، و لذلك عدّوا قوله:

و كأنّ أجرام النجوم لوامعادرر نثرن على بساط أزرق أفضل من قول ذى الرمة:

كحلاء فى برج، صفراء فى نعج «۱»كأنها فضة قد مسها ذهب «لأن الأول مما يندر وجوده دون الثانى، فإن الناس أبدا يرون فى الصياغات فضة قد موهت بذهب و لا يكاد يتفق أن يوجد درر قد نثرن على بساط أزرق» «۲».

و ذلك قلب للأوضاع، و بعد عن مجال التشبيه الفنى الذى توضع فيه صورة قوية تبعث الحياة و القوة فى صورة أخرى بجوارها، و برغم أن التشبيهين السالفين حسّيان أرى التشبيه الثانى أقوى و أرفع، و لست أرمى إلى أن يكون التشبيه مبتذلا، فإن الابتذال لا يثير النفس، فيفقد التشبيه هدفه، و لكن أن يكون فى قرب التشبيه ما يجعل الصورة واضحة مؤثرة كما سنرى.

- ۳- ليس الحس وحده هو الذى يجمع بين المشبه و المشبه به فى القرآن، و لكنه الحس و النفس معا، بل إن للنفس النصيب الأكبر و الحظ الأوفى.

و القرآن حين يشبه محسوسا بمحسوس يرمى أحيانا إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس، تجد ذلك فى قوله سبحانه يصف سفينة نوح: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ (هود ۴۲). أ لا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة، و تصور فى الوقت نفسه، ما كان يحس به ركاب هذه السفينة و هم يشاهدون هذه الأمواج، من

---

(۱) البرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقا بالسواد، و النعج البياض الخالص.

(۲) الإيضاح ج ۲ ص ۶۰.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۴۹

رهبة و جلال معا، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال. و قوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ «۱» الْمَنْفُوشِ (القارعة ۵). فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال، و قد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها، و يحمل إلى نفسك معنى خفتها و لينها. و قوله تعالى: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (يس ۳۹). فهذا القمر بهجة السماء و ملك الليل، لا يزال يتنقل فى منازله حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، و هذا الضوء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، و يحيل وحشته أنسا- يصبح بعد هذا كله دقيقا نحيلا محدودبا لا تكاد العين تنتبه إليه، و كأنما هو فى السماء كوكب تائه، لا أهمية له، و لا عناية بأمره، أو لا ترى فى كلمة العرجون و وصفهما بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال فى آخر الشهر، و يحمل إلى نفسك ضآلة أمره معا. و قوله تعالى يصف نيران يوم القيامة: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (۳۲) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳) (المرسلات ۳۲، ۳۳)، فالقصر و هو الشجر الضخم، و الجمال الصفر توحى إلى النفس بالضخامة و الرهبة معا، و صور لنفسك شررا فى مثل هذا الحجم من الضخامة يطير.

و يرمى أحيانا إلى اشتراك الطرفين فى صفة محسوسة، و لكن للنفس كذلك نصيبها فى اختيار المشبه به الذى له تلك الصفة، و

حسبى أن أورد هنا آيات ثلاث تتبين فيها هـذا الذى أشـرنا إليه. فالقرآن قد شـبه نساء الجنة، فقال: فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) (الرحمن ۵۶- ۵۸). و قال: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (الصافات ۴۸). و قال: وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (۲۳) (الواقعة ۲۲، ۲۳).

فليس فى اليـاقوت و المرجان و اللؤلؤ المكنون لون فحسب، و إنما هو لون صاف حىّ فيه نقاء و هـدوء، و هى أحجار كريمـة تصان و يحرص عليها، و للنساء نصيبهن من الصيانة و الحرص، و هن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة و اشتد الارتباط، أما الصـلة التى تربطهن بالبيض المكنون، فضلا عن نقاء اللون، فهى هذا الرفق و الحذر الذى يجب أن يعامل به كلاهما، أو لا ترى فى هذا الكون أيضا صلة تجمع بينهما، و هكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط و الجامع، و لكن للنفس نصيب أى نصيب.

و حينا يجمع بين الطرفين المحسوسـين معنى من المعانى لا يـدرك بإحـدى الحواس، و قلّ ذلك فى القرآن الكريم الـذى يعتمـد فى التأثير أكثر اعتماد على حاسة البصر، و من القليل قوله سبحانه: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف ۱۷۹).

و صفة ضلال الأنعام من أبرز الصفات و أوضحها لدى النفس.

---

(۱) الصوف.

و كثر فى القرآن إيضاح الأمور المعنويـة بالصور المرئيـة المحسوسة، تلقى عليها أشـعة الضوء تغمرها فتصـبح شديدة الأثر، و ها هو ذا يمثل و هن ما اعتمد عليه المشـركون من عبادتهم غير اللّه و هنا لن يفيدهم فائدة ما، فهم يعبدون و يبذلون جهدا يظنونه مثمرا و هو لا يجـدى، فوجـد فى العنكبوت ذلك الحيوان الـذى يتعب نفسه فى البناء، و يبذل جهده فى التنظيم، و هو لا يبنى سوى أوهن البيوت و أضـعفها، فقرن تلـك الصورة المحسوسـة إلى الأمر المعنوى، فزادته وضوحا و تأثيرا قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ۴۱).

و ها هو ذا يريـد أن يحـدثنا عن أعمال الكفرة، و أنها لا غناء فيها، و لا ثمرة ترجى منها، فهى كعدمها فوجد فى الرماد الدقيق، لا تبقى عليه الريح العاصـفة، صورة تبين ذلك المعنى أتم بيان و أوفاه، فقال سـبحانه: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (إبراهيم ۱۸).

و ليس فى القرآن سوى هـذين اللونين من التشبيه: تشبيه المحسوس بـالمحسوس، و تشبيه المعقول بالمحسوس، أما قوله سـبحانه: إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (۶۵) (الصافات ۶۴، ۶۵). فالذى سمح بأن يكون المشبه به خياليّا، هو ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسـمت فى النفس صورة رءوس الشـياطين فى هيئـة بشـعة مرعبـة، و أخذت هذه الصورة يشـتد رسوخهـا بمرور الزمن، و يقوى فعلهـا فى النفس، حتى كأنها محسوسـة ترى بالعين و تلمس باليـد، فلما كانت هـذه الصورة من القوة إلى هـذا الحـد ساغ وضـعها فى موضع التصوير و الإيضاح، و لا نسـتطيع أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ فى النفس، و مما جرى على نسق هـذه الآيـة قوله تعـالى: فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ (النمل ۱۰). ففى الخيال صورة قويـة للجان، تمثله شديد الحركة لا يكاد يهدأ و لا يستقر.

و التشبيه فى القرآن تعود فائدته إلى المشـبه تصويرا له و توضـيحا، و لهذا كان المشـبه به دائما أقوى من المشبه و أشد وضوحا، و هنا نقف عنـد قوله تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (النور ۳۵). فقـد يبدو للنظرة العجلى أن المشبه و هو نور اللّه أقوى من مصباح هذه

المشكاة، و لكن نظرة

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۱

إلى الآية الكريمة ترى أن النور المراد هنا هو النور الذى يغمر القلب، و يشرق على الضمير، فيهدى إلى سواء السبيل، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح، يلقى عليه ضوءه، فيهتدى إلى الحق، و أقوم السبل، ثم أ لا- ترى فى اختيار هذا التشبيه إيحاء بحالة القلب و قد لفه ظلام الشك، فهو متردد قلق خائف، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه، فيجد الراحة و الأمن و الاستقرار، فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى، حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح فى المشكاة، وجد الأمن سبيله إلى قلبه، و استقرت الطمأنينة فى نفسه، و شعر بالسرور يغمر فؤاده.

و إذا تأملت الآية الكريمة رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح و تتأنق فى وصفه، بما يصور لك قوته و صفاءه، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدر و لمعانه، أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب، فصفا لذلك زيتها حتى ليكاد يضىء و لو لم تمسسه نار. أ لا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل، و مثله جدير أن يبدد ظلام الشك، و يمزق دجى الكفر و النفاق. و قد ظهر بما ذكرناه جمال هذا التشبيه و دقته و براعته.

- ۴- أول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه فى القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، و ذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة، و سر عمومه للناس جميعا، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره، و يرونها قريبة منهم، و بين أيديهم، فلا تجد فى القرآن تشبيها مصنوعا يدرك جماله فرد دون آخر، و يتأثر به إنسان دون إنسان، فليس فيه هذه التشبيهات المحلية الضيقة مثل تشبيه ابن المعتز:

كأن آذريونهاو الشمس فيه كالية

مداهن من ذهب‌فيها بقايا غالية مما لا يستطيع أن يفهمه على وجهه، و يعرف سر حسنه، إلا من كان يعيش فى مثل حياة ابن المعتز، و له من أدوات الترف مثل أدواته.

تشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة، انظر إليه يجد فى السراب و هو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعا، فيغرهم مرآها، و يمضون إلى السراب يظنونه ماء، فيسعون إليه، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم، و لكنهم لا- يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد، فلا يجدون شيئا مما كانوا يؤمّلون، إنه يجد فى هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة، تظن مجدية

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۲

نافعة، و ما هى بشىء، فيقول: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً (النور ۳۹).

و يجد فى الحجارة تنبو على الجسو و لا تلين، و يشعر عندها المرء بالنبو و الجسوة، يجد فيها المثال الملموس لقسوة القلوب، و بعدها عن أن تلين لجلال الحق، و قوة منطق الصدق، فيقول: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً (البقرة ۷۴). أو لا ترى أن القسوة عند ما تخطر بالذهن، يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية.

و يجد فى هذا الذى يعالج سكرات الموت، فتدور عينه حول عواده فى نظرات شاردة تائهة، صورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الفزعين من المضى إلى القتال و أخذهم بنصيب من أعباء الجهاد، فيقول: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا- يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (الأحزاب ۱۸، ۱۹).

و يجد فى الزرع و قد نبت ضئيلا ضعيفا ثمّ لا يلبث ساقه أن يقوى، بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده، و يغلظ، حتى يصبح بهجة الزارع و موضع إعجابه، يجد فى ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد، فقد بدءوا قلة ضعافا ثمّ أخذوا فى

الكثرة و النماء، حتى اشتد ساعدهم، و قوى عضدهم، و صاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة، و قلب الكفار حقدا و غيظا فقال: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (الفتح ۲۹).

و يجد فى أعجاز النخل المنقعر المقتلع عن مغرسه، و فى الهشيم الضعيف الذاوى صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى، قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم عن أماكنهم، فألقوا على الأرض مصرّعين هنا و هناك، فيقول: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) (القمر ۱۹، ۲۰). و يقول: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (القمر ۳۱).

فأنت فى هذا تراه يتخذ الطبيعة ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته، من نباتها و حيوانها و جمادها، فمما اتخذ مشبها به من نبات الأرض العرجون، و أعجاز النخل و العصف المأكول، و الشجرة الطيبة، و الشجرة الخبيثة، و الحبة تنبت سبع سنابل، و هشيم المحتظر، و الزرع الذى أخرج شطأه. و مما اتخذ مشبها

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۳

به من حيوانها الإنسان فى أحوال مختلفة و العنكبوت و الحمار، و الكلب، و الفراش، و الجراد، و الجمال، و الأنعام، و مما اتخذ مشبها به من جمادها العهن المنفوش، و الصيب، و الجبال، و الحجارة، و الرماد، و الياقوت، و المرجان، و الخشب، و من ذلك ترى أن القرآن لا يعنى بنفاسة المشبه به، و إنما يعنى العناية كلها باقتراب الصورتين فى النفس، و شدة وضوحها و تأثيرها.

هذا و لا يعكر على ما ذكرناه من استمداد القرآن عناصر التشبيه من الطبيعة، ما جاء فيه من تشبيه نور اللّه بمصباح وصفه بأنه فى زجاجة كأنها كوكب درىّ؛ لأن هذا المصباح قد تغير و تحول، فإن المراد تشبيه نور اللّه بالمصباح القوى، و المصباح باق ما بقى الإنسان فى حاجة إلى نور يبدد به ظلام الليل.

و من خصائص التشبيه القرآنى، أنه ليس عنصرا إضافيّا فى الجملة، و لكنه جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه، و إذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه، فعمله فى الجملة أنه يعطى الفكرة فى صورة واضحة مؤثرة، فهو لا يمضى إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، و لكن التشبيه يأتى ضرورة فى الجملة، يتطلبه المعنى ليصبح واضحا قويّا، و تأمل قوله تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (البقرة ۱۸). تجد فكرة عدم سماعهم الحق و أنهم لا ينطقون به، و لا ينظرون إلى الأدلة التى تهدى إليه، إنما نقلها إليك التشبيه فى صورة قوية مؤثرة، كما تدرك شدة الفزع و الرهبة التى ألمت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفعهم إيمانهم إليه فى رضاء و تسليم، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم، و تدرك ذلك من قوله سبحانه: يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (الأنفال ۶). و تفهم اضطراب المرأة و قلقها، و عدم استقرارها على حال، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب و العناء- من قوله سبحانه: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ (النساء ۱۲۹).

و تفهم مدى حب المشركين لآلهتهم من قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (البقرة ۱۶۵). و هكذا تجد للتشبيه مكانه فى نقل الفكرة و تصويرها، و قل أن يأتى التشبيه فى القرآن بعد أن تتضح الفكرة نوع وضوح كما فى قوله تعالى: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ (الأعراف ۱۷۱). و إذا أنت تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: و إذ صار الجبل كأنه ظلة، لما فى كلمة «نتق» من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويرا يوحى إلى النفس بالرهبة و الفزع، و لما فى كلمة «فوقهم» من زيادة هذا التصوير المفزع و تأكيده

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۴

فى النفس، و ذلك كله يمهد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكن للصورة فى النفس، و وطد من أركانها. و مع ذلك ليس التشبيه فى الآية عملا إضافيا، بل فيه إتمام المعنى و إكماله، فهو يوحى بالإحاطة بهم، و شمولهم، و القرب منهم قرب الظلة من المستظل بها، و فى ذلك ما يوحى بخوف سقوطه عليهم.

و من خصائص التشبيه القرآنى دقته، فهو يصف و يقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة، و خذ مثلا لذلك قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعة ۵).

فقد يتراءى أنه يكفى فى التشبيه أن يقال: مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل، و لكن الصورة تزداد قوة و التصاقا و التحاما، حين يقرن بين هؤلاء و قد حملوا التوراة، فلم ينتفعوا بما فيها، و بين الحمار يحمل أسفار العلم و لا يدرى مما ضمته شيئا، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية وثيقة.

و قوله تعالى: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (۴۹) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (۵۱) (المدثر ۴۹- ۵۱). فربما بدا أنه يكفى فى تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير، و لكنه فى دقته لا يكتفى بذلك، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، و إسراعهم فى إبعاد أنفسهم عنها، إسراعا يمضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، و تحثها عليه، يزيد فى هربها و فرارها أسد هصور يجرى خلفها، فهى تتفرق فى كل مكان، و تجرى غير مهتدية فى جريها، أو لا ترى فى صورة هذه الحمر و هى تجد فى هربها لا تلوى على شىء، تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شىء، سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم و السخرية.

و من ذلك وصفه الخشب بأنها مُسَنَّدَةٌ فى قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (المنافقون ۴). فهى ليست خشبا قائمة فى أشجارها لما قد يكون لها من جمال فى ذلك الوضع، و ليست موضوعة فى جدار؛ لأنها حينئذ تؤدى عملا، و تشعر بمدى فائدتها، و ليست متخذا منها أبواب و نوافذ، لما فيها من الحسن و الزخرف و الجمال، و لكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال، و توحى بالغفلة و الاستسلام و البلاهة.

و لم يكتف فى تشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن، بل وصفها بالمنفوش، إذ قال: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعة ۵). للدقة فى تصوير هشاشة الجبال،

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۵

كما لم يكتف فى تشبيه الناس يخرجون يوم القيامة بأنهم كالجراد بل وصفه بالمنتشر، فقال: يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (القمر ۷). حتى يكون دقيقا فى تصوير هذه الجموع الحاشدة، خارجة من أجداثها منتشرة فى كل مكان تملأ الأفق، و لا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف.

و من خصائص التشبيه القرآنى المقدرة الفائقة فى اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية، تجد ذلك فى تشبيه قرآنى، و حسبى أن أشير هنا إلى بعض أمثلة لهذا الاختيار.

نجد القرآن قد شبه بالجبال فى موضعين، فقال: وَ هِيَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبالِ (هود ۴۲). و قال: وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (الشورى ۳۲). و لكنك تراه قد آثر كلمة الجبال عند الموج، لما أنها توحى بالضخامة و الجلال معا، أما عند وصف السفن فقد آثر كلمة الأعلام، جمع علم بمعنى جبل، و سر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى هذه المعانى عند ذكر هذه الكلمة، و لما كان من معانى العلم الراية التى تستخدم للزينة و التجميل، كان ذكر الأعلام محضرا إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، و كان إثارة هذا الخاطر ملحوظا عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى

جلالها و جمالها معا، و فى كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء.

و شبه القرآن الموج فى موضعين، فقال: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ (هود ۴۲). و قال: وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (لقمان ۳۲). و سر هذا التنويع أن الهدف فى الآية الأولى يرمى إلى تصوير الموج عاليا ضخما، مما تستطيع كلمة الجبال أن توحى به إلى النفس، أما الآية الثانية فتصف قوما يذكرون اللّه عند الشدة، و ينسونه لدى الرخاء، و يصف موقفا من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج، أ لا ترى أن الموج يكون أشد إرهابا و أقوى تخويفا إذا هو ارتفع حتى ظلل الرءوس، هنالك يملأ الخوف القلوب، و تذهل الرهبة النفوس، و تبلغ القلوب الحناجر، و فى تلك اللحظة يدعون اللّه مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة و خوف، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق فى تصوير هذا المقام و أصدق.

و على طريقة إيثار كلمة الأعلام على الجبال التى تحدثنا عنها، آثر كلمة القصر على الشجر الضخم؛ لأن الاشتراك فى هذه الكلمة بين هذا المعنى، و معنى البيت الضخم يثير المعنيين فى النفس معا فتزيد الفكرة عن ضخامة الشرر رسوخا فى النفس.

و آثر القرآن كلمة بُنْيانٌ فى قوله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۶

صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (الصف ۴). لما تثيره فى النفس من معنى الالتحام و الاتصال و الاجتماع القوى، و غير ذلك من معان ترتبط بما ذكرناه، مما لا يثار فى النفس عند كلمة حائط أو جدار مثلا.

و اختار القرآن كلمة «لباس»، فى قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ (البقرة ۱۸۷). لما توحى به تلك الكلمة من شدة الاحتياج، كاحتياج المرء للباس، يكون مصدر راحة، و عنوان زينة معا.

و من مميزات التشبيه القرآنى أيضا أن المشبه قد يكون واحدا و يشبه بأمرين أو أكثر، لمحا لصلة تربط بين هذا الأمر و ما يشبهه، تثبيتا للفكرة فى النفس.

أو لمحا لها من عدة زوايا، و من ذلك مثلا تصوير حيرة المنافقين و اضطراب أمرهم، فإن هذه الحيرة يشتد تصورها لدى النفس، إذا هى استحضرت صورة هذا السارى قد أوقد نارا تضىء طريقه، فعرف أين يمشى ثمّ لم يلبث أن ذهب الضوء، و شمل المكان ظلام دامس، لا يدرى السائر فيه أين يضع قدمه، و لا كيف يأخذ سبيله، فهو يتخبط و لا يمشى خطوة حتى يرتد خطوات. أو إذا استحضرت صورة هذا السائر تحت صيّب من المطر قد صحبه ظلمات و رعد و برق، أما الرعد فمتناه فى الشدة إلى درجة أنه يود اتقاءه بوضع أصابعه إذا استطاع فى أذنه، و أما البرق فيكاد يخطف البصر، و أما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر و بين الاهتداء إلى سواء السبيل. و تجد تعدّد هذا التشبيه فى قوله سبحانه: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً ... أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ .... (البقرة ۱۷- ۱۹).

و من النظر إلى الفكرة من عدّة زوايا، أنه حينا ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها و لا نتيجة، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ؛ لأنها فى يوم عاصف، أ لا ترى هذه الريح كفيلة بتبديد ذرّات هذا الغبار شذر مذر، و أنها لا تبقى عليه و لا تذر، و كذلك أعمال الكافرين، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر، حتى تبددها و لا تبقى عليها، و للتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (إبراهيم ۱۸).

و حينا ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها فيظنونها نافعة لهم، مجدية عليهم، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئا، أ لا ترى فى السراب هذا الأمل المطمع، ذا النهاية المؤيسة، و لأداء هذا المعنى قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً (النور ۳۹).

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۷

و حينا ينظر إليها من ناحية ما يلم بصاحبها من اضطراب و فزع، عند ما يجد آماله فى أعماله قد انهارت، ألا تظلم الدنيا أمام عينيه و

يتزلزل كيانه كهذا الذى اكتنفه الظلام فى بحر قد تلاطمت أمواجه، و أطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج، ألا يشعر هذا الرجل بمصيره اليائس، و هلاكه المحتوم، ألا يصور لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عند ما يجيئون إلى أعمالهم، فلا يجدون لها ثوابا و لا نفعا، و لتصوير ذلك جاء قوله سبحانه: أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (النور ۴۰).

- ۵- و يهدف التشبيه فى القرآن إلى ما يهدف إليه كلّ فنّ بلاغىّ فيه، من التأثير فى العاطفة، فترغب أو ترهب، و من أجل هذا كان للمنافقين و الكافرين و المشركين نصيب وافر من التشبيه الذى يزيد نفسيتهم وضوحا، و يصور وقع الدعوة على قلوبهم، و ما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور و الإعراض.

يصور لنا حالهم و قد استمعوا إلى دعوة الداعى، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة فى التفكير فيها، لمعرفة ما قد تنطوى عليه من صدق، و ما قد يكون فيها من صواب، بل يحول بينهم و بين ذلك الكبر و الأنفة، و ما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئا، و لم يطرق أذنه عنها نبأ، بل ما أشبههم بمن فى أذنه صمم، فهو لا يسمع شيئا مما يدور حوله، و بمن أصيب بالبكم، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه، و بمن أصيب بالعمى، فهو لا يرى الحق الواضح، و بذلك شبههم القرآن، فقال: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۸) (الجاثية ۷، ۸)، و قال: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (البقرة ۱۷۱).

أما ما يشعرون به عند ما يسمعون دعوة الحق فضيق يملأ صدورهم، و يئودهم حمله، كهذا الضيق الذى يشعر به المصعد فى جبل، فهو يجر نفسه و يلهث من التعب و العناء، و هكذا صور اللّه ضيق صدورهم بقوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ۱۲۵).

و ما دام هؤلاء القوم لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له، و لم تصغ آذانهم

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۸

إصغاء من يسمع ليتدبر، فقد وجد القرآن فى الأنعام شبيها لهم يقرنهم بها، و يعقد بينهم و بينها وثيق الصلات، فقال: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (الأعراف ۱۷۹). و أنت ترى فى هذا التشبيه كيف مهد له التمهيد الصالح، فجعل لهم قلوبا لا يفقهون بها، و أعينا لا يبصرون بها، و آذانا لا يسمعون بها، أ لا ترى نفسك بعدئذ مسوقا إلى إنزالهم منزلة البهائم، فإذا ورد هذا التشبيه عليك، وجد فى قلبك مكانا، و لم تجد فيه بعدا و لا غرابة، بل ينزل بهم حينا عن درجة الأنعام، فيراهم خشبا مسندة.

و حينا يريد أن يصورهم، و قد جدوا فى الهرب و النفرة من تلك الدعوة الجديدة، فيقول: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (۴۹) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (۵۱) (المدثر ۴۹- ۵۱). و قد تحدثنا عن هذا التشبيه فيما مضى.

أما هذا الذى آمن ثمّ كفر، و انسلخ عن الإيمان و اتبع هواه، فقد عاش مثال الذلة و الهوان، و قد وجد القرآن فى الكلب شبها يبين عن خسته و حقارته، و مما يزيد فى الصلة بين الاثنين أن هذا المنسلخ يظل غير مطمئن القلب، مزعزع العقيدة، مضطرب الفؤاد، سواء أ دعوته إلى الإيمان، أم أهملت أمره، كالكلب يظل لاهثا، طردته و زجرته، أم تركته و أهملته، قال: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۱۷۶) (الأعراف ۱۷۵، ۱۷۶).

و لم ينس القرآن تصوير حيرتهم، و اضطراب نفسيتهم، و لمح فى اضطرابهم صلة بينهم و بين من استوقد نارا، ثم ذهب اللّه بنوره و بين السائر تحت صيّب منهمر، فيه ظلمات و رعد و برق.

و صوّر و هن ما يعتمد عليه من يتخذ من دون اللّه أولياء بوهن بيت العنكبوت، و حين أراد أن يتحدث عن أن هؤلاء الأولياء لن

يستفيد منهم عابدوهم بشيء، رأى في هذا الذي يبسط كفه إلى الماء، يريد و هو على تلك الحال أن ينقل الماء إلى فيه، و ما هو ببالغه، شبيها لهم فقال: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (الرعد ۱۴).

و تعرض لأعمال الكفرة كما سبق أن ذكرنا، و لصدقاتهم التي كان جديرا بها

من بلاغة القرآن، ص: ۱۵۹

أن تثمر و تزهر، و يفيدوا منها لو لا أن هبت عليها ريح الشرك فأبادتها، كما تهب الريح الشديدة البرد بزرع كان ينتظر إثماره فأهلكته: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (آل عمران ۱۱۷).

و هناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة، لجأ إليها القرآن للتصوير و التأثير معا، فإذا أراد القرآن أن يبين قدرة اللّه على أن يأتي بذلك اليوم، بأسرع مما يتصور المتصورون لجأ إلى أسرع ما يراه الرائي، فاتخذه مثلا يؤدي إلى الهدف المراد، فيقول: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل ۷۷).

و يقرب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بدء الإنسان، و أن هذا البعث صورة من هذا البدء، فيقول: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (الأعراف ۲۹). و بتوجيه النظر إلى هذا السحاب الثّقال يسوقه اللّه لبلد ميت، حتى إذا نزل ماؤه دبت الحياة في أوصال الأرض، فخرج الثمر منها يانعا، و هكذا يخلق اللّه الحياة في الموتى، قال سبحانه:

وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (الأعراف ۵۷).

و إذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس لا يشعرون بأنه قد مضى عليهم حين من الدهر طويل منذ فارقوا حياتهم، و يورد القرآن من التشبيه ما يصور هذه الحالة النفسية، فيقول: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (يونس ۴۵). و إذا نظرت إلى قوة التشبيه مقترنة بقوله: يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ أدركت مدى ما يستطيع أن يحدثه في النفس من أثر. و قد كرر هذا المعنى في موضع آخر يريد أن يثبته في النفس و يؤكده فقال: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (۴۲) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (۴۳) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (۴۴) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (۴۵) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (۴۶) (النازعات ۴۲- ۴۶).

ها هم أولاء قد بعثوا، خارجين من أجداثهم في كثرة لا تدرك العين مداها، و ما ذا يستطيع أن يرسم لك تلك الصورة، تدل على الغزارة و الحركة و الانبعاث، أفضل من هذا التشبيه الذي أورده القرآن حين قال: خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (۸) (القمر ۷، ۸).

و حينا يصوّرهم ضعافا يتهافتون مسرعين إلى الداعي كي يحاسبهم، فيجد في الفراش صورتهم، فيقول: الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (۳) يَوْمَ يَكُونُ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۰

النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (۴) (القارعة ۱- ۴). و لا أخال أحدا لم ير الفراش يسرع إلى الضوء، و يتهافت عليه في ضعف و إلحاف معا، و لقد تناول القرآن إسراعهم مرة أخرى، فشبههم بهؤلاء الذين كانوا يسرعون في خطوهم، ليعبدوا أنصابا مقامة، و تماثيل منحوتة، كانوا متحمسين في عبادتها، يقبلون عليها في رغبة و اشتياق، فيقول: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (المعارج ۴۳).

و يتناول المجرمين، فيصوّر ما سوف يجدونه يومئذ من ذلة و خزي، و يرسم وجوههم، و قد علتها الكآبة: كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً

مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (يونس ۲۷). أما طعامهم فمن شجرة الزقوم، يتناولونها فيحسون بنيران تحرق أمعاءهم فكأنما طعموا نحاسا ذائبا أو زيتا ملتهبا، و إذا ما اشتد بهم الظمأ و استغاثوا قدمت إليهم مياه كهذا النحاس و الزيت تشوى وجوههم، قال تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (۴۳) طَعامُ الْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (۴۶) (الدخان ۴۳- ۴۶). و قال سبحانه: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ (الكهف ۲۹). أ لا ترى التشبيه يثير فى النفس خوفا و انزعاجا.

و يصور آكل الربا يوم القيامة صورة منفرة منه، مزرية به، فهل رأيت ذلك الذى أصابه مس من الشيطان، فهو لا ينهض واقفا حتى يسقط، و لا يقوم إلّا ليقع، ذلك مثل آكل الربا: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا (البقرة ۲۷۵).

و لعب التشبيه دورا فى تصوير يوم القيامة، و ما فيه من الجنة و النار، ففى ذلك الحين، تفقد الجبال تماسكها، و تكون كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعة ۵). و تفقد السماء نظام جاذبيتها، فتنشق، و يصبح الجوّ ذا لون أحمر كالورد: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (الرحمن ۳۷). و أما جهنم فضخامتها و قوة لهبها مما لا يستطيع العقل تصوره، و مما لا يمكن أن تقاس إليها تلك النيران التى نشاهدها فى حياتنا، و حسبك أن تعلم أن شررها ليس كهذا الشرر الذى يشبه الهباءة اليسيرة، و إنما هو شرر ضخم ضخامة غير معهودة، و هنا يسعف التشبيه، فيمد الخيال بالصورة، حين يجعل لك هذا الشرر كأنه أشجار ضخمة تتهاوى، أو جمال صفر تتساقط: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (۳۲) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳) (المرسلات ۳۲، ۳۳). و أما الجنة ففى سعة لا يدرك العقل مداها، و لا يستطيع التعبير أن يحدها، أو يعرف منتهاها، و يأتى التشبيه ممدا فى الخيال، كى يسبح ما يشاء أن يسبح، فيقول: وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ (الحديد ۲۱).

و هكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضرا، و تقريب البعيد النائى حتى يصير قريبا دانيا.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۱

و لجأ القرآن إلى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهرا أمامنا، عامرا بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره و خلوده، فيجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجا نضرا، يعجب رائيه، و لكنه لا يلبث أن يذبل و يصفر، و يصبح هشيما تذروه الرياح- يجد القرآن فى ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا، و لقد أوجز القرآن مرة فى هذا التشبيه و أطنب، ليستقر معناه فى النفس، و يحدث أثره فى القلب، فقال مرة: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (الكهف ۴۵). و قال مرة أخرى: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً (الحديد ۲۰). و قال مرة ثالثة: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس ۲۴).

و لما كان للمال أثره فى الحياة الاجتماعية، لعب التشبيه دوره فى التأثير فى النفس، كى تسمح ببذله فى سبيل تخفيف أعباء المجتمع، فقرر مضاعفة الثواب على ما يبذل فى هذه الناحية، فقال فى موضع: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة ۲۶۵). فلهذا التشبيه أثره فى دفع النفس إلى بذل المال راضية مغتبطة، كما يغتبط من له جنة قد استقرت على مرتفع من الأرض، ترتوى بما هى فى حاجة إليه من ماء المطر، و تترك ما زاد عن حاجتها، فلا يظل بها حتى يتلفها، كما يستقر فى المنخفضات، فجاءت الجنة بثمرها مضاعفا، و فى مرة أخرى رأى مضاعفة جزاء الحسنة كمضاعفة الثمرة، لهذا الذى يبذر حبة قمح، فتخرج عودا يحمل سبع سنابل، فى كل سنبلة مائة حبة: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة ۲۶۱).

و حاط القرآن هذه المضاعفة بشرط ألا يكون الإنفاق عن رياء، و هنا نقف أمام هذا التشبيه القرآنى الذى سيق تصويرا لمن يتصدق لا- عن باعث نفسى، نتبين إيحاءاته، و نتلمس وجه اختياره، إذ يقول سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (البقرة ۲۶۴). أ رأيت هذا الحجر الصلد قد غطته قشرة رقيقة من التراب فخاله

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۲

الرائى صالحا للزرع و الإنبات، و لكن وابل المطر لم يلبث أن أزال هذه القشرة فبدا الحجر على حقيقته، صلدا لا يستطيع أحد أن يجد فيه موضع خصب، و لا تربة صالحة للزراعة، أ لا ترى فى اختيار كلمة الصفوان هنا ما يمثل لك هذا القلب الخالى من الشعور الإنسانى النبيل، و العطف على أبناء جنسه عطفا ينبع من شعور حى صادق، و لكن الصدقة تغطيه بثوب رقيق حتى يخاله الرائى، قلبا ينبض بحب الإنسانية، و يبنى عليه كبار الآمال فيما سوف يقدمه للمجتمع من خير، و لكن الرياء و المن و الأذى لا- تلبث أن تزيل هذا الغشاء الرقيق، فيظهر القلب على حقيقته قاسيا صلبا لا يلين.

- ۶- و تأتى الكاف فى القرآن أحيانا لا لهذا التشبيه الفنى الخالص، بل لإيقاع التساوى بين أمرين، و من أمثلة هذا الباب قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۹) (التوبة ۶۸، ۶۹). و قوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (۱۵) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا (۱۶) (المزمل ۱۵، ۱۶). فهو يعقد موازنة بينهم و بين من سبقهم، و يبين لهم الوجوه التى يتفقون فيها معهم، و لا- ينسى أن يذكر ما أصاب سابقيهم، و إلى هنا يقف، تاركا لهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ما ينتظرهم من العواقب، و إنها لطريقة مؤثرة فى النفس حقّا، أن تضع لها شبيها، و تتركها تصل بنفسها إلى النتيجة فى سكينة و هدوء، لا أن تقذف بها فى وجهها، فربما تتمرد و تثور.

و من كاف التساوى أيضا قوله تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء ۱۶۳). و قد يلمح فى ذلك الرغبة فى إزالة الغرابة عن نفوس السامعين، و استبعادهم نزول الوحى على الرسول، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكّون فى رسالته، ليأنسوا بدعوة النبى، و قد يكون فى هذا التساوى مثار للتهكم، كما فى قوله تعالى: لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ (الأنعام ۹۴). أو مثار للاستنكار، كما فى قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ (العنكبوت ۱۰). فسر الاستنكار كما ترى هو تسوية عذاب الناس بعذاب اللّه.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۳

و قد تأتى الكاف وسيلة للإيضاح، و تقوم هى و ما بعدها مقام المثال للقاعدة، و غير خاف ما للمثل يضرب من التأثير و الإقناع، و من ذلك قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (۱۰) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۱) (آل عمران ۱۰، ۱۱)، فجاء بآل فرعون مثالا لأولئك الذين لن تغنى عنهم أموالهم و لا أولادهم من اللّه شيئا، و من كاف الإيضاح قوله سبحانه: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ، و قوله: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي.

«كذلك» فى القرآن الكريم

وردت «كذلك» فى القرآن الكريم، فى أكثر من مائة موضع، و لوجود الكاف.

و هى للتشبيه فيها، ظن كثير من العلماء أنها لا تكون إلا للتشبيه، و مضى فى كل آية ورد فيها هذا التعبير، يبين التشبيه فى الجملة، و

فى كثير من الأحيان لا يبدو معنى التشبيه واضحا، فيتلمس مقوماته، و يتكلف تفسيره تكلفا يوحى بضآلة هذا التشبيه، و أنه لم يزد المعنى جلاء، و هو الغرض الأول من التشبيه.

و قد تتبعت هذه العبارة فيما وردت فيه من الآيات فوجدتها أكثر ما تأتى لمعان ثلاثة:

أولها التشبيه، و ذلك عند ما يراد عقد الصلة بين أمرين، و لمح ما بينهما من ارتباط، و هنا يؤدى التشبيه رسالته فى إيضاح المعنى و توطيده فى النفس، تجد ذلك فى قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (الأعراف ۵۷). فالصلة وثيقة بين بعث الحياة فى الموتى و بين بعث الحياة فى الأرض الميتة، فتنبت من كل الثمرات، و إن فيما نراه بأعيننا من هذه الظاهرة الطبيعية التى نشاهدها فى كل حين، إذ نرى أرضا ميتة لا حياة فيها، ثم لا يلبث السحاب الثقال أن يفرغ عليها مطره، فلا تلبث أن تزدهر و تخرج من كل زوج بهيج، إن فى ذلك لما يبعث فى النفس الاطمئنان إلى فكرة البعث، و الإيمان بها، فلا جرم، انعقد التشبيه بين البعثين، و زاد التشبيه الفكرة جلاء.

و اقرأ قوله تعالى: إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (۱۷) وَ لا يَسْتَثْنُونَ (۱۸) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (۲۰)

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۴

فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (۲۱) أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (۲۲) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ (۲۳) أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (۲۴) وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (۲۵) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (۲۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۲۷) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (۲۸) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۲۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (۳۰) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (۳۱) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (۳۲) كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۳۳) (القلم ۱۷- ۳۳). أ رأيت أصحاب هذه الجنة، و قد أقسموا أن يستأثروا بثمر جنتهم، و أن يجنوا ثمارها مبكرين فى الصباح، و لم يدر بخلدهم الاستعانة باللّه فى عملهم، و بينما هم يستعجلون قدوم الصباح، و يحلمون بالثروة التى ستدرّها عليهم حديقتهم، طاف على تلك الجنة طائف أباد ثمرها و هم نائمون، و فى بكرة الصباح أسرع بعضهم ينادى بعضا أن الخير فى البكور، فانطلقوا لا تكاد تسمع لأقدامهم وقعا، يتهامسون و هم يتحدثون، كى لا يسمع مسكين صوتهم، فيتبعهم، و لقد وصلوا إلى حديقتهم، و اطمأنوا إلى أنهم سيقدرون على إحراز غلتها، و منع المساكين منها فما راعهم إلا أن وجدوا أشجارهم بلا ثمار، و جنتهم جرداء مقفرة، هنالك ملأ الندم قلوبهم، و أخذ بعضهم يلوم بعضا، يتحسرون على أمل قد ضاع، و على ما اقترفوه من ظلم و طغيان، أ رأيت هذا العذاب الذى صار إليه هؤلاء القوم، عذاب من فقد أمله و قد كان قريبا من يده، و عذاب من يؤنبه ضميره على جرم اقترفه، و قد رأى جزاءه أمام عينيه، أ لا ترى أن هذا العذاب النفسى الأليم جدير بأن يكون مثالا ينذر به اللّه كل من يتصرف تصرف أصحاب هذه الجنة.

و هى أيضا للتشبيه فى قوله سبحانه: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا (النساء ۹۴). و قوله تعالى: قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (الشعراء ۷۴).

و ما على نسق هذه الآيات مما تعقد فيه الكاف صلة بين أمرين.

و تأتى كاف كذلك فى كثير من الآيات بمعنى مثل فى قولك: مثلك لا يكذب، تريد أنت لا تكذب، و فائدة مجىء مثل، الإشارة إلى أن من له صفاتك لا يليق به أن يكذب، تجد ذلك فى مثل قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۶۵) أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۵

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (۲۶۶) (البقرة ۲۶۵، ۲۶۶). فالمعنى على أن اللّه يبين الآيات ذلك البيان الجلىّ الواضح المؤثر، لعله يثمر ثمرته فيدعو سامعيه إلى التفكير و التدبر. ذلك هو ما أفهمه من هذا التعبير، و لا أفهم أنه يريد أن يبين آيات غير هذه الآيات بيانا يشبه بيان الآيات السالفة، و إذا أنت حاولت عقد التشبيه على حقيقته رأيت فيه تفاهة و قلة غناء؛ و خذ قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (الأعراف ۴۰). فليس المراد- على ما يظهر لى- أن المجرمين يجزون جزاء يشبه الجزاء الموصوف فى الآية الكريمة، و إنما يجزون هذا الجزاء نفسه، من غلق أبواب السماء فى وجوههم و أنهم لا يدخلون الجنة أبدا.

و اقرأ قوله تعالى: تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (الأعراف ۱۰۱). تر المراد أن اللّه يطبع على قلوب الكافرين ذلك الطبع الذى يحول بينهم و بين الإيمان بما كذبوا من قبل، و إذا أنت حاولت عقد تشبيه لم تجد فيه كبير غناء، إذ يصير المعنى: يطبع اللّه على قلوب الكافرين طبعا يشبه طبعه على قلوب الكافرين، و فى ذلك ما فيه من ضياع قيمة التشبيه.

فمن هذا يبدو أن التشبيه فى هذه الآيات و أمثالها غير ملحوظ، و إنما يراد توجيه النظر إلى ما سبق هذه الأداة فحسب، و تأتى الكاف حينئذ إشارة إلى أن ما ذكر فى الآيات و أشير إليه، قد بلغ من الكمال مبلغا عظيما، لدرجة أنه صار نموذجا كاملا، يمكن أن يتخذ مثالا، يشبه به سواه، فقد أفادت الكاف بلوغ المعنى تمامه.

و تأتى كَذلِكَ أيضا لتحقيق المعنى و تثبيته، و لا يبدو فيها التشبيه، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (آل عمران ۴۰). و فى قوله تعالى: قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (۲۰) قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (۲۱) (مريم ۲۰، ۲۱). و محاولة خلق تشبيه من هذه العبارة لا يؤدى إلا إلى التكلف و التفاهة معا، و يقدر بعض العلماء فى مثل هذا التركيب أن كذلك خبر لمبتدإ محذوف تقديره الأمر كذلك، و نحن نوافق على هذا التقدير، و ليس فى كذلك تشبيه هنا، و إنما المراد الأمر هو ما أخبرت به، لا ريب فيه، و من كَذلِكَ هذه التى للتحقيق و التوكيد، تولدت كلمة (كده) فى اللغة العامية للدلالة على التحقيق أيضا، و نحن نستخدمها فى ذلك المعنى عند ما نقول: الحق كذلك و الصواب كذلك، نريد الحق

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۶

و الصواب هو ذلك، و لعل السر فى المجىء بكاف التشبيه هنا هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية و الحقيقة الكلامية، أى إن ما يكون فى الواقع يطابق ما دل عليه الكلام.

تفيد كَذلِكَ التحقيق إذا كوّنت هى و مبتدؤها جملة مستقلة، كما فى الآيتين السالفتين و ما على شاكلتهما، و تفيد التحقيق و تأكيد الجملة فى غير هذا الموضع أيضا، و يكثر ذلك عند ما يليها فعل ماض، كما فى قوله تعالى: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۱۲۳) (الأنعام ۱۲۲، ۱۲۳). فلا تجد للتشبيه موضعا فى هذه الآية، و إذا أنت حاولته وجدته لا يغنى فى التصوير شيئا، و كَذلِكَ هنا تؤدى معنى قد، و لها أمثلة كثيرة فى القرآن كقوله تعالى: فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳) (يونس ۳۲، ۳۳). و قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ۱۰۳)، و قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (۲۹) كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ (الرعد ۲۹، ۳۰). و ربما جاءت إفادتها للتحقيق، من كثرة مجيئها لبيان التطابق، و استعملت فى لازم معناها الأصلى الذى تنوسى.

و استعمال كذلك للتحقيق و التوكيد لا يقل عن استخدامها فى التشبيه، و كثير من المفسرين يتكلف جعلها فى تلك المواضع أيضا للتشبيه، فيتمحّل، و يمضى فى تأويلات لا نصيب لها من البلاغة و قوة الفن.

و مما ذكرناه يبدو أن تلك العبارة لا تقف عند حد التشبيه، بل لها هذه المعانى الثلاثة التى شرحناها.

التصوير بالاستعارة

اقتصر الأقدمون عند ما تحدثوا عن الاستعارة فى القرآن على ذكر أنواعها، من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلى، و من استعارة محسوس لمعقول، و من استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس، و من استعارة تصريحية أو مكنية، و من مرشحة أو مجردة، إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة، و هم يذكرون هذه الألوان، و يحصون ما ورد فى القرآن منها، و يقفون عند ذلك فحسب، و بعضهم يزيد فيجرى

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۷

الاستعارة، ظانا أنه بذلك قد أدى ما عليه، من بيان الجمال الفنى فى هذا اللون من التصوير، و لم أر إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللمحات الفنية المؤثرة، و ليس مثل هذه الدراسة بمجد فى تذوق الجمال و إدراك أسراره، و من الخير أن نتبين الأسرار التى دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقة.

و إذا أنت مضيت إلى الألفاظ المستعارة رأيتها من هذا النوع الموحى؛ لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس و أوفاه، و تصور المنظر للعين، و تنقل الصوت للأذن، و تجعل الأمر المعنوى ملموسا محسّا، و حسبى أن أقف عند بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية، نتبين سر اختيارها:

قال سبحانه: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (الكهف ۹۹). فكلمة يَمُوجُ لا تقف عند حد استعارتها لمعنى «الاضطراب» بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشادا ألا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه فى البحر الزاخر من حركة و تموّج و اضطراب، و لا- تأتى كلمة يَمُوجُ إلا موحية بهذا المعنى، و دالة عليه. و قال سبحانه: قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً (مريم ۴). و هنا لا تقف كلمة اشْتَعَلَ عند معنى انتشر فحسب، و لكنها تحمل معنى دبيب الشيب فى الرأس فى بطء و ثبات، كما تدب النار فى الفحم مبطئة، و لكن فى دأب و استمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت فى قوة لا تبقى و لا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئا إلا التهمه، و أتى عليه، و فى إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحى بهذا الشمول الذى التهم كل شىء فى الرأس. و قد تحدثنا فيما مضى عما توحى به كلمة تنفس، من إثارة معنى الحياة التى تغمر الكون عند مطلع الفجر.

و قال تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (يس ۳۷). فكلمة نَسْلَخُ تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلا قليلا- و دبيب الظلام إلى هذا الكون فى بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفيا من ظلمة الليل. و قال تعالى: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲) (الذاريات ۴۱، ۴۲).

ففى العقم ما يحمل إلى النفس معنى الإجداب الذى تحمله الريح معها.

و كثر فى القرآن أخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة، يدل بها على معقول معنوى، يصير به كأنه ملموس مرئى، فضلا عن إيحاءات الكلمة إلى النفس، خذ مثلا- قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (آل عمران ۱۸۷). أ لا ترى أن كلمة

من بلاغة القرآن، ص: ۱۶۸

(نبذ)، فضلا عن أنها تدل على الترك، توحى إلى نفس القارئ معنى الإهمال و الاحتقار، لأن الذى (ينبذ) وراء الظهر إنما هو الحقير

المهمل. و قوله تعالى: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ «۱» فَإِذا هُوَ زاهِقٌ (الأنبياء ۱۸). فكلمة القذف توحى بهذه القوة التى يهبط بها الحق على الباطل، و كلمة فَيَدْمَغُهُ توحى بتلك المعركة التى تنشب بين الحق و الباطل، حتى يصيب رأسه و يحطمه، فلا يلبث أن يموت و تأمل قوة التعبير بالظلمات و النور يراد بهما الكفر و الإيمان، فى قوله تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ (إبراهيم ۱). و جمع الظلمات يصور لك إلى أى مدى ينبهم الطريق أمام الضال، فلا يهتدى إلى الحق، وسط هذا الظلام المتراكم.

و من ذلك قوله تعالى: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ (البقرة ۲۳۷). فإنك تشعر فى كلمة العقدة بهذا الربط القلبى، الذى يربط بين قلبى الزوجين. و يطول بى القول إذا أنا وقفت عند كل استعارة، من هذا اللون و حسبى أن أشير إلى بعض نماذجه كقوله تعالى: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (الحجر ۹۴). فكلمة الصدع بمعنى الجهر توحى بما سيكون من أثر هذه الدعوة الجديدة، من أنها ستشق طريقها إلى القلوب و تحدث فى النفوس أثرا قويّا، و قوله تعالى: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا (آل عمران ۱۰۳). فأى صلة متينة ذلك الدين الذى يربطك باللّه، يثير هذا المعنى فى نفسك هذا التعبير القوى المصور: حبل اللّه.

و قوله تعالى: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (۲۲۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (۲۲۵) (الشعراء ۲۲۴، ۲۲۵). و قوله تعالى: لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً (آل عمران ۹۹). و قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ (الأنعام ۶۸). و تأمل جمال أَفْرِغْ فى قوله سبحانه: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً (الأعراف ۱۲۶). و ما يثيره فى نفسك من الطمأنينة التى يحس بها من هدأ جسمه بماء يلقى عليه، و هذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية، ينالها من منح هبة الصبر الجميل، و من الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم أَفْرِغْ و هى توحى باللين و الرفق و عند حديثه عن الصبر، و هو من رحمته، فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة (صب) فقال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (الفجر ۱۳). و هى مؤذنة بالشدة و القوة معا.

و تأمل كذلك قوة كلمة زُلْزِلُوا فى قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(۱) يصيب دماغه بالضرب.

مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة ۲۱۴). و لو أنك جهدت فى أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدى معنى هذا الاضطراب النفسى العنيف.

و قد تحدثنا فيما مضى عن جمال التعبير فى قوله تعالى: يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (البقرة ۲۷). و قوله سبحانه: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ (البقرة ۷). و قد يستمر القرآن فى رسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة تمكّن لها فى النفس، كما ترى ذلك فى قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (البقرة ۱۶). فقد أكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة و الاهتداء فى تصريف شئونها.

و قد يحتاج المرء إلى تريث يدرك به روعة التعبير، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (النحل ۱۱۲). فقد يبدو أن المناسبة تقضى أن يقال: فألبسها اللّه لباس الجوع، و لكن إيثار الذوق هنا؛ لأن الجوع يشعر به و يذاق، و صح أن يكون للجوع لباس؛ لأن الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال و الضنى و الشحوب.

و قد يشتد وضوح الأمر المعنوى فى النفس، و يقوى لديها قوة تسمح بأن يكون أصلا يقاس عليه، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (الحاقة ۱۱). فهنا كان الطغيان المؤذن بالثورة و الفوران أصلا يشبه به خروج الماء عن حده، لما فيه من فورة و اضطراب، و على هذا النسق جاء قوله تعالى: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (الحاقة ۶). فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتوّ و الجبروت.

و قد يجسم القرآن المعنى، و يهب للجماد العقل و الحياة، زيادة فى تصوير المعنى و تمثيله للنفس، و ذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية، و من أروع هذا التجسيم قوله سبحانه: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ (الأعراف ۱۵۴). أ لا تحس بالغضب هنا و كأنه إنسان يدفع موسى و يحثه على الانفعال و الثورة، ثم سكت و كفّ عن دفع موسى و تحريضه، و من تعقيل الجماد قوله سبحانه: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (فصلت ۱۱). و فى ذلك التعبير ما يدل على خضوعهما و استسلامهما، و قوله سبحانه: فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ (الكهف ۷۷). و كأنما الجدار لشدة وهنه

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۰

و ضعفه يؤثر الراحة لطول ما مر به من زمن. و قوله تعالى: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۶) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (۷) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (۸) (الملك ۶- ۸). فهذا التميز من الغيظ يشعر بشدة ما جناه أولئك الكفرة، حتى لقد شعر به و اغتاظ منه هذا الذى لا يحس. من بلاغة القرآن ۱۷۰ التصوير بالاستعارة ..... ص : ۱۶۶

على هذا النسق قوله سبحانه: كَلَّا إِنَّها لَظى (۱۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (۱۷) (المعارج ۱۵- ۱۷). أ لا تحس فى هذا التعبير كأن النار تعرف أصحابها بسيماهم، فتدعوهم إلى دخولها و منه قوله تعالى: حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ (يونس ۲۴). و فى ذلك ما يشعرك بالحياة التى تدب فى الأرض، حين تأخذ زخرفها و تتزين.

هذا و قد كثر الحديث عن قوله سبحانه: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ (الإسراء ۲۴). و رووا ما يفهم منه أن أبا تمام قلد هذا التعبير فقال:

لا- تسقنى ماء الملام، فإننى صبّ قد استعذبت ماء بكائى حتى إنه يروى أن أحدهم أرسل إليه زجاجة يطلب منه فيها شيئا من ماء الملام، فقال أبو تمام: حتى تعطينى ريشة من جناح الذل. قيل: فاستحسنوا منه ذلك. و عندى أن ليس الأمر على ما ذكروه، و أن هذا التعبير كناية عن الرفق فى معاملة الوالدين، و أخذهما باللين و الرقة، كما تقول: «و اخفض لهما الجناح ذلا» و لكن لما كان ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الإنسان و بين الذل، إذ إن هذا الجانب هو مظهر الغطرسة حين يشمخ المرء بأنفه، و مظهر التواضع حين يتطامن- أجازت هذه الصلة إضافة الجناح للذل لا على معنى الملكية، فلسنا بحاجة إلى تشبيه الذل بطائر نستعير جناحه، و لكنا بحاجة إلى استعارة الجناح للجانب، و جمال ذلك هنا فى أن اختيار كلمة الجناح فى هذا الموضع يوحى بما ينبغى أن يظلّ به الابن أباه من رعاية و حب، كما يظل الطائر صغار فراخه.

و بما ذكرناه يبدو أن بيت أبى تمام لم يجر على نسق الآية الكريمة، فليس هناك صلة ما بين الماء و الملام تجيز هذه الإضافة، و لا سيما أن إيحاء الكلمات فى الجملة لا تساعد أبا تمام على إيصال تجربته إلى قارئه، فليس فى سقى الماء ما يثير ألما، و لو أنه قال: لا تجر عنى غصص الملام، لاستطاع بذلك أن يصور لنا شعوره تصويرا أدقّ و أوفى، لما تثيره هاتان اللفظتان فى النفس من المشقة و الألم.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۱

مجازات القرآن

- ۱- قسم البلاغيون المجاز قسمين، مجازا عقليّا و مجازا لغويّا، و جعلوا الأول فى إسناد الفعل أو ما يشبهه إلى غير فاعله الأصيل لملابسته له، و حكمة هذا الإسناد حينا قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيسى فى الجملة، و قد يكون هو الركن الذى لا يتم العمل بدونه، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (القصص ۴). فإسناد الذبح إلى فرعون؛ لأنه هو الآمر به، و لولاه ما حدث، و ما الجند المنفذون سوى آلات مسخرة تفعل ما تؤمر به، و على هذا المنوال قوله تعالى: وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً (القصص ۳۸). فمن هامان الوزير يصدر الأمر لأتباعه بإعداد مواد البناء، و رفع الصرح، و قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (إبراهيم ۲۸). أو لا تجد أن هؤلاء الذين بدّلوا نعمة اللّه كفرا، هم العنصر الفعال فيما آل إليه حال قومهم من عقبى السوء؛ لأنهم هم الذين كانوا سبب إضلالهم و كفرهم.

و لما كان يوم القيامة تملؤه أحداث مرعبة، تملأ النفوس هولا يتسبب عنها لشدتها الشيب، و كان هذا اليوم ظرفا لتلك الأحداث، صح أن يسند الشيب إليه فى قوله سبحانه:

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (المزمل ۳۷). و قد أجاز ذلك شدة الارتباط بين الأحداث و ظرفها. كما أن شدة الارتباط بين العيشة و صاحبها جعلت من الجميل نسبة الرّضا إليها فى قوله فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (۶) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۷) (القارعة ۶، ۷).

- ۲- أما المجاز اللغوى و هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له أولا، لصلة بين المعنيين غير صلة التشابه، فقد وجدت كثيرا ممن تعرضوا لدراسته فى القرآن الكريم قد مضوا يلتمسون أمثلته، و يبوبونه، و يذكرون أقساما كثيرة له، حتى بلغوا من ذلك حد التفاهة، و مخالفة الذوق اللغوى، فوجدوا مثلا فى قوله تعالى:

إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (الحجر ۵۲).

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۲

مجازا لغويّا من وصف الكل بصفة البعض، إذ الوجل محله القلب، و قياسا على ذلك جعلوا مثل محمد عالم و جاهل و راغب و خائف و ما على شاكلتها، مجازا لغويّا.

و وجدوا كذلك فى قوله سبحانه: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً (فصلت ۳، ۴). مجازا؛ لأن البشارة و الإنذار بعض ما فى القرآن، و فى قوله سبحانه:

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وجدوا مجازا، لأن الشهر اسم لثلاثين ليلة، و قد أريد جزء منه. إلى غير ذلك من أمثلة يطول بى وجه إحصائها، و بيان ما فيها من تكلّف و تفاهة، و لو سرنا على منهجهم لوجدنا فى كل ما ننطق به مجازا، و ليس فى ذلك كبير نفع، ما دامت الكلمة لا تسترعى انتباه القارئ، و لا تستوقفه لتبين السر فى استخدامها.

لا أريد أن أمضى فى بيان ما تكلفوه و جروا وراءه من تلمس الأسباب لعد الآيات من باب المجاز اللغوى، و كل ما أريد قوله هنا هو أن أكثر هذه الكلمات أصبحت توحى بالفكرة من غير أن يثار فى النفس المعنى المجازى.

خذ مثلا قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ (المنافقون ۴). فإنهم قالوا إن فيه إطلاق الكل على البعض، و المراد تعجبك وجوههم؛ لأن الأجسام لا ترى كلها، و إنما يرى الوجه فحسب، و لا أرى تأويلا أبعد من هذا التأويل عن روح الآية، فالجسم و إن كان لا يرى كله، من المستطاع أن يدرك الإنسان بنظره ما عليه الجسم من جمال يبعث على الإعجاب، و لا تريد الآية: تعجبك وجوههم، و لكنها تريد يعجبك ما عليه أجسامهم من ضخامة، و ما يبدو فيها من مظاهر النماء و القوة، و ما عليه وجوههم من جمال و

نضرة.

و خذ قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (۲) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (۳) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (۹) (الغاشية ۲، ۳ و ۸، ۹)، قالوا إنه من إطلاق الجزء و إرادة الكل، فقد عبّر بالوجوه عن جميع الأجساد؛ لأن النصب و التنعم حاصل لكلها، و لا أرى الذهن فى حاجة إلى أن يفهم هنا من الوجه معنى الجسم؛ لأن النصب و النعمة يظهران أتم ظهور على الوجه.

و خذ قوله تعالى: إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ (المائدة ۱۱۲). قالوا إنه من إطلاق الملزوم على اللازم، إذ المراد هل يفعل، فأطلق الاستطاعة على الفعل؛ لأنها لازمة له، و لا أرى فى ذلك كبير غناء.

و لكنك لا تعدم فى بعض الأحيان روعة فى بعض ما عدّوه من ألوان هذا المجاز، كما فى قوله تعالى: يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ (البقرة ۱۹). و قوله سبحانه: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ (الحج ۱۰). و قد لا تكون اليد هى الفاعلة، و لكن لما كان أكثر الأعمال بها، جمل هذا التعبير وراق.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۳

الكناية و التعريض

تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملا فى أداء المعانى و تصويرها خير أداء و تصوير، و هى حينا راسمة مصوّرة موحية، و حينا مؤدبة مهذبة، تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، و حينا موجزة تنقل المعنى وافيا فى لفظ قليل. و لا تستطيع الحقيقة أن تؤدى المعنى كما أدّته الكناية فى المواضع التى وردت فيها الكناية القرآنية.

فمن الكناية المصوّرة الموحية قوله تعالى: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (الإسراء ۲۹). أ لا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة فى صورة قوّية بغيضة منفرة، فهذه اليد التى غلّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد، و هو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق و لا عطية، و التعبير ببسطها كل البسط يصوّر لك صورة هذا المبذر الذى لا يبقى من ماله على شىء، كهذا الذى يبسط يده، فلا يبقى بها شىء، و هكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويّا مؤثرا.

و منها قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ (الحجرات ۱۲). و تأمل كيف: «مثّل الاغتياب بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى جعله لحم الأخ، و لم يقتصر على لحم الأخ ... فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله، فشديد المناسبة جدّا، و ذلك لأنّ الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس، و تمزيق أعراضهم، و تمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة، و من المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، و هذا القول مبالغة فى الاستكراه، لا أمد فوقها، و أما قوله مَيْتاً فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته، و لا يحس بها» «۱».

و منها قوله تعالى: فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (الرحمن ۵۶).

فأنت ترى فى قصر الطرف تصويرا للمظهر المحسوس لخلة العفة، و لو أنه

---

(۱) كتاب الفوائد ص ۱۲۷.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۴

استخدم عفيفات ما كان فى الآية هذا التصوير المؤثر، و لا رسم أولئك السيدات فى تلك الهيئة الراضية القانعة، التى لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن، و لا يفكرن فى غيرهم.

و من الكنايـة المهذبـة قوله سبحانه: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ (المائدة ۷۵). أ لا ترى فى التعبير بأكل الطعام أدبا و رقّة تغنيك عن أن تسمع أذنك: كانا يتبرّزان و يتبوّلان.

و منها قوله تعالى: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ (البقرة ۲۲۳). و قوله:

وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً (النساء ۴۳). و هكذا كنّى اللّه بالملامسة، و المباشرة، و الإفضاء، و الرفث، و الدخول، و السرّ، كما فى قوله سبحانه: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً (البقرة ۲۳۵).

و ممـا يصـح أن يوجه النظر إليه هنا، أن القرآن كان يلجأ إلى الصـراحة، عنـد ما يتطلبها المقام، فلا يحاور، و لا يـداور، بل يعمـد إلى الفكرة فيلقى بهـا فى وضوح، و يقول: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ (النور ۳۰). و لا عجب فى صـراحة كتاب دينى يجد فى التصريح، ما لا تستطيع الكناية الوفاء به فى موضعه.

و من الكنايـة الموجزة قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا (البقرة ۲۴). أى فـإن لم تأتوا بسورة من مثله، و لن تأتوا بسورة من مثله، و مثل هذا التعبير كثير فى القرآن.

أما التعريض فهو أن يذكر شـىء يدل به على شـىء لم يذكر، و أهم أغراضه الذّمّ، كما فى قوله تعالى: قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (۶۲) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (۶۳) (الأنبياء ۶۲، ۶۳). ففى نسـبة الفعل إلى كبير الأصنام، تعريض بأن الصـغار لا تصـلح أن تكون آلهة؛ لأنها لم تسـتطع أن تدفع عن نفسها، و بأن الكبير لا يصلح أن يكون إلها؛ لعجزه أن ينهض بمثل هذا العمل.

و من بـاب التعريض أيضـا تلـك الآيات التى على مثال قوله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعـد ۴). و تلك طريقة مؤثرة تدفع السامعين إلى التفكير العميق، حتى لا يكونوا ممن لا يعقلون.

هذا، و قد سبق أن تحدثنا عن جمال استخدام (إنما) عند ما يراد بها التّعريض.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۵

الفصل الثالث السورة

– ۱– قسم القرآن الكريم سورا، سـمّيت كـل منهـا بـاسم خاص، أخـذ من بعض ما عالجته السورة من المعانى، أو مما تحـدث عنه من إنسان و حيوان أو غيرهما، أو من بعض كلماتها.

و السـورة القرآنيـة قـد تكـون ذات موضوع واحـد تتحـدث عنه، و لا تتجـاوزه إلى سواه، مثـل كـثير من قصـار السور، كسورة النبأ و النازعـات و الانشـقاق، و كلهـا تتحـدث عن اليوم الآخر، و الهمزة و الفيـل و قريش، و هى تتحـدث عن عقـاب من يعيب الناس، و ما حدث لأصحاب الفيل، و ما أنعم اللّه به على قريش من نعمة الألفة.

و قـد تتناول السورة أغراضا شتى، مثل معظم سور القرآن، و هنا نقف لنتبين أىّ الخطتين أقوم و أهـدى: أن يرتب القرآن موضوعاته و يجعل كل سورة تتناول موضوعا واحدا معينا، فتكون سورة للأحكام و أخرى للتاريخ و ثالثة للقصص و رابعة للابتهال، حتى إذا فرغت منه تناولت سورة أخرى غرضا آخر و هكـذا، أو أن تتناثر أحكامه و قصـصه و وعـده و وعيـده على النحو الـذى انتهجه، و الـذى يبدو بادئ ذى بدء أن السلك الذى يربط بين آياته ضعيف الربط أو واهى التماسك؟

و للإجابـة عن هـذا السؤال يجب أن نعرف الهـدف الذى إليه يرمى القرآن الكريم؛ لنرى أقوم الخطتين لتحقيق هذا الهدف و الوصول به إلى جانب التوفيق و النجاح.

أما هـدف القرآن الكريم فغرس عقيـدة التوحيـد فى النفس، و انتزاع ما يخالف هـذه العقيدة من الضـمير، و الدعوة إلى العمل الصالح

المكوّن للإنسان المهذب الكامل، بسن القوانين المهذّبة للفرد، الناهضة بالجماعة.

و إذا كان ذلك هو هدف القرآن، فإن المنهج القرآنى هو الذى يحقق هذا الهدف فى أكمل صوره، و أقوى مظاهره، ذلك أنه لكى يحمل على اتّباع ما يدعو إليه يمزج دعوته بالحث على اتباعها، و يضرب المثل بمن اتبع فنجح، أو ضل فخاب، و يتبع

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۶

الحديث عن المؤمنين بذكر بعض الأحكام التى يجب أن يتبعها هؤلاء المؤمنون، و يعقب ذلك بالترغيب و الترهيب، ثم يولى ذلك بوصف اليوم الآخر و ما فيه من جنة أو نار، و هو فى كل ذلك يتكئ على الغريزة الإنسانية التى تجعل المرء خاضعا بالترغيب حينا، و الترهيب حينا آخر، و القرآن حين يستمد شواهده من حوادث التاريخ لا يستدعيه ذلك أن ينهج منهج المؤرخين، فيتتبع الحادث من مبدئه إلى منتهاه، و ينعم النظر فى الأسباب و النتائج، و يقف عند كل خطوة من خطواته، و لكنه يقف من هذا الحادث عند الفكرة التى تؤيد غرض الآية، و الجزء الذى يؤيد الهدف الذى ورد فى الآيات، و قل مثل ذلك فى القصة عند ما يوردها، فإنها تساق للهدف الذى تحدّثنا عنه، و هو من أجل ذلك ينظر إليها من زاوية بعينها، و لا يرمى غالبا إلى قص القصّة برمتها، و سوف نشبع الحديث فى ذلك فيما يلى:

يتنقل القرآن إذا بين الأغراض المختلفة، لا اعتباطا و بلا هدف، و لكن لصلات وثيقة تربط بين هذه الأغراض، بحيث تتضافر جميعها فى الوصول إلى الغاية القصوى و تحقيقها.

و لنبدأ فى تفصيل ما أجملناه مبينين الصلات الوثيقة التى تربط آية بآية، ثم موضحين وجوه الترابط القوى بين الأغراض المختلفة فى السورة الواحدة.

فقد تقع الآية الثانية صفة لكلمة فى الآية الأولى كما فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ (۲۶) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۲۷) (البقرة ۲۶، ۲۷). و قد تكون الآية الثانية توكيدا لفكرة الآية الأولى، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۹۴) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۹۵) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۹۶) (البقرة ۹۴- ۹۶). و قد تكون الآية الثانية ردّا على ما فى الآية الأولى كما فى قوله تعالى: وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۸۰) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۸۱) (البقرة ۸۰، ۸۱). و قد تحمل الآية الثانية فكرة مضادة لفكرة سابقتها، كما فى قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (۲۴)

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۷

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۵) (البقرة ۲۴، ۲۵). و لا ريب أن الجمع بين حكم المتضادين فى الذهن يزيده جلاء و وضوحا.

و تأمل الصلة القوية بين هاتين الآيتين، و هى صلة الربط بين الحكم و حكمته فى قوله سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۷۸) وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۹) (البقرة ۱۷۸، ۱۷۹). و يصف الكتاب ثمّ يحبّب فى اتباعه مبغّضا إلى النفوس صورة منكريه، فيقول: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً

لِلْمُتَّقِينَ (۲) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۷) (البقرة ۲- ۷). و يعقب توحيد اللّه بدلائل هذا التوحيد فى قوله: وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (۱۶۳) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۶۴) (البقرة ۱۶۳، ۱۶۴).

و يطول بى القول إذا أنا مضيت فى الاستشهاد على بيان الصلات التى تربط آية بآية، و لكنى أشير هنا إلى أن إدراك هذه الصلة يتطلب فى بعض الأحيان تريثا و تدبرا يسلمك إلى معرفة هذه الصلة و تبيّنها، و لكنك تصل- و لا ريب- إلى وثاقة هذا الارتباط و متانته، و خذ لذلك مثلا قوله تعالى: أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (۵) (الأنفال ۴، ۵). فقد لا يظهر موضع الكاف و لا مكان الصلة بين الآية الثانية و ما قبلها من الآيات، و لكن التأمل يهدى إلى أن القرآن يربط بين أمرين: أولهما ما بدا من بعض المسلمين من عدم الرضا بما فعله الرسول فى قسمة الغنائم، و ثانيهما ما كان قد ظهر من بعض المؤمنين من كراهية أن يخرج الرسول من منزله إلى الغزو، و قد تمّ فى هذا الغزو النصر و الغنيمة، فكأنه يقول إن الخير فيما فعله الرسول فى قسمة الغنائم، كما كان الخير فيما قام به الرسول من خروجه إلى الغزو، و بذلك تبدو الصلة قوية واضحة بين الخبرين.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۸

و من ذلك قوله تعالى: وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۱۳) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۱۴) وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (۱۱۵) (البقرة ۱۱۴، ۱۱۵). فقد تبدو الصلة منفصمة بين هذه الآيات، و لكنك إذا تأملت الآية الأولى وجدت فيها حديثا عن الذين لا يعلمون و لا يتلون الكتاب، و هؤلاء لا يعترفون بشىء مما أنزل اللّه، فهم يسعون فى تقويض أسس الأديان جميعا، لا فرق عندهم بين دين و دين، و هم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين و عبادة اللّه، و يسعون فى تخريب بيوت عبادته، و من هنا صحّ هذا الاستفهام الذى يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون، و ارتباط الآية الثالثة بما قبلها لدلالتها على أن عبادة اللّه ليست فى حاجة إلى مسجد يقام، بل للّه المشرق و المغرب، فحيثما كنتم ففى استطاعتكم عبادة اللّه؛ لأن ثمة وجه اللّه.

«قال بعض المتأخرين: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة، و تنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، و تنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب و البعد من المطلوب، و تنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام و اللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلّى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية و آية فى كل سورة» «۱».

و لكل سورة فى القرآن هدف ترمى إليه، فتجد سورة الأنعام مثلا تتجه إلى إثبات توحيد اللّه و نبوّة رسوله، و إبطال مذاهب المبطلين و ما ابتدعوه من تحليل حرام أو تحريم حلال؛ و تجد سورة الأعراف تتجه إلى الإنذار و الاتّعاظ بقصص الأولين و أخبارهم، و تجد سورة التوبة تحدد علاقة المسلمين بأعدائهم من مشركين و أهل كتاب و منافقين، و تجد سورة الحجر ترمى إلى إثبات تنزيل القرآن و ترهيب المكذبين به، بقصّ أخبار المكذبين قبلهم، و هكذا تجد هدفا عامّا تدور حوله السورة، و تتبعه معان أخرى تؤكده و

يستتبعها، و يخلص الإنسان فى السورة من معنى إلى آخر خلوصا طبيعيّا لا عسر فيه و لا اقتسار.

---

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۱۱۰.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۷۹

و لنحلل سورة من القرآن، نتبين فيها منهجه، و ندرك مدى تأثير هذا المنهج فى النفس الإنسانية.

ففى سورة المزمل، و الهدف منها تهيئة الرسول للدعوة، و إعداده لما سيلقاه فى سبيلها من متاعب و مشاق، بدئت السورة بنداء الرسول، و تكليفه بما يعده لحمل أعباء الرسالة، فقال تعالى: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (۲) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (۳) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (۴) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (۵) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا (۶) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا (۷) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (۸) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (۹) (المزمل ۱- ۹). أ لا تراه يعدّه بهذه الرّياضة النفسية الشاقة لتحمل أعباء الرسالة المضنية فليمض الليل أو جزءا منه فى التهجد و قراءة القرآن، استعدادا لما سيلقى عليه من تكاليف شاقة ثقيلة، و إنما أمر الرسول بالتهجّد فى الليل؛ لأن السهر فيه أشق على النفس، و لكنها تخلص فيه للّه، و تفرغ من مشاغل النهار و صوارفه، و أمر بذكر اللّه، و الإخلاص له تمام الإخلاص، فهو رب المشرق و المغرب، لا إله إلا هو.

بعد هذا الإعداد بالرياضة أراد أن يوطنه على تحمل الأذى فى سبيل هذه الدعوة و الصبر عليه، و ينذر هؤلاء المكذبين بما سيجدونه يوم القيامة من عذاب شديد، و هنا يجد المجال فسيحا لوصف هذا اليوم وصفا يبعث الرهبة فى النفس، و الخوف فى القلب، عساها تكف عن العناد، و تنصاع إلى الصواب و الحق، و لا ينسى أن يضرب المثل من التاريخ لمن كذّب و عصى، كى يكون عظة و ذكرى، فقال:

وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا (۱۰) وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (۱۱) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَ جَحِيماً (۱۲) وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً (۱۳) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا (۱۴) إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (۱۵) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا (۱۶) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (۱۷) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (۱۸) (المزمل ۱۰- ۱۸).

فأنت ترى الانتقال طبيعيّا من توطين الرسول على الأذى، ثم بعث الطمأنينة إلى نفسه بأن اللّه سيتكفل عنه بتأديب المكذبين، بما أعده اللّه لهم من عذاب أليم يوم القيامة، و تأمل ما يبعثه فى النفس تصور هذا اليوم الذى ترتجف فيه الأرض، و تنهار الجبال فيه منهالة، و ينتقل إلى الحديث عن عاقبة من كذب بالرسل من أسلافهم، ثم يتجه إليهم، موجّها لهم الخطاب يسألهم متعجبا، عما أعدوه من وقاية لأنفسهم يصونونها بها من هول يوم يشيب الطفل فيه من شدته، و حسبك أن ترفع

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۰

الطرف إلى أعلى، فترى السماء التى أحكم بناؤها، قد فقدت توازنها و تصدّع بناؤها.

و يختم هذا الإنذار بجملة تدفع النفس إلى التفكير العميق، و تفتح أمامها باب الأمل و النجاة لمن أراد أن يظفر و ينجو، إذ قال: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا (المزمل ۱۹). أ لا تحس فى هذه الجملة معنى إلقاء المغبة على عاتق هؤلاء المنذرين، و أنهم المسئولون عما سوف يحيق بهم من ألم و شقاء، أو ليس فى ذلك ما يحفزهم إلى التفكير الهادئ المتزن، عساهم يتخذون إلى ربهم سبيلا؟

و ينتقل القرآن من إنذاره لهؤلاء المكذبين إلى خطابه للمطيعين، و هم الرسول و طائفة ممن معه، فيشكر لهم طاعتهم، و لا يرهقهم من أمرهم عسرا، و يطلب إليهم القيام ببعض الفروض، و يحببها إليهم، فهم عند ما يؤتون الزكاة يقرضون اللّه، و من أوفى بأداء الحقوق منه سبحانه، و يختم خطابه لهم بوصفه بالغفران و الرحمة، فيقول: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ

وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المزمل ۲۰).

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة مدى الرفق فى خطاب المطيعين، و ما أعد لهم من رحمة و غفران، فى مقابل ما لدى اللّه من أنكال و جحيم لهؤلاء المكذبين.

أنت بذلك التحليل ترى مدى الترابط بين الأغراض المختلفة، و اتساق كل غرض مع صاحبه، و حسن التخلص و طبيعة الانتقال من غرض إلى آخر و تستطيع أن تمضى فى تحليل سور القرآن على هذا النسق، و سوف ترى الربط بين الأغراض، قويا وثيقا.

فإذا رأيت فى بعض السور بعض آيات يشكل عليك معرفة وجه اتساقها فى غرض السورة فتريث قليلا تروجه المجيء بها قويا، و لعل من أبعد الآيات تعلقا بسورتها فى الظاهر قوله تعالى فى سورة القيامة: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (۱۹) (القيامة ۱۶- ۱۹)، فإن السورة كلها حديث عن يوم القيامة و أحواله. و أفضل ما رأيته فى توجيه هذه الآيات ما حكاه الفخر الرازى من «أنها نزلت فى الإنسان المذكور قبل فى قوله: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (القيامة ۱۳). قال: «يعرض عليه كتابه، فإذا أخذ فى القراءة تلجلج خوفا، فأسرع فى القراءة، فيقال له:

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۱

لا تحرك به لسانك، لتعجل به، إن علينا أن نجمع عملك، و أن نقرأ عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان، و ما يتعلق بعقوبته» «۱» و إذا كنت أوافقه فى أصل الفكرة فإنى أخالفه فى تفصيلاتها، فالمعنى، على ما أدرى، يتبأ الإنسان يومئذ بما قدّم و أخّر، و ذلك كما أخبر القرآن، فى كتاب مسطور، و فى تلك الآيات يصف القرآن موقف المرء من هذا الكتاب فهو يتلوه فى عجل كى يعرف نتيجته، فيقال له: لا تحرك بالقراءة لسانك لتتعجل النتيجة، إن علينا أن نجمع ما فيه من أعمال فى قلبك، و أن نجعلك تقرؤه فى تدبر و إمعان، فإذا قرأته فاتجه الاتجاه الذى يهديك إليه، و إن علينا بيان هذا الاتجاه و إرشادك إليه إما إلى الجنة، و إما إلى السعير. و بذلك يتضح أن لا خروج فى الآيات على نظم السورة و هدفها.

ذلك هو ما أراه فى ترتيب آيات القرآن الكريم و شدة ما بينها من ارتباط، و كان بعض العلماء يشعر بشدة صلة آى القرآن بعضها ببعض، حتى يكون كالكلمة الواحدة، و من هؤلاء ابن العربى «۲». و ممن عنى بدراسة التناسب بين الآيات أبو بكر النيسابورى «و كان غزير العلم فى الشريعة و الأدب، و كان يقول على الكرسى إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جانب هذه، و ما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ و ممن أكثر منه فخر الدين، قال فى تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات و الروابط» «۳».

لا أوافق إذا عز الدين بن عبد السلام عند ما قال: «المناسبة علم حسن، و لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، و من ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل فى نيف و عشرين سنة فى أحكام مختلفة، و ما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض» «۴». و لا أوافق أبا العلاء بن غانم فى قوله: «إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم و أن ليس فى القرآن شيء من حسن التخلص» «۵».

لا أوافقهما و حجتى فى ذلك أمران: أما أولهما فما نراه من حسن التناسب و قوة الارتباط حقا بين الآى بعضها و بعض، محققة بذلك هدف القرآن كما تحدثنا، و لعل عز الدين و من لف لفه كان يرى التناسب يتم إذا جمعت آيات الأحكام مثلا

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۱۰۸.

(۲) الإتقان ج ۲ ص ۱۰۸.

(۳) المرجع نفسه.

(۴) المرجع السابق نفسه.

(۵) المرجع السابق ص ۱۰۹.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۲

كلها فى سورة واحدة أو عدة سور، و جمعت القصص كلها كذلك فى سورة واحدة أو عدة سور، و جمعت حوادث التاريخ كلها فى سورة واحدة أو عدة سور، و هكذا، و قد سبق أن بيّنا أن هذا النهج لا يحقق الهدف الذى يرمى إليه القرآن من الإرشاد و الهداية، فليس القرآن كتاب قصص أو تاريخ، و لكنه كتاب دين، يرمى إلى التأثير فى النفس، فهو يلقى العظة، مبيّنا ما فى اتباعها من خير، و ضاربا المثل من التاريخ على صدق ما ادعى، و مستشهدا بقصص الأولين و آثارهم، و مقنّنا من الأحكام ما فيه خير الإنسانية و كمالها، و كل ذلك فى تسلسل و اطراد و حسن اتساق، ترتبط المعانى بعضها ببعض، و يؤدى بعضها إلى بعض.

أولا- نرى فى هذا النهج القرآنى وسيلة لتكرير العظات و الإنذار و التبشير فى صور متعددة مرات عدة، و للتكرير كما قلنا أثره فى تثبيت المعنى فى النفس، و بلوغ العظة الهدف الذى ترمى إليه، و لن يكون للتكرير جماله إذا عمد القرآن إلى كل غرض على حدة فوضع آية بعضها إلى جانب بعض.

و أما ثانيهما فتاريخى يعود إلى ترتيب الرسول للقرآن بأمر ربه، فقد كانت تنزل عليه الآيات فيأمر كتبة الوحى أن يضعوها فى موضعها بين ما نزل من القرآن، فى هذه السورة أو تلك، و يضع بعض ما نزل فى مكة بين آيات السور المدنية، فلولا أن رابطا يجمع بين هذه الآيات بعضها و بعض، ما كان ثمة سبب يدفع إلى هذا الوضع و لا يقتضيه بل لرتبت الآى كما نزلت و ما كان هناك داع إلى ترتيب و لا تبويب، أما و القرآن قد نزل للناس كافة، و للأجيال جميعها فقد اختار اللّه لكتابه خير ترتيب يحقق الهدف الذى له نزل الكتاب الحكيم.

- ۲- و تبدأ سور القرآن مثيرة فى النفس الإجلال، و باعثة فيها الشوق، و الرغبة فى تتبع القراءة، و الاستزادة منها، فهى حينا ثناء عليه تعالى بتعداد ما له من صفات العظمة و الجلال كما فى قوله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳) (الحديد ۱- ۳). و حينا تعظيم من شأن الكتاب و تقدير له، تقديرا يبعث على الإصغاء إليه و تدبّر آياته كما فى قوله سبحانه: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً ... (فصلت ۲- ۴) أ و لا ترى الشوق يملأ نفسك و أنت تصغى إلى مثل تلك الفاتحة:

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۳

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (يوسف ۱). و كأنما هى تنبيه للسامع كى يستجمع كل ما يملك من قوة، ليستمع إلى ما سيلقى إليه، و كذلك يثور الشوق لدى سماع كل فاتحة فيها ثناء على الكتاب و تعظيم لأمره، شوق يدعو إلى معرفة ما يحويه هذا الكتاب، الذى يصفه حينا بأنه يخرج من الظلمات إلى النور، فى قوله: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (إبراهيم ۱).

و بأنه لا ريب فيه فى قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (البقرة ۲).

و كثر فى القرآن البدء بالقسم، و هو بطبيعته يدفع إلى التطلع لمعرفة المقسم عليه، لأنه لا يلجأ إلى القسم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تأكيد و إثبات، و قد يطول القسم فيطول الشوق، و تأمّل جمال البدء بالقسم فى قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى (۱) وَ النَّهارِ

إذا تَجَلَّى (۲) وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (۳) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (۴) (اللیل ۱- ۴).

و کما یثیر القسم الشوق و التطلع، کذلک یثیرهما فی النفس الاستفهام و الشرط، ففی الاستفهام تتجمع النفس لمعرفة الجواب، و فی الشرط تتطلع لمعرفة الجزاء، و قد افتتحت عدة سور من القرآن بهما کما فی قوله تعالی: أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ (العنکبوت ۲). و قوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْکَواکِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵) (الانفطار ۱- ۵).

و قد تبدأ السورة بنداء الرسول أو المؤمنین، للأمر بشیء ذی بال، أو النهی عن أمر شدید النکر، أو تبدأ بخبر یثیر الشوق، أو تدخل السورة مباشرة فی الحدیث عن الغرض الذی نزلت لأجله، کما فی قوله تعالی: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِینَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (التوبة ۱). و کأن فی ضخامة الغرض و قوته ما یشغل عن التمهید له، بل کأن فی التمهید إضاعة لوقت یحرص القرآن علی ألا یضیع.

و قد یکون مفتتح السورة موحیا بفکرتها، و متصلا بها شدید الاتصال، و متناسبا معها شدید التناسب، فمن ذلک سورة آل عمران التی افتتحت بقوله:

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ (آل عمران ۲). و قد عالجت السورة أمر عیسی و نزهت اللّه عن الولد، أو لا تری البدء مناسبا لهذا التنزیه؟ و من ذلک سورة النساء، فقد تحدثت عن کثیر من أحکامهن فی الزواج و المیراث، فکان من أجمل براعات الاستهلال قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا کَثِیراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَساءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۴

(النساء ۱)، أ لا تری فی خلق المرأة من زوجها ما یوحی بالرفق و الحنان الذی یجب أن تعامل به المرأة فلا یبخس حقها زوجة أو أما أو بنتا، و فی الحدیث عن تقوی الأرحام هنا إشارة کذلک إلی أن السورة ستعالج بعض أمورهم أیضا ورثة یتامی.

و قل مثل ذلک فی أول الأنعام التی ترمی إلی إثبات توحید اللّه إذ قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ (الأنعام ۱)، فلیس غیر السموات و الأرض شیء یبقی خلقه لغیر اللّه.

- ۳- و لخاتمة السورة أثرها الباقی فی النفس، لأنه آخر ما یبقی فی الذهن، و ربما حفظ دون باقی الکلام، و من أجل هذا کانت خواتم سور القرآن مع تنوعها تحمل أسمی المعانی و أنبلها، فهی حینا دعاء و ابتهال یحمل النفس الإنسانیة إلی عالم روحی سام، یعترف فیه الإنسان بعجزه أمام قدرة اللّه، و یطلب من هذه القوة القاهرة أن تعینه و أن تنصره، أو لا یشعر المرء حین یلتجئ إلی هذه القوة بأنه ألقی ثقله، و تخفف من عبئه، کما تجد ذلک فی ختام سورة البقرة إذ یقول سبحانه: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِینا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَیْنا إِصْراً کَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِینَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْکافِرِینَ (البقرة ۲۸۶). أو لا یؤذن هذا الدعاء بعد سورة اشتملت علی کثیر من الجدل و النقاش، و جملة کبیرة من الأحکام بأن السعادة الحقة إنما هی فی هذا الالتجاء إلی اللّه، و استمداد القوة من قدرته، و بذا کان هذا الدعاء مؤذنا بالانتهاء، باعثا برد الراحة فی الفؤاد، بعد معرکة طال فیها بیان الحق، و مناقشة الباطل و هدمه.

و حینا حدیث عن اللّه بإجلاله و تقدیسه، أو بتعداد صفاته الباعثة علی حبه و إجلاله معا، فتراه فی ختام سورة المائدة یقول: لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِیهِنَّ وَ هُوَ عَلى کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (المائدة ۱۲۰). و فی ختام سورة الإسراء یقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ کَبِّرْهُ تَکْبِیراً (الإسراء ۱۱۱). إلی غیر ذلک من سور کثیرة، و کأن فی هذا الختام خلاصة الدعوة التی تهدف السورة إلیها، فکان ذکره مؤذنا بانتهائها، کما تذکر خلاصة الکتاب فی نهایته.

و فی أحیان کثیرة تختم السورة بما یشعر بأن القرآن قد أدی رسالته، فعلی السامع أن یتدبر الأمر، لیری أی الطریقین یختار، و الختم بذلک یبعث فی نفس

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۵

القارئ التفكير أ يؤثر الهدى أم يختار الضلال، فتراه مثلا فى نهاية سورة التوبة يقول: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۱۲۹) (التوبة ۱۲۸- ۱۲۹)، أو تختم بإنذار أو وعد أو أمر بركن من أركان الحياة الرفيعة الصالحة، فيختم آل عمران بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ۲۰۰).

و قل أن تختم السورة بحكم تشريعى جديد، كما فى سورة النساء. و فى كل ختام تشعر النفس بأن المعانى التى تناولتها السورة قد استوفت تمامها، و وجدت النفس عند الخاتمة سكونها و طمأنينتها، حتى إن السورة التى ختمت باستفهام لم يشعر المرء عنده بنقص يحتاج إلى إتمام، بل كان جوابه مغروسا فى القلب، مستقرا فى الضمير، فتم بالاستفهام معنى السورة، و أثار فى النفس ما أثار من إقرار لا تستطيع تحولا عنه و لا إخفاء له.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۶

الفصل الرابع أسلوب القرآن

أول ما يتّسم به أسلوب القرآن هو الفخامة و القوة و الجلال، يكتسبها من انتقاء ألفاظ، لا امتهان فيها و لا ابتذال، و من استخدام ألوان التوكيد و التكرير. تشعر بهذه الفخامة فى كل ما تناوله القرآن من الأغراض، و استمع إليه يصف جنة الخلد قائلا: إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱) وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (۱۲) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (۱۳) وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا (۱۴) وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (۱۵) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (۱۶) وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا (۱۷) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (۱۸) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (۱۹) وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (۲۰) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (۲۱) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (۲۲) (الإنسان ۱۰- ۲۲). و هكذا يكتسب الأسلوب القرآنى قوّته من اختيار ألفاظه و موسيقاه.

و ثانى ما يتصف به التصوير، و قد أوضحنا بعض ذلك فيما مضى، عند ما تحدثنا عن تخيّر اللفظ فى الجملة، و عن التصوير بالتشبيه و الاستعارة، و نضيف إلى ذلك أنه كثيرا ما ينقل الحوار، و يحكى نص القول بعثا للحياة فى الأسلوب، و استمع إلى ألوان الحوار فى قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۳۷) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۷

لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (۳۸) وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۳۹) (الأعراف ۳۷- ۳۹). و الحوار كما ترى ينقل الحقيقة أمامك مصورة.

و ثالث ما يختص به هذا الانسجام الموسيقىّ، الذى فيه تؤلف العبارة من كلمات متّسقة، ذات حركات و سكنات، يشعر المرء عند تلاوتها بما يكمن وراء هذا النظام من موسيقى و اتساق، و إن هذه الموسيقى التى تكمن وراء هذا النظم هى التى مكنت المرتلين من تلاوته بهذه الأنغام الموسيقية، و إن شدّة هذا الانسجام يصل فى بعض الأحيان إلى أن تتفق الآية مع وزن بحر من بحور الشعر، كما نرى ذلك فى قوله تعالى: وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ (سبأ ۱۳). فهى تتفق مع بحر الرمل، و قوله تعالى: وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما

يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ (فاطر ۱۸). مما يتّزن على بحر الخفيف، و قوله تعالى: هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (المؤمنون ۳۶)، مما هو شطر بيت من بحر السريع، و قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (۳) (الطلاق ۲، ۳). مما يوزن على بحر المتقارب، و قوله سبحانه: وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا (الإنسان ۱۴). و بإشباع حركة الميم يوزن على بحر الرّجز، و قوله تعالى: وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (التوبة ۱۴) و زنوه على بحر الوافر، و قوله تعالى: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (۱) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (۲) (العاديات ۱، ۲). و ما على شاكلته، مما يوزن على بحر البسيط. و ليس ذلك بمدخل القرآن فى الشعر؛ لأنه «إنما يطلق متى قصد القاصد إليه، على الطريق الذى يعمد و يسلك، و لا يصح أن يتفق مثله إلّا من الشعراء، دون ما يستوى فيه العامىّ و الجاهل، و العالم بالشعر و اللسان و تصرّفه، و ما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر، و لا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى شاعرا كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو أن تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض فى جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر، و ينتظم انتظامه، أ لا ترى أن العامى قد يقول لصاحبه: «أغلق الباب، و ائتنى بالطعام» ... و متى تتبع الإنسان هذا عرف أنه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله و أكثر منه» «۱».

و يتسم الأسلوب القرآنى بالهدوء عند ما يتطلب الأمر هدوءا و تأملا و فضل تدبر، كما فى الآيات التى تدعو إلى إعمال الفكر، و فى القصص و الأخبار

---

(۱) إعجاز القرآن ص ۵۷.

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۸

و الأحكام، كما فى قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِىَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴) وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِى أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (۶) (الرعد ۲- ۶).

و قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّى أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۷۴) وَ كَذلِكَ نُرِى إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّى هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۷۹) وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۸۰) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) (الأنعام ۷۴- ۸۲).

و حينا يتدفق الأسلوب و يندفع، فى جمل قصيرة، مثيرا بذلك الانفعال السريع العنيف، و ذلك حيث يتطلب هجوم الحق على الباطل هذا العنف المثير، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (۲۱) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۲۲) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (۲۳) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (۲۴) (الأنبياء ۲۱- ۲۴). و قوله تعالى: ذَرْنِى وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً

(۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِينَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (۱۴) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (۱۵) كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (۱۷) إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (۱۸) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۱۹) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۲۰) ثُمَّ نَظَرَ (۲۱) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (۲۲) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (۲۳) فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (۲۴) إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (۲۵) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (۲۶) وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ (۲۷) لا

من بلاغة القرآن، ص: ۱۸۹

تُبْقِي وَ لا تَذَرُ (۲۸) (المدثر ۱۱- ۲۸). أو عند ما يتطلب الأمر إسراعا كما فى قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (۳) وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ (۴) وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (۷) (المدثر ۱- ۷).

و أسلوب القرآن منه المسجوع و منه المرسل، و هو فى كليهما يخالف غالبا ما ألف الناس فى السجع و الإرسال، فالقرآن يلتزم حرف السجع فى أكثر من آيتين، بل قد تكون السورة كلها على حرف واحد، كسورة القمر، التى التزم فيها حرف الرّاء، و من أمثلة ما تعدى فيه السجع جملتين، قوله تعالى: عَبَسَ وَ تَوَلَّى (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (۲) وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (۴) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (۶) وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (۸) وَ هُوَ يَخْشى (۹) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (۱۰) (عبس ۱- ۱۰).

و قد يأتى بين الجمل المسجوعة بجملة لا تتفق فاصلتها مع ما سبقها و لحقها، و كأنما تلك الكلمة تتطلّب عناية خاصة، تستدعى قدرا كبيرا من الرعاية، تثيره هذه المخالفة لنسق الآيات كقوله تعالى: مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (۲۳) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۲۴) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا (۲۹) وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۲) فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) (عبس ۱۹- ۳۷). فأنت ترى كلمتى: طعامه و الصاخة، بخروجهما على النسق، قد أثارا انتباه السامع، و دفعاه إلى التريث و إنعام النظر. كما أنك ترى فى الآيات السالفة أن الكلمة قد تحافظ على وزن زميلتها فى السجع لا فى الحرف الأخير، كما نجد ذلك فى قضبا و نخلا، و قد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى فصل الفاصلة.

و قد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين فى القصر، كما فى قوله تعالى:

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴) وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) (التكوير ۱- ۵)، و حينا تتوازنان فى الطول، و لا يكون باقيا من مظاهر السجع سوى هذه الفاصلة التى تتفق فى آخر الآيات، أما الآيات نفسها فمرسلة، و إن كانت لا تتفق مع مرسل كلام الناس، لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة فى آخرها، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۶۴) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۰

الْعالَمِينَ (۶۵) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶۶) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) (غافر ۶۴- ۶۷)، و فى هذه الآيات فضلا عن ذلك، مظهر من مخالفة السجع القرآنى لسجعنا العادى، فبينا يجلب تكرير الكلمة، لغير تورية أو جناس، ضعفا فى التأليف، إذا به فى نظم الآى يزيدها جمالا و رونقا، و كأنما هذه الكلمة لازمة النشيد، تكرر فتزيده حسنا و حلاوة.

و قد تتوازن الآى القرآنية من غير سجع، كما فى قوله تعالى: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (۲) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (۳) إِذا رُجَّتِ

الْأَرْضُ رَجًّا (۴) وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (۵) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (۷) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (۹) (الواقعة ۱- ۹).

و فی القرآن إرسال، کما فی قوله تعالی: لا تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُولئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ یُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة ۲۲). و هو یخالف إرسالنا العادی بهذه الفواصل فی آخره کما ذکرنا.

***

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۱

الکتاب الثانی

اشارة

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۳

الفصل الأول المعانی القرآنیة

اشارة

سنتناول فی هذا الفصل بعض ما أورده القرآن من المعانی، مبینین النواحی التی تناولها القرآن منها، فلاختیار عناصر الموضوع قیمته فی التأثیر فی النفس الإنسانیة، فلیس رونق اللفظ وحده هو الذی له السلطان علی النفوس، و لکن لجوانب المعانی التی عولجت و علاقتها بالعواطف الإنسانیة و الغرائز البشریة أثر فی السیطرة علی الأفئدة، و امتلاک جوانب القلب، بل إن السحر کل السحر إنما هو فی المقدرة علی انتقاء هذه المعانی، و المقدرة علی حسن التعبیر عنها، و هاک بعض ما تحدث عنه القرآن.

اللّه

صور القرآن اللّه المثل الأعلی فی جمیع صفات الکمال، فهو السمیع الخبیر، علی کل شیء قدیر، غفور رحیم، عزیز حکیم، حی قیوم، واسع علیم، بصیر بالعباد، یحب المحسنین و الصابرین، و لا یحب الظالمین، و یمحق الکافرین، غنی حمید، واحد قهار، نور السموات و الأرض، قوی، شدید العقاب، خالق کل شیء، لا إله إلا هو، علی کلّ شیء شهید، عالم الغیب و الشهادة، هو الرحمن الرحیم، الملک القدوس السلام المؤمن المهیمن العزیز الجبار المتکبر، الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنی، یسبح له ما فی السموات و الأرض و هو العزیز الحکیم، الأول و الآخر، و الظاهر و الباطن، الصمد، لم یلد، و لم یولد، و لم یکن له کفوا أحد، سریع الحساب، غنی عن العالمین، علیم بذات الصدور، بکل شیء محیط، علیّ کبیر، عفو غفور، شاکر حلیم، لیس بظلام للعبید، یجزی المتصدقین، و لا یهدی کید الخائنین، لا یخلف المیعاد، عزیز ذو انتقام، خیر الرازقین، لطیف خبیر، ذو القوة المتین. أ و لیس من یتصف بهذه الصفات المثالیة جدیرا بالعبادة و التقدیس، و ألا یتخذ له شریک، و لا من دونه إله.

و من بین ما عنی القرآن به أکبر عنایة إبراز صفة الإنعام التی یتصف بها اللّه سبحانه؛ فیوجه أنظارهم إلی النعمة الکبری التی أودعها قلوبهم و هی نعمة

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۴

الهدوء و السكينة يحسون بها، عند ما يعودون إلى بيوتهم، مكدودين منهوكى القوى، و إلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام، يجدونها خفيفة المحمل فى الظعن و الإقامة، و إلى اتخاذ أثاثهم و أمتعتهم من أصوافها و أوبارها، و إلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن و الاستقرار، و إن للشمس و حرارتها لوقعا مؤلما فى النفوس و على الأجسام، و من أجمل وسائل الاستتار هذه الثياب تقى صاحبها الحر، و بها تتم نعمة اللّه، فيقول: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (۸۰) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (۸۱) (النحل ۷۹- ۸۱).

و يوجه أنظارهم إلى ما فى خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس، و تجد فى ظلها الرحمة و المودة، فيقول: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الروم ۲۱). و هو الذى يرزقهم، و يرزق ما على الأرض من دواب، لا تستطيع أن تتكفل برزق نفسها، وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (العنكبوت ۶۰). و ينبههم إلى ما فى اختلاف الليل و النهار من تجديد النشاط للجسم، و بعث القوة فى الأحياء و ما فى الفلك المسخرة تنقل المتاجر فوق سطح البحر، فتنفع الناس، و فى الماء ينزل من السماء فيحيى الأرض بعد موتها، و فى الرياح تحمل السحاب المسخر بين السماء و الأرض، ينبههم إلى نفع ذلك كله فيقول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (البقرة ۱۶۴). و يسأل عمن يلجئون إليه، حين يملأ قلبهم الرعب من ظلمة البر البحر، أ ليس اللّه هو الذى ينجيهم منه و من كل كرب، فيقول:

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴) (الأنعام ۶۳- ۶۴).

و يحدثهم عن نعمة تبادل الليل و النهار، و عما خلق له الليل من نعمة الهدوء و السكون، و عن الشمس و القمر يجريان فى دقة و نظام، فيحسب الناس بهما حياتهم، و ينظمون أعمالهم، و عن النجوم فى السماء تزينها كمصابيح، و يهتدى بها السائر فى ظلمات البر و البحر، و عن المطر ينزل من السماء، فتحيا به الأرض و تنبت به الجنات اليانعة، ذات الثمار المشتبهة و غير المشتبهة، و كان للمطر فى

الحياة العربية قدره و أثره، فعليه حياتهم، فلا جرم أكثر القرآن من الحديث عنه نعمة من أجلّ نعمه عليهم، فيقول: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۹۶) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۹۷) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۹۹) (الأنعام ۹۶- ۹۹)، و تحدث عن هذه النعم نفسها مرارا أخرى كقوله:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ (۳۳) وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴) (إبراهيم ۳۲- ۳۴). و تحدث إليهم عما أنعم به عليهم من أنعام، فيها دفء و منافع، و جمال، و عاد فذكرهم بنعمة المطر و إنباته الزرع، و خص البحر بالحديث عن تسخيره، و ما نستخرجه منه من اللحم و الحلى، و ما يجرى فوقه من فلك تمخر عبابه، فقال: وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۷) وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ

لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (۸) وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (۹) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۲) وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۳) وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸) (الأنعام ۵- ۱۸)، و للأنعام فى حياة العرب بالباديـة ما يستحق أن يـذكروا به، و أن يسـجل فضـله عليهم بهـا. و يوجه القرآن نظرهم إلى خلقهم و مـا منحهم اللّه من نعمـة السـمع و البصـر و العقل، فيقول: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (الملك ۲۳). و كثيرا

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۶

مـا امتنّ عليهم بنعمـة الرزق، فيقرّرهـا مرة، و يقررهم بها أخرى، فيقول حينا: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (غافر ۶۴). و يقول حينا: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (يونس ۳۱). و يسترعى انتباههم إلى طعـامهم الـذى هو من فيض فضـله، فيقول: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۲۴) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا (۲۹) وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۲) (عبس ۲۴- ۳۲).

و إن فى إكثار القرآن من الحـديث عن هـذه النعم، و توجيه أنظارهم إليها، و تقريرهم بها، ما يـدفعهم إلى التفكير فى مصدرها، و أنه جدير بالعبادة، و ما يثير فى أنفسهم شكرها و تقديس بارئها، و لا سيما أن تلك النعم ليست فى طاقة بشر، و أنها باعترافهم أنفسهم من خلق العلىّ القدير. و هكذا يتكئ القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها، لتدفع صاحبها عن طريق الإعجاب حينا، و الاعتراف بالجميل حينا، إلى الإيمـان باللّه و إجلاله و تقـديسه. كما أن ذلك الوصف يبعث فى النفس حب اللّه المنعم، فتكون عبادته منبعثـة عن حبه و شـكر أياديه.

و مما عنى القرآن بإبرازه من صـفات اللّه وحـدانيته، لم يلد، و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، و قد أبرز القرآن فى صورة قاطعة أنه لا- يقبـل الشـرك و لا- يغفره: إِنَّ اللَّهَ لا- يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مـا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (النساء ۴۸)؛ و يعد الإشـراك رجسا فيقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا (التوبة ۲۸).

أ و ليس فى هذا التصوير ما يبعث فى النفس النفور منه و الاشمئزاز؟!

و القرآن يعرض لجميع ألوان الإشراك، فيدحضها و يهدمها من أساسها، فعرض لفكرة اتخاذ ولد، فحدثنا فى صراحة عن أنه ليس فى حاجة إلى هذا الولد، يعينه أو يساعده، فكل من فى الوجود خاضع لأمره، لا يلبث أن ينقاد إذا دعى، وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ مـا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (۱۱۶) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضـى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۱۱۷) (البقرة ۱۱۶، ۱۱۷). و حينا يدفع ذلك دفعا طبيعيا بأن الولد لا يكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلد، أما و قد خلق كل شىء، فليس ما يزعمونه ولدا سوى خلق ممن خلق:

بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۷

عَلِيمٌ (۱۰۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۰۲) (الأنعام ۱۰۱، ۱۰۲).

و يعرض مرة أخرى لهذه الدعوى، فيقرر غناه عن هذا الولد، و لم يحتاج إليه، و له ما فى السموات و ما فى الأرض، فيقول: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۶۹) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰) (يونس ۶۸- ۷۰). و يعجب القرآن كيف يخيل للمشركين عقولهم أن يخصوا أنفسهم بالبنين و يجعلوا البنات للّه، فيقول:

أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً (۴۰) (الإسراء ۴۰).

و يصور القرآن- فى أقوى صور التعبير- موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى اللّه، فتكاد- لشدة غضبها- أن تنفجر غيظا، و تنشق ثورة، و تخر الراسيات لهول هذا الافتراء، و ضخامة هذا الكذب، و أصغ إلى تصوير هذا الغضب فى قوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (۸۸) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (۸۹) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (۹۰) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (۹۱) (مريم ۸۸- ۹۱). أما هؤلاء الذين دعوهم أبناء اللّه، فليسوا سوى عباد مكرمين، خاضعين لأمره، و لن يجرؤ واحد منهم على ادعاء الألوهية، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى فجزاؤه جهنم، لأنه ظالم مبين، و هل هناك أقوى فى هدم الدعوى من اعترف هؤلاء العباد أنفسهم الذين يدعونهم أبناء، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين، و من جرؤ منهم على دعوى الألوهية كان جزاؤه عذاب جهنم خالدا فيها، قال تعالى: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (۲۶) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (۲۷) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (۲۸) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۲۹) (الأنبياء ۲۶- ۲۹).

و على هذا النسق نفسه جرى فى الرد على من زعم ألوهية المسيح، فقد جعل المسيح نفسه يتبرأ من ذلك و ينفيه، إذ قال: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) (المائدة ۱۱۶، ۱۱۷).

و تعرض القرآن مرارا لدعوى ألوهية عيسى، و قوض هذه الدعوى من أساسها

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۸

بأن هذا المسيح الذى يزعمونه إلها، ليس لديه قدرة يدفع بها عن نفسه إن أراد اللّه أن يهلكه، و أنه لا امتياز له على سائر المخلوقات، بل هو خاضع لأمره، مقر بأنه ليس سوى عبد اللّه، و ليس المسيح و أمه سوى بشرين يتبوّلان و يتبرّزان، أو تقبل الفطرة الإنسانية السليمة أن تتخذ لها إلها هذا شأنه، لا يتميز عن الناس فى شىء، و لا يملك لهم شيئا من الضر و لا النفع، و لنصت إلى القرآن مهاجما دعوى ألوهية عيسى قائلا: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة ۱۷). لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۷۲) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۷۶) (المائدة ۷۲- ۷۶).

و إن الغريزة لتنأى عن عبادة من لا يملك الضرر و لا النفع. و تأمل جمال الكناية فى قوله: يَأْكُلانِ الطَّعامَ. و المسيح مقر- كما رأيت-

بعبوديته و لا يستنكف أن يكون للّه عبدا، لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (النساء ۱۷۲).

و هاجم القرآن بكل قوة الإشراك باللّه، و هو يهاجم ببلاغته العقل و الوجدان معا فيأخذ فى نقاش المشركين، ليصلوا إلى الحق بأنفسهم، و يلزمهم الحجة، و يقودهم إلى الصواب، فيسألهم عمن يرزقهم، و من يملك سمعهم و أبصارهم، و من يخرج الحى من الميت، و يخرج الميت من الحى، و من يدبر أمر العالم، و من يبدأ الخلق ثمّ يعيده، و من يهدى إلى الحق، و إذا كان المشركون أنفسهم يعترفون بأن ذلك إنما هو من أفعال اللّه، فما قيمة هؤلاء الشركاء إذا، و ما معنى إشراكهم للّه فى العبادة، أو ليس من يهدى إلى الحق جديرا بأن يعبد و يتّبع، أما من لا يهتدى إلا إذا اقتيد فمن الظلم عبادته، و من الجهل اتباعه، و ليست عبادة هؤلاء الشركاء سوى جرى وراءه و هم لا يغنى من الحق شيئا، و تأمل جمال هذا النقاش الذى يثير التفكير و الوجدان معا: يثير التفكير بقضاياه، و يثير الوجدان بهذا التساؤل عن الجدير

من بلاغة القرآن، ص: ۱۹۹

بالاتباع، و تصويره المشرك، مصروفا عن الحق، مأفوكا، ظالما، يتبع الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا، و ذلك حين يقول: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۳۶) (يونس ۳۱- ۳۶).

و فى التحدث إليهم عن الرزق، و هدايتهم إلى الحق، ما يثير فى أنفسهم عبادة هذا الذى يمدهم بالرزق، و يهديهم إلى الحق، و استمع إلى هذا النقاش الذى يحدثهم فيه عن نعمه عليهم، متسائلا:

أ له شريك فى هذه النعم التى أسداها، و إذا لم يكن له شريك فيما أسدى، فكيف يشرك به غيره فى العبادة؟ فقال مرة: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (۵۹) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۶۱) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۳) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶۴) قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (۶۶) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۶۸) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۷۱) (النمل ۵۹- ۷۱). أو ليس فى إنبات الحدائق ذات البهجة، و تسيير الأنهار خلال الأرض، و إجابة المضطر إذا دعا، و كشف السوء، و جعلهم خلفاء الأرض، ما يبعث الابتهاج فى النفس، و الحب للّه، و يدفع إلى عبادته و توحيده ما دام هو الملجأ فى الشدائد، و الهادى فى ظلمات البر و البحر، و مرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته؟ و مرة يسائلهم قائلا:

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۰

وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى

يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۳) (القصص ۷۰- ۷۳). أ و ليس فى الليل السرمد و النهار السرمد ما يبعث الخوف فى النفس، و الحب لمن جعل الليل و النهار خلفة؟!

و كثيرا ما تعجب القرآن من عبادتهم ما لا يضر و لا ينفع. و القرآن يبعث الخوف من سوء مصير هؤلاء المشركين يوم القيامة، فمرة يصورهم محاولين ستر جريمتهم بإنكارهم، حين لا يجدون لها سندا من الحق و الواقع، فيقول:

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (۲۳) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) (يونس ۲۲- ۲۴).

و حينا يصورهم، و قد تبرأ شركاؤهم من عبادتهم، فحبطت أعمالهم، و ضل سعيهم، و ذلك حين يقول: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (۲۹) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰) (يونس ۲۸- ۳۰).

و حينا يصورهم هلكى فى أشد صور الهلاك و أفتكها، إذ يقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (الحج ۳۱). أما المصير المنتظر لمن يشرك باللّه فأن يلقى فى جهنم ملوما مدحورا.

و من أبرز صفات اللّه فى القرآن قدرته، يوجّه النظر إلى مظاهرها، و يأخذ بيدهم ليدركوا آثار هذه القدرة، مبثوثة فى أرجاء الكون و فى أنفسهم، فهذه الأرض هو الذى بسطها فراشا، و تلك السماء رفعها بناء، و هذه الجبال بثها فى الأرض أوتادا، و هذه الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره، و وجه النظر إلى هذه الحبوب فلقها بقدرته، كما فلق النوى ليخرج منه النخل باسقات، و يوجه أنظارهم إلى ألوان المخلوقات و أنواعها وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النور ۴۵). وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۱

لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (۲۲) وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۲۴) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (۲۵) (الروم ۲۰- ۲۵). خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (لقمان ۱۰). و يوجّه النظر إلى توالى الليل و النهار، و تسخير الشمس و القمر، فيقول: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۳۰) (لقمان ۲۹، ۳۰)؛ و كرر ذلك مرارا عدة، كقوله: أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱) (ق ۶- ۱۱).

و يوجّه أنظارهم إلى قدرته فى خلقهم، إذ يقول: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران

۶). و يقول: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (الزمر ۶).

صوّر القرآن قدرة اللّه الباهرة التى لا يعجزها شىء، و التى يستجيب لأمرها كل شىء، بهذا التّصوير البارع إذ قال: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ۸۲).

و لما وجّه النظر إلى مظاهر قدرته، اتخذ ذلك ذريعة إلى إقناعهم بأمر البعث، فحينا يتساءل أمن خلق السموات و الأرض، و لم يجد مشقة فى خلقها يعجز عن إحياء الموتى، فيقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الأحقاف ۳۳). و يقرر أن خلق السموات و الأرض أكبر من خلق الناس، لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (غافر ۵۷). و لذا صح هذا التساؤل ليقروا: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱) وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۳) (النازعات ۲۷- ۳۳).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۲

و سوف نكمل الحديث عن ذلك فى فصل اليوم الآخر.

و من أظهر صفات اللّه فى القرآن علمه، و إحاطة علمه بكل شىء فى الأرض و فى السماء وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (يونس ۶۱). و يقول على لسان لقمان لابنه: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (لقمان ۱۶). أ رأيت هذا التصوير المؤثر لإحاطة علم اللّه بكل شىء، فلا يغيب عنه موضع ذرّة بين طيات صخرة أو فى طبقات السموات، أو فى أعماق الأرض، و يعلم اللّه الغيب، و من ذلك ما يرونه بأعينهم فى كل يوم من أمور غيبيّة، يدركون أنها مستورة عليهم، مع قرب بعضها منهم، إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (لقمان ۳۴). وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى (طه ۷). و اقرأ هذا التصوير الشامل لعلمه فى قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (الأنعام ۵۹). و هكذا يصور القرآن شمول علم اللّه تصويرا ملموسا محسا.

و من أظهر صفاته كذلك شدة قربه إلى الناس، ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (المجادلة ۷). و أمر الرسول بأن يخبر الناس بقربه، يسمعهم و يصغى إليهم إذا دعوا، فقال: وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ (البقرة ۱۸۶). و لا يستطيع فرد أن يعيش بعيدا عن عينه، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الحديد ۴). بل هو أقرب شىء إلى الإنسان، يعلم خلجات نفسه، و يدرك أسراره و خواطره لا يغيب عنه منها شىء، وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ۱۶).

و العدل، و قد أطال القرآن فى تأكيد هذه الصفة، و أكثر من تكريرها، فكل إنسان مجزى بعمله وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (غافر ۳۱). مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت ۱۴۶). و يقرر فى صراحة إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس ۴۴). و إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ (النساء ۴۰).

و إن فى تقرير هذه الصفات و تأكيدها لدفعا للمرء إلى التفكير قبل العمل، كى لا يغضب اللّه العالم بكل صغيرة و كبيرة تصدر منه، و القريب إليه قربا لا قرب

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۳

أشد منه، و فى تأكيد صفتى العلم و القرب ما يبعث الخجل فى الإنسان من أن يعمل ما يغضب اللّه و ما حرمه، و فى تأكيد صفة العدل ما يبعث على محاسبة النفس لأن الخير سيعود إليها ثوابه، و الشر سيرجع عليها عقابه.

و كان وصف القرآن للّه بالرحمة و الرأفة و الحلم و الغفران و الشكر، أكثر من وصفه بالانتقام و شدّة العذاب، بل هو عند ما يوصف بهما، تذكر إلى جانبهما أحيانا صفات الرحمة؛ فكثيرا ما يكرر القرآن معنى قوله: إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (البقرة ۱۴۳). و قوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (النساء ۱۱۰). و أكّد هذا الوصف حتى قال: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الأنعام ۵۴). وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (المؤمنون ۱۱۸). أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (الأعراف ۱۵۵). و يفتح باب رحمته و غفرانه، حتى لمن أسرف و لج فى العصيان، إذ يقول: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر ۵۳). و بذلك كانت الصورة التى رسمها القرآن مليئة بالأمل و الرجاء، تحيى فى النفس التفاؤل، كما أن كثرة وصفه بالرحمة و أخواتها، تجعل عبادة اللّه منبعثة عن الحب، أكثر منها منبعثة عن الرهبة و الخوف، و لكن لما كان كثير من النفوس يخضع بالرهبة دون الرغبة وصف القرآن اللّه بالعزة و الانتقام و شدة العذاب، يقرن ذلك بوصفه بالرحمة حينا، و لا يقرنها بها حينا آخر، فيقول مرة: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة ۹۸). غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ (غافر ۳). إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (فصلت ۴۳). و يقول أخرى: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (الحشر ۷). عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (المائدة ۹۵). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (آل عمران ۴). وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (الزمر ۳۷). و برغم وصفه بالعزّة و الانتقام و الجبروت كانت الصفة الغالبة فى القرآن هى الإنعام و الرحمة و التّفضّل و أنه الملجأ و الوزر، يجيب المضطرّ إذا دعاه، و يكشف السوء، و ينجّى فى ظلمات البرّ و البحر، فهى صورة محبّبة إلى النفوس، تدفع إلى العبادة، عبادة من هو جدير بها، لكثرة فضله و خيره و إنعامه.

و أفحم القرآن من ادّعى الألوهية من البشر إفحاما لا مخلص له منه، و ذلك فى

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۴

الحديث الذى دار بين إبراهيم و هذا الملك الذى ادعى أنه إله، إذ يقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقرة ۲۵۸).

و أرشد القرآن إلى أن العقل السليم و الفطرة المستقيمة يرشدان إلى وجود اللّه و يدلّان على وحدانيته، فهذا إبراهيم قد وجد قومه يتخذون أصناما آلهة، فلم ترقه عبادتهم، فمضى إلى الكون يلتمس إلهه، فلما رأى نورا يشع ليلا من كوكب فى الأفق ظنه إلها، و لكنه لم يلبث أن رآه قد أفل، فأنكر على نفسه اتخاذ كوكب يأفل إلها، إذ الإله يجب أن يكون ذا عين لا تغفل و لا تنام، و هكذا أعجب بالقمر، و استعظم الشمس، و لكنهما قد مضيا آفلين، فأدرك إبراهيم أن ليس فى كل هؤلاء من يستحق عبادة و لا تقديسا، و أنّ اللّه الحق هو الذى فطر السموات و الأرض، و استمع إلى القرآن يصوّر تأمل إبراهيم فى قوله: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۷۴) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام ۷۴- ۷۹).

كان الإيمان باللّه و وحدانيته، أساس الدين الإسلامى، و قد رأينا كيف عنى القرآن بإبراز صفاته التى تتصل بالإنسان خالقا له، و منعما

علیه، و عالما بکل صغیرة و کبیرة تصدر منه، و قریبا منه أقرب إلیه من حبل الورید، و رحیما به، عادلا- لا یظلمه، و لا یغبنه، یهبه الرزق، و یمنحه الخیر، و یجیبه إذا دعاه. أو لیس من له هذه الصفات الکاملة جدیرا من الناس بالعبادة و التقدیس و التنزیه عن النقص و الإشراک؟

محمد

رسم القرآن لمحمد صورة محبّبة إلی النفوس، فیها لین ورقة، و فیها الخلق المثالی، و القلب الرءوف الرحیم، و النّفس الوادعة المطمئنة، نزل علیه روح من أمر اللّه، یهدی إلی الصراط المستقیم، و یخرج الناس من الظلمات إلی النور، یقول اللّه تعالی یخاطبه: ن وَ الْقَلَمِ وَ ما یَسْطُرُونَ (۱) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۵

غَیْرَ مَمْنُونٍ (۳) وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ (۴) (القلم ۱- ۴). و یقول: لَقَدْ جاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ عَزِیزٌ عَلَیْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِیصٌ عَلَیْکُمْ بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ (التوبة ۱۲۸). و یقول: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ کُنْتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ (آل عمران ۱۵۹). و یقول: وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ وَ لکِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِراطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ (الشوری ۵۲، ۵۳). و یقول: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکُمْ ذِکْراً (۱۰) رَسُولًا یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِ اللَّهِ مُبَیِّناتٍ لِیُخْرِجَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ (الطلاق ۱۰، ۱۱).

و یدعوه سراجا منیرا، فی قوله: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً (۴۵) وَ داعِیاً إِلَی اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِیراً (۴۶) (الأحزاب ۴۵، ۴۶). و رحمة فی قوله: وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ (الأنبیاء ۱۰۷). و یأمره باستشارتهم و خفض الجناح لهم إذ یقول:

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ (آل عمران ۱۵۹). و یقول: وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّی أَنَا النَّذِیرُ الْمُبِینُ (۸۹) (الحجر ۸۸- ۸۹).

و لکن هذه الصفات فی سموّها المثالی لم ترفع محمدا عن البشریة، و هذه صفة من الصفات التی أکدها القرآن و أطال فی الحدیث عنها، فهو حینا یثبت هذه الصفة علی لسانه، و حینا ینفی عن نفسه القدرة علی ما لا یقدر علیه البشر، قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ (الکهف ۱۱۰). و هو لهذا لا یملک لنفسه أمرا، و لا یدری من الغیب شیئا، قُلْ لا أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ ما مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (الأعراف ۱۸۸).

و لننصت إلیه یتبرأ من قدرته علی فعل ما لیس فی طاقته، عند ما سألوه ما لیس فی طوقه، وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ قَبِیلًا (۹۲) أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا (۹۳) (الإسراء ۹۰- ۹۳)، و مما یلحظ أنهم طالبوه بأمور یستحیل وجودها فی الصحراء، من تفجیر الأرض ینابیع و أنهارا، و انظر إلیه کیف یعجب من أمرهم، و کیف یقرر فی صراحة أنه لیس سوی بشر رسول. و لأنه بشر، یجوز أن یموت کما یموت سائر البشر، وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلی عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اللَّهَ شَیْئاً وَ سَیَجْزِی اللَّهُ الشَّاکِرِینَ (آل عمران ۱۴۴). و لم یتمیز محمد من البشر إلا بأنه کالرسل بشیر و نذیر، قُلْ ما کُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِی ما یُفْعَلُ بِی وَ لا بِکُمْ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۶

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (الأحقاف ۹). إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (البقرة ۱۱۹). و هو ليس إلا مذكّرا، لا سيطرة له على القلوب، و لا مقدرة عنده على تحويل الأفئدة، فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (۲۱) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (۲۲) (الغاشية ۲۱، ۲۲).

و مما أكده القرآن من صفات محمد الأمّية، يصفه بها فى قوله: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف ۱۵۸). و يبين حكمة اختياره أميا فى قوله: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (العنكبوت ۴۸).

و إذا كانت الأمية مما يعاب فهى المعجزة التى تحول بين رسالة النبى و الشك فيها، و لو أنه كان يقرأ و يكتب، لكان للمبطلين مجال للرّيب فى صدق رسالته.

و القرآن يعظم أمر الرسول، فيحدّثنا عن صلاة اللّه عليه و الملائكة، إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (الأحزاب ۵۶). و يعظم من أمر مبايعته، حتى لكأن من يبايعه إنما يبايع اللّه، إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ (الفتح ۱۰). و يشهد له القرآن بالخلق القويم كما سبق أن نقلنا، و بأنه لا ينطق عن هوى النفس، و لا يميل إلى ضلالة و لا غواية، و يقسم على ذلك: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى (۱) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (۲) وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى (۴) (النجم ۱- ۴)، كما يقسم على رسالته فيقول: وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۳) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۵) (يس ۲- ۵). و يعدّد القرآن نعم اللّه عليه فيقول: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (۱) وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (۲) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (۳) وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (۴) (الشرح ۱- ۴). أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (۶) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (۷) وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى (۸) (الضحى ۶- ۸). و يقسم له القرآن أن اللّه ما تخلى عنه و ما قلاه، و يؤكد أن الذين يناصبونه العداء سيكبتون و يخذلون مذلولين، إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (المجادلة ۲۰). و يحذر المؤمنين من معصيته، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ (المجادلة ۹). و يأمرهم بأن يقفوا عند الحدود التى رسمها الرسول، و لا يبطلوا أعمالهم بعصيانه، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (محمد ۳۳). وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر ۷). وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً (الأحزاب ۳۶). و يؤكد لهم أنهم لن يكونوا

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۷

مؤمنين حقا حتى يجدوا العدالة المطلقة فى أحكامه، و لا يجدوا فيها غضاضة و لا حرجا فى نفوسهم، و يقسم على ذلك قائلا: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء ۶۵). ذلك أنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى.

و إذا كان محمد رسولا، فله حرمته و منزلته الاجتماعية، و من الواجب احترامه، فلا يليق أن ينادى باسمه، كما ينادى الناس بعضهم بعضا، و لا أن ترتفع أصواتهم فوق صوته، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) (الحجرات ۲- ۵). و لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً (النور ۶۳). و فى تربية الشعب على احترام الرسول ما يدفعهم إلى طاعته، فإن الطاعة أساسها الاحترام كما وضع القرآن أساسها الثانى و هو الحب، بما وصف القرآن به محمدا من حبّ لهداية قومه، و حدب عليهم، و رحمة بهم و رأفة، و شوق ملح إلى هدايتهم، حتى صح للقرآن أن يقول: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (الكهف ۶). و هكذا بنى القرآن الطاعة على أساسين من الحب و

الاحترام معا.

و يؤيد القرآن رسالة محمد بشهادة اللّه الذى لا يشهد بغير الحق، وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ (المنافقون ۱). وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (الرعد ۴۳). لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء ۱۶۶). و بأن عيسى قد بشر به قومه، و أخبرهم برسالته، وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِى إِسْرائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (الصف ۶). و بأنه فيما أتى ليس بدعا، فقد أوحى اللّه إلى كثير من الرسل قبله، إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (النساء ۱۶۳).

و بأنه أمى ما كان يتلو قبله كتابا، و لا يخطه بيمينه. كما سبق أن ذكرنا، أ و ليس من يشهد اللّه له بالرسالة، و يبشر به رسول ذو كتاب، و يجرى على سنن من سبقه من الأنبياء- جديرا بأن يصدق إذا ادعى، و أن يطاع إذا أمر؟

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۸

و يناقش من أنكر رسالته، و يدفع دعاويهم فى هدوء و قوّة معا، فأخبرنا القرآن مرّة أنهم كانوا ينسبون ما يعرفه محمد من قصص و أخبار و أحكام إلى عالم فارسى يعلمه، و ما كان أسهل دحض تلك الدعوى بأن لسان من يدعون أنه يعلّم محمدا- أعجمى، أما هذا الكتاب فعربى مبين، وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل ۱۰۳). و حينا نسبوه إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ (الأنبياء ۵)، وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (الصافات ۳۶). فوجه القرآن أنظارهم إلى أن النظرة الصائبة تنفى عن القرآن السحر و الشعر و الكهانة، فللحق آياته البينات التى لا تشتبه بالسحر، وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (سبأ ۴۳). و نفى القرآن عن النبى قول الشعر و الكهانة، وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (يس ۶۹). وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۴۲) (الحاقة ۴۱، ۴۲).

و من أكبر ما أنكروه على الرسول أنهم وجدوه لا يمتاز على البشر فى شىء فهو يأكل الطعام كما يأكلون، و يمشى فى الأسواق يبيع و يشترى كما يمشون، و ظنوا أنه لا يكون نبيا إلا إذا امتاز بملك ينذر الناس معه، أو أصبح غنيا غنى مطلقا عن الناس، فألقى إليه كنز، أو كانت له جنة يأكل منها، و قد حكى القرآن عنهم ذلك الحديث، و ردّ عليهم ردّا رفيقا فى قوله: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِى فِى الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (۷) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (۸) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۹) تَبارَكَ الَّذِى إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (۱۰) (الفرقان ۷- ۱۰). فهو يشير فى رفق إلى أن الحكمة إنما هى فى أن يساوى الرسول الشعب فى الاحتياج، حتى لا يكون امتيازه على الناس فى أمور لا تتصل بالرسالة، و لا دخل لها فى النبوة، و حتى يبقى تقويم الرسول بعيدا عن زخارف الحياة و ما ليس من صميم الرسالة، فقد يتهيأ الغنى الفاحش لفرد من الناس، من غير أن يجلب له ذلك رسالة و لا نبوّة و لو أراد اللّه لفعل للرسول ما اقترحوه و زاد عليه، و لكن الخير و الحكمة فيما كان، أما ما اقترحوه من نزول الملك مع الرسول فقد رد عليه فى قوله: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹) (الأنعام ۸، ۹).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۰۹

أ لا ترى أن نزول الملك كما اقترحوا لا يدع لهم فرصة التفكير بعد نزوله، و من الخير أن يترك لهم مجال التدبّر و تقليب الأمر على

وجوهه، و إنزال الملك لن يحل المشكل، لأنه سيكون فى هيئة رجل، و يلتبس الأمر كما لو كان الرسول رجلا و القرآن برغم ذلك، يوحى بأن الرسول كانت عنده رغبة ملحة فى أن يحقق لهم بعض ما اقترحوه ليؤمنوا، و لتجتمع كلمتهم على الدين، حتى صحّ للقرآن أن يقول للرسول: وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (الأنعام ۳۵).

و يقول فى أخرى: فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (هود ۱۲).

و كانت صفة البشرية حائلة دون الايمان به، و مدعاة للهزء بالرسول و السخرية به، فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (القمر ۲۴). وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (المؤمنون ۳۴). و قد رد اللّه تلك الدعوى بأن الحكمة تقضى بأن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم، ليكون أدنى إلى نفوسهم، يألفونه و يسهل اتصالهم به، و لو أن فى الأرض ملائكة يسكنونها، ما أرسل اللّه إليهم رسولا، سوى ملك من جنسهم، قال سبحانه: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا (۹۴) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا (۹۵) (الإسراء ۹۴- ۹۵).

و عند ما تعرّض القرآن للاستهزاء بالرسول، كان لا- يعنيه كثيرا الردّ على ما يتعلق بشخص الرسول، بل ينتقل مباشرة إلى صميم الدعوى يناقشهم فيها، و يحدثهم عن مغبّة كفرهم، قال تعالى: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (۳۶) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (۳۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا- يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا- عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا- هُمْ يُنْصَرُونَ (۳۹) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۴۰) (الأنبياء ۳۶- ۴۰). أ لا تراه قد مرّ مرّ الكرام باستهزائهم بالرسول، و كأنه لغو لا يؤبه له، و لا- يستحق الالتفات إليه، و لا- التّنبّه لشأنه، و انتقل من ذلك إلى الحديث عما يعنى القرآن بشأنه، من الحديث عن اللّه و اليوم الآخر، و ما ينتظرهم من عذاب كان جديرا به أن يصرفهم عن التمادى فى الباطل، لو أنهم فكروا فى الأمر و تدبّروا العاقبة، و يقول فى موضع آخر: وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (۴۱) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۰

عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۴) (الفرقان ۴۱- ۴۴). و هو هنا أيضا ينتقل إلى صميم الدعوى، فيتحدث عن اتخاذهم الهوى إلها، و أنهم لا يستخدمون آذانهم و عقولهم فيما خلقت لأجله، فصاروا بذلك أضل سبيلا من الأنعام.

و يهوّن القرآن على الرسول أمر الاستهزاء به و تكذيبه، فحينا يخبره بأن ذلك دأب الرّسل، يكذّبون برغم ما يجيئون به من البينات و الهدى، و يؤكد له مرة بأن هؤلاء الساخرين سينالهم ما نبئوا بنزوله بهم، و كانوا يسخرون و لا يطيعون، فيقول للرسول: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ (آل عمران ۱۸۴). وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (الأنعام ۱۰).

و ينذر القرآن المكذبين و المستهزئين بأن عاقبتهم كعاقبة من كذّب الرسل من قبل: أخذ شديد و عقاب أليم، و هنا يلجأ القرآن إلى غريزة المحافظة على النفس، فيصوّر رفض الدعوة و التكذيب لها معرّضا أنفسهم للتهلكة، و جالبا الوبال عليها، فما ذا تكون النتيجة إذا هم أصرّوا على كفرهم؟ أ ضمنوا أعمارا طويلة، يصلحون فيها ما كانوا قد أفسدوه؟ أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (الأعراف ۱۸۵). أأمنوا مكر اللّه؟ أم اطمأنوا إلى أن القيامة لن تأتيهم فجأة؟ أ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (يوسف ۱۰۷). إنهم بنهيهم عنه، و نأيهم عنه لا- يضرون إلا- أنفسهم و لا- يهلكون غيرها، وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ

(الأنعام ۲۶). و لن يضرّ الرسول بكفرهم، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (النحل ۸۲). فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ (الشورى ۴۸).

أ و ليس فى قصر أمر الرسول على البلاغ، ما يدفعهم إلى التفكير فى أمر هذه الدعوة التى لن يحمل عبء أضرار رفضها غيرهم، و التى يتحمّل الرسول المشاق فى سبيل إذاعتها، لا يبغى من وراء ذلك أجرا، و لا يريد إلا أن تصل الهداية إلى قلوبهم، قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (سبأ ۴۷).

و إن فى تنزّه الرسول عن الغرض المادىّ، و إخلاصه فى دعوتهم و إرشادهم، لبعثا لهم على تدبر أمر هذه الدعوة المبرأة من الهوى و الغرض، و النفس بطبيعتها تنقاد لمثل هذه الدعوة و تؤمن بها. و قد دعاهم القرآن إلى التفكير فى شأن الرسول،

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۱

فرادى و جماعات، ليقلبوا أمره على وجوهه، و يتفكروا أ به جنّة أو شذوذ؟ و سوف يصلون إذا فكروا إلى أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد.

و يمضى القرآن محببا لهم إجابة دعوة محمد، مبينا طبيعتها، و أنها توافق الإنسانية السليمة، فهو لا- يأمر إلا بما تعترف به النفوس الصحيحة و لا ينهى إلا عما تنكره، و لا يحلّ سوى الطّيب، و لا يحرّم سوى الخبيث، و أنه يعمل على تخليصهم من عادات ثقيلة على النفوس، و قيود كانت تغل حياتهم، و قد خفف الإسلام كثيرا من القيود التى كانت على أهل الكتاب، يقول اللّه: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف ۱۵۷). أما الأميون، و قد كانوا فى ضلال مبين فإنه يعلمهم الكتاب و الحكمة و يهديهم، هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الجمعة ۲). و يجعل طريق حب اللّه و نيل رضوانه اتباع منهجه و الاقتداء به، قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (آل عمران ۳۱). و من أطاعه فسيكون مع من أنعم اللّه عليهم من أكرم الرفقاء، وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (النساء ۶۹). و من آمن و عمل صالحا فسوف يورّثه اللّه الأرض، و يمكن له دينه، و يبدله بالخوف أمنا و طمأنينة، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً (۵۵) (النور ۵۵).

و لا يكتفى القرآن بالوعد المحبوب حين طلب إليهم طاعة الرسول، بل أنذرهم و أوعدهم، و أكّد لهم أن النهاية ستكون نصرا مؤزرا للرسول أ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها (التوبة ۶۳). و يقول: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (النور ۶۳). إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (الأحزاب ۵۷). و يخاطب الرسول قائلا:

وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (الأنعام ۳۴). و ينزل القرآن إلى أعماق نفوسهم، فيحدثنا عن شكوكهم التى تنتابهم، فهم يقولون فى أغوار قلوبهم: إذا كان محمد

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۲

على صواب، و نحن على خطأ، فلم يدعنا اللّه أحرارا فى هذه الحياة و لا يعذبنا بسبب هذه التّصرّفات، و اللّه ينبئهم بأن جهنم مصيرهم المنتظر، أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (المجادلة ۸).

و يعلم القرآن ما لحوادث التاريخ من الأثر فى النفوس، و لذا أكثر، فى معرض الأمر بطاعة الرسول، من توجيه أنظارهم إلى من كذّب

من الماضين كيف كانت عاقبتهم، فلعلهم يتّعظون بها، فيسأل: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (۲۱) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۲) (غافر ۲۱، ۲۲). و يقصّ عليهم قصص الماضين كقوله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۱۴) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۱۸) (فصلت ۱۳- ۱۸).

و لم يأل القرآن جهدا فى تصوير من لا- يستجيب إلى دعوة محمد فى صورة ينفر منها العاقل، و يأنف من أن تكون صورته، فحينا يرسمهم أمواتا لا يعون، صما لا يسمعون، عميا لا يبصرون، فيقول: وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (۲۳) (فاطر ۲۲، ۲۳).

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (۴۳) (يونس ۴۲، ۴۳).

و أكثر القرآن من أمر الرسول بالصّبر، و هو خليقة أولى العزم من الرسل فقال:

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (الأحقاف ۳۵). و قال: وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا (الطور ۴۸). و قال: وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (النحل ۱۲۷). و قال: وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا (المزمل ۱۰). إلى غير ذلك

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۳

من كثير الآيات التى تدعو الرسول إلى الصبر، و تحثه عليه، و لا- ريب أن دعوة دينية جديدة تتطلب زادا لا- ينفد من الصبر على المكروه حتى تنجح و تؤتى ثمارها.

أما المنهج الذى رسمه القرآن، لكى ينهجه محمد فى دعوته، فقد بينه فى قوله:

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (النحل ۱۲۵). و تلك هى خطة الإقناع التى تتألف القلوب و تستهوى الأفئدة.

و لكى أكمل الصورة التى رسمها القرآن لمحمد صلوات اللّه عليه، أضعه بين صحبه الذين أخلصوا له، فهم رحماء فيما بينهم، أشداء على أعدائهم، قد أخذ أمره بهم يشتد، كما يشتد الزرع إذا أخرج براعمه، فيصبح مرآة باعثا الزراع على الإعجاب به، فهم بين يدى اللّه يبتغون رضوانه، و أمام أعدائهم قوة لا- يستهان بها، ترى تلك الصورة فى قوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (الفتح ۲۹).

القرآن

هو العلم الخاص بهذا الكتاب الذى نزل على محمد، لم يشركه غيره من كتب اللّه فى هذا الاسم، و قد اختار الكتاب العزيز له من الصفات ما يوضّح رسالته، و الهدف الذى نزل من أجله، فهو هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (البقرة ۹۷). هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ

الْفُرْقانِ (البقرة ۱۸۵). هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (آل عمران ۱۳۸).

هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ (فصلت ۴۴). يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (الأحقاف ۳۰). أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (۱) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (۲) (الكهف ۱، ۲). فرسالة القرآن الأساسية هداية الناس إلى الحق و طريق الصواب، و تبشير المهتدى و إنذار الضال، إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۰) (الإسراء ۹، ۱۰).

و إذا كان الكتاب قد أنزل للهداية صحّ وصفه بأنه شفاء، أ ليس هو بلسما يبرئ أدواء القلوب، و دواء لعلل النفوس، وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الإسراء ۸۲). و صح وصفه بأنه كالمصباح، يخرج الناس من الظلمات إلى النور،

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۴

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (إبراهيم ۱). و بأنه لم يدع سبيلا للإرشاد إلا بيّنه، وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ (النمل ۸۹). و لما كان كتاب هداية كان واضحا فى دلالته، بيّنا فى إرشاده، هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (العنكبوت ۴۹). و كان خير ذكرى، يلجأ إليه المسترشد فيرشد، و الضال فيجد عنده التوفيق و الهداية، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (الأنعام ۹۰). وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ (الزخرف ۴۴). وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا (الإسراء ۴۱). و هو ذكر مبارك، ناضج الثمر، جليل الأثر، وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ (الأنعام ۹۲). و هو حق لا مرية فيه لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت ۴۲). و هو قول فصل وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (الطارق ۱۴). و كتاب حكيم، و ذكر مبين، قد أحكمت آياته، ثم فصلت.

أ ليس كتاب هذا شأنه و تلك صفاته جديرا بالاتّباع، خليقا بالاسترشاد و الاقتداء، أو ليس فى تلك الصفات ما يحرك النفس إلى الاستماع إليه، و تدبر آياته، و الإنصات إلى عظاته، و لا سيما أنه كثيرا ما يقترن بذكر الحكمة، و فى الحكمة ما يغرى بحبها و اتباعها، إذ يقول: كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (البقرة ۱۵۱).

و ردد القرآن كثيرا أنه نزل من اللّه بالحق، وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ (الإسراء ۱۰۵). و يؤكد ذلك فى قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (الإنسان ۲۳). و ينفى أن يكون وحى شيطان، أو أن يستطيع الشياطين الإيحاء بمثله، وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (۱۹۳) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (الشعراء ۱۹۲- ۱۹۴).

وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (۲۱۰) وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ (الشعراء ۲۱۰، ۲۱۱). و يؤكد فى صراحة أن الإنس و الجن مجتمعين لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن، و لو ظاهر بعضهم بعضا، و إذا كان المجىء به مما ليس فى طوق مخلوق فمن غير المعقول أن يفترى من دون اللّه، وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (يونس ۳۷). و لما ادعى المعارضون أن محمدا تقوّله أو افتراه تحداهم القرآن أن يأتوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (الطور ۳۴). ثم تحداهم أن ائتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (هود ۱۳). ثم نزل إلى سورة مثله، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (القصص ۵۰).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۵

و يتحدث القرآن فى صراحة عما كان يمكن أن ينتظر محمدا من الجزاء الصارم لو أنه افترى أو تقوّل، فقال: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (۴۴) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (۴۶) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (الحاقة ۴۴- ۴۷). أ رأيت كيف يصوّر القرآن، كيف يلتزم محمد ما أوحى إليه، من غير أن يستطيع تعدى الحدود التى رسمت له، فى جلاء و وضوح، لأنه ليس سوى

رسول عليه بلاغ ما عهد إليه أن يبلغه فى أمانة و صدق.

كما ردد كثيرا أنه بلسان عربى مبين، إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (يوسف ٢).

و فى ترديد هذه الفكرة و دفع العجمة عن القرآن، ما يدفع العرب إلى التفكير فى أمره و أن كونه بلسانهم ثمّ عجزهم عن المجىء بمثله، مع تحديهم صباح مساء، دليل على أنه ليس من عند محمد، و لا قدرة لمحمد على الإتيان بقرآن مثله، و هو بهذا الوصف يقرر عجزهم الدائم، و أنه لا وجه لهم فى الانحراف عن جادة الطريق، و ما يدعو إليه العقل السليم، و التفكير المستقيم.

و قرّر أنه كتاب متشابه مثان، و معنى تشابهه أن بعضه يشبه بعضا فى قوة نسجه، و عمق تأثيره، و إحكام بلاغته، فكل جزء مؤثر بألفاظه و أفكاره و أخيلته و تصويره، و معنى أنه مثان أن ما فيه من معان يثنى فى مواضع مختلفة، و مناسبات عديدة، فيكون لهذا التكرير أثره فى الهداية و الإرشاد، و هو بهذا التكرير يؤدى رسالته التى جاء من أجلها، و لذا كان بتشابهه و تكرير ما جاء به من عظات، مؤثرا أكبر الأثر فى القلوب، حتى لتقشعرّ منه جلود أولئك الذين يتدبرونه، و تنفعل له قلوبهم، ثم لا يلبثون أن تطمئن أفئدتهم إلى هداه، و تهدأ نفوسهم إلى ذكر اللّه، اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (الزمر ٢٣). و يعرف القرآن ما له من تأثير قوى بالغ حتى لتتأثر به صم الحجارة إذا أدركت معناه، لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (الحشر ٢١).

و مع طول القرآن و تعدد مناحيه لا عوج فيه، و لا اضطراب فى أفكاره و لا أخيلته، أو لا ترى أن أمّيا لا يستطيع تأليف كتاب على هذا القدر من الطول من غير أن يقع فيه الخلل و الاختلاف و الاضطراب، أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (النساء ٨٢).

و مما أكده القرآن أنه مصدّق لما نزل قبله من التوراة و الإنجيل، و إلى جانب

من بلاغة القرآن، ص: ٢١٦

ذلك، سجل القرآن ما قابله به أهل الكتاب و المشركون، من كفر به و إنكار له، أما بعض أهل الكتاب فقد مضوا يكابرون، منكرين أن يكون اللّه قد أنزل كتابا على إنسان، و ما كان أسهل دحض هذه الفرية بما بين أيديهم من كتاب موسى، يبدون بعضه و يخفون الكثير منه، قال سبحانه: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام ٩١). و لم يزد الكثير من أهل الكتاب نزول القرآن إلا تماديا فى الكفر و شدة فى الطغيان، قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (المائدة ٦٨). و قالوا إن محمّدا يتعلم القرآن من إنسان عليم بأخبار الماضين، و كان من السهل أيضا إبطال تلك الدعوى، فإن هذا الذى زعموه يعلمه ذو لسان أعجمى، وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل ١٠٣). ثم زعموا أنه إفك اختلقه، و أعانه على إتمامه سواه ممن يعرفون أساطير الأولين و يتقنونها، و هنا يرد القرآن فى هدوء بأن هذه الأسرار التى فى القرآن، و التى ما كان يعلمها محمد و لا قومه، إنما أنزلها الذى يعلم أسرار السموات و الأرض، وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۶) (الفرقان ۴- ۶). و نزلوا فى المكابرة إلى أعمق درك، فزعموا مرة أن ليس ما فى القرآن من أخبار سوى أضغاث أحلام، و حينا زعموا أنه قول شاعر، و أن القرآن لا يصلح أن يكون آية قاطعة كآيات الرسل السابقين، بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (الأنبياء ۵). و لم يتحمل القرآن الرد على دعوى أضغاث الأحلام لتفاهتها، و وضوح بطلانها، و لكنه نفى أن يكون القرآن شعرا بوضوح الفرق بين القرآن و الشعر، الذى لا يليق أن يصدر من محمد، و جعلوا القرآن سحرا من محمد، لا صلة للّه به، و هنا يبين

القرآن مدى مكابرتهم، فيقول: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (الأنعام ٧).

و مضى بعض الناس يذيع الأحاديث الباطلة ليضل عن سبيل اللّه، و يصم أذنيه عن سماع القرآن مستكبرا مستهزئا به، و القرآن يغضب لموقف هؤلاء شديد الغضب، و ينذرهم كما استهزءوا، بعذاب يهينهم و يؤلمهم، وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ

من بلاغة القرآن، ص: ٢١٧

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧) (لقمان ۶، ٧).

و من عجب أن كثيرا من الكافرين كان لا يرضى عما فى القرآن من أفكار التوحيد و العبادة، فكان يطلب من الرسول أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن، فكان رد الرسول صريحا فى أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من تلقاء نفسه، وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس ١٥).

و مما اعترضوا به على القرآن أنه نزل منجّما، و اقترحوا أن ينزل دفعة واحدة، و لكن القرآن ردّ على هذا الاقتراح، بأن نزوله على تلك الطريقة، فيه تثبيت لفؤاد الرسول، ليكون دائم الاتصال بربه، أو ليس فى نزوله كذلك تثبيت لأفئدة المؤمنين أيضا إذ ينقلهم القرآن بتعاليمه مرحلة مرحلة إلى الدين الجديد، و يروى القرآن هذا الاعتراض، و يرد عليه فى قوله سبحانه: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) (الفرقان ٣٢، ٣٣).

و لقد تعبوا فى صدّ تيار القرآن الجارف، و وقف أثره فى النفوس فما استطاعوا ثم هداهم خيالهم الضّيق إلى طريقة يحولون بها بين القرآن و سامعيه تلك هى الصّخب عند سماع القرآن و اللغو فيه، و لما كان فى ذلك استقبال لا يليق بالقرآن قابله اللّه بتهديد عنيف، و إيعاد شديد، إذ يقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨) (فصلت ٢۶- ٢٨). و ذلك أقوى دليل على الإخفاق، و أنه لا حجة عندهم يستطيعون أن يهدموا بها حجة القرآن.

و حرّك القرآن فيهم غريزة الخوف إن كذبوا به، فسألهم ما ذا تكون النتيجة إذا ثبت حقّا أنه من عند اللّه، و ظلوا كافرين به، أ يكون ثمّ من هو أضل منهم أو أظلم، يثير تلك الغريزة فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (فصلت ٥٢). و يقف منهم موقف من بين الخير و الشر، ثم تركهم لأنفسهم يفكرون، ألا يثير فيهم ذلك كثيرا من الخوف من أن ينالهم سوء إعراضهم بأوخم العواقب، إذ يقول: إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الزمر ۴١).

من بلاغة القرآن، ص: ٢١٨

أما سورة الفرقان فيراد به هنا القرآن، كما أنه فى مواضع أخرى يطلق على كتب اللّه، لأنها تفرق بين الحق و الباطل، و الصواب و الخطأ.

و لعل «١» بدء هذه السورة بقوله سبحانه: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (الفرقان ١). فيه دلالة على أنها تحوى إنذارا و وعيدا و تهديدا، و حقا لقد اتسمت هذه السورة بالرد المنذر على كثير من دعاوى المنكرين لأحقية القرآن و رسالة محمد و وحدانية اللّه، و قد بدأها بالحديث عن منزل القرآن، و تفرده بالملك و تعجبه من أن اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً (الفرقان ٣). و بدأ بعد ذلك يعدد مفترياتهم على القرآن و تشكيكهم فى رسالة محمد، ثم يتعمّق فى السبب الذى دفعهم إلى إنكار القرآن و نبوة محمد، فيراه التكذيب باليوم

الآخر، و كأنما غضبت جهنم لهذا التكذيب، حتى إنها إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (الفرقان ۱۲).

و يمضى فى تصوير ما ينتظرهم فى ذلك اليوم من مصير مؤلم موازنا بين ذلك، و بين جنة الخلد التى وعد المتقون، ثم يعود إلى أكاذيبهم، فيردّ على بعضها، و يبسط بعضها الآخر، واضعا إلى جانب هذه الأكاذيب ما ينتظرها من عقوبة يوم الدين، و هنا يلجأ إلى التصوير المؤثر، يرسم به موقفهم فى ذلك اليوم، علّه يردهم بذلك إلى الصواب، إذا ذكروا سوء المغبة؛ و تأمل قوة تصوير من ظلم نفسه بهجر القرآن و تكذيبه، فى قوله: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (۲۷) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا (۲۹) وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) (الفرقان ۲۷- ۳۰). و يعود مرة إلى شبهة من شبهاتهم فى القرآن فيدحضها و ينذرهم بشر مكان فى جهنم، و يعدد لهم عواقب من كذب الرسل من قبلهم. ثم يأتى إلى إثم آخر من آثامهم باستهزائهم بالرسول الذى كاد يصرفهم عن آلهتهم، لو لا- أن صبروا عليها، و هنا يناقشهم فى اتخاذ هذه الآلهة التى لا يصلح اتخاذها إلها إذا و زنت باللّه الذى يعدد من صفاته ما يبين بوضوح و جلاء أنهم يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَ لا يَضُرُّهُمْ (الفرقان ۵۵). و يطيل القرآن فى تعداد صفات اللّه و بيان مظاهر قدرته. و إذا كانت السورة قد مضت تنذر المنكرين و تعدّد آثامهم، فإنها قد أخذت تذكر كذلك صفات المؤمنين الصادقين، ليكونوا إلى جانبهم مثالا واضحا للفرق بين الصالح و الطّالح، و لتكون الموازنة بينهما

---

(۱) فى تحليل هذه السورة نموذج آخر لوحدة السورة و الارتباط بين آياتها.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۱۹

مدعاة إلى تثبيت النموذجين فى النفس، و ختمت السورة بالإنذار بأن العذاب نازل بهم لا محالة، ما داموا قد كذبوا، فكانت السورة كلّها من المبدأ إلى المنتهى تتجه إلى الوعيد، ما دامت تناقش المنكرين فى مفتريات تتعلق بالقرآن و من نزل عليه القرآن، و قد رأينا كيف كان يقرن كل افتراء بما أعدّ له من العذاب.

يوم القيامة

له فى القرآن أسماء كثيرة تطلق عليه فى المواضع المختلفة، لتوحى هذه الأسماء فى أماكنها بالمعانى التى يستدعيها المقام، فهو اليوم الآخر و الآخرة، عند ما يكون فى مقابلة الحديث عن الدنيا و موازنته بها، أو عند الحديث عنه ملاحظا فيه هذا التقابل، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ (آل عمران ۱۴۸). و قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (الأعراف ۱۶۹).

و يدعى بيوم القيامة مثيرا فى النفس هذه الحركة المائجة المضطربة، التى ينبعث فيها الأموات من أجداثهم كالجراد المبثوث؛ و بيوم الدين ملحوظا فيه أنه اليوم الذى يجزى فيه كل إنسان بعمله خيرا أو شرا، و لما كان المثيب و المعاقب يومئذ هو اللّه وحده كان جميلا رائعا قوله: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (الفاتحة ۴). و بيوم الفصل إذ فيه يفصل بين الصواب و الباطل فصلا عمليّا لا شبهة فيه. و بيوم البعث لأنه يوم الحياة بعد الموت؛ فإذا دعى بالساعة كان ملاحظا فيه عنصر المفاجأة الباغتة؛ أو بالحاقة فلأن وجودها حق لا مرية فيه؛ أو بالقارعة فلشدّة هولها و ما فيها من مصائب و أهوال، أو بيوم الآزفة فلأنها شديدة القرب و المفاجأة.

و قد عنى القرآن أيّما عناية بأهمية الإيمان باليوم الآخر، يذكره كلما ذكرت صفات المؤمن المثالىّ، و يقرن الإيمان به بالإيمان باللّه، حتى لا- يذكر الإيمان باليوم الآخر منفردا دونه، فيقول: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة ۶۲). و يقول: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ

(البقرة ۱۷۷). و أوعد القرآن شديد الوعيد من كفر باليوم الآخر، و قرنه كذلك بمن كفر باللّه، فقال: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً (النساء ۱۳۶). و قال:

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۰

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ (التوبة ۲۹). و سرّ العناية باليوم الآخر أن الإيمان به يعدّ الدعامة الأولى فى بناء الدين كله، و إذا انهار هذا الأساس انهار الدين، فلم يعد له من بقاء، فعقيدة المرء فى الحساب و أنه مجزىّ بعمله، على الخير و الشر، هى التى تدفعه إلى التفكير السليم، كى يصل إلى العقيدة الصحيحة التى يؤمن بها، و إلى العمل الصالح و اجتناب مساوئ الأمور، كى يجزى على الخير بالحسنى، و يتّقى أليم العذاب، و لو أن عقيدة البعث قد انمحت، ما كان للفضيلة سلطان على نفوس الجماهير يقودها، رهبة و رغبة، و قد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (النمل ۴). و قوله سبحانه: إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (النحل ۲۲). و لما كان لليوم الآخر هذه الأهمية فى بناء الدين، عنى القرآن بغرس عقيدته فى النفوس، و تصويره منذ أول عهد الدعوة، و لهذا كان أكثر الحديث عنه فى السور التى نزلت بمكة.

و قد دلل القرآن فى مواطن كثيرة على أن اليوم الآخر آت لا ريب فيه، يبرهن على ذلك بقدرته على خلق هذا العالم و ما فيه، أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (۹) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (۱۲) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (۱۳) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (۱۴) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (۱۵) وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (۱۶) (النبأ ۶- ۱۶). بل يؤيد مقدرته على البعث بما هو معروف لدينا، من أن إعادة ما عمل العامل أسهل عليه من بدء العمل، فيقول: وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (الروم ۲۷). و يقول وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (۷۸) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (۷۹) الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۱) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۸۲) (يس ۷۸- ۸۲). فأنت تراه هنا يعجب من هذا الذى ينكر البعث ناسيا بدء خلقه، و أنه لم يكن شيئا مذكورا، فأخذ يتساءل من يستطيع أن يحيى العظام البالية، فأجابه القرآن فى يسر بأن الذى أنشأها أول مرة هو الذى يحييها، و هو عالم بكل صغيرة و كبيرة، فى الخلق، ففى مستطاعه أن يعيد ما بدأ خلقه، أو ليس هذا القادر على أن يخلق النار من الشجر الأخضر المليء بالماء قادرا على أن يعيد خلقهم؟ أو ليس من خلق السموات و الأرض و هى بهذه الفخامة و الإحكام قادرا على أن يخلق مثل هذا الإنسان الحقير الضئيل، لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۱

مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (غافر ۵۷). و تنتهى الآيات بتصوير قدرة اللّه، يستجيب لها الكون فى خضوع و سرعة، فلا يلقى اللّه أمرا حتى يخضع الكون لأمره، و لا يلبث أن يقول لشيء كن، حتى يتحقق و يكون. و فى سورة أخرى يؤكد قدرته على جمع عظام المرء و تسوية أدق ما فيه من هذه العظام، و هى عظمة البنان، فيتساءل متعجبا، ثم يجيب فى تأكيد: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (۳) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (۴) (القيامة ۳، ۴).

و يقرّب القرآن أمر البعث إلى نفوسهم، فيوجه أنظارهم إلى الأرض الميتة ينزل عليها الماء، فتنبعث فيها الحياة، و تنبت من كل زوج بهيج، فيقول: وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فصلت ۳۹). و يقول: وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (فاطر ۹). و إذا كانوا يرون هذه الظاهرة فى كل حين، فمن المعقول أن يكون لها شديد التأثير فى نفوسهم، لقربها منهم، و قوة دلالتها على قدرة اللّه على بعث الحياة فى الجماد الميت.

و حفل القرآن بكثير من صور هذا اليوم، يرسم الطبيعة فيه و الناس: أما الأرض فإنها تميد تحت الأقدام مزلزلة مرتجفة، تنشقّ فى كل مكان، مخرجة أثقالها، و يقف الإنسان فى ذهول و دهشة يتعجب: ما لهذه الأرض قد خرجت على طبيعتها الهادئة، فثارت تلك الثورة المريعة؟! و تظل الأرض تلفظ ما بداخلها، تنبئ بأنها تفعل ما تفعل بأمر اللّه الذى أوحى بذلك لها، إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (۱) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (۲) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (۳) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (۴) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (۵) (الزلزلة ۱- ۵). و أما الجبال فتصبح فى هشاشة الصوف وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعة ۵). ثم لا- تلبث أن تنمحى من فوق صفحة الأرض، فتصبح مستوية لا عوج فيها و لا ارتفاع، وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً (۱۰۵) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (۱۰۶) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (۱۰۷) (طه ۱۰۵- ۱۰۷). و تتفجر البحار، و تتبعثر القبور مخرجه ما استودعته من أشلاء البشر، وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵) (الانفطار ۳- ۵). و يشتد ارتجاج الأرض و ارتجافها، حتى لينكرها الإنسان، و يجف لها قلبه، و يراها أرضا غير ما ألف، و تربة مضطربة لا عهد له بها من قبل، يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا (المزمل ۱۴). يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (إبراهيم ۴۸).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۲

و أما السماء فإنها تطوى كما يطوى السجل كتابا، فلا تعود ترى بناء محكما، كما نراها بأعيننا فى هذه الحياة الدنيا، بل تصبح بيّنة الفجوات ظاهرة الشقوق، و مما يزيد الأمر هو لا هذا الغمام المتكاثف يمور فى السماء مورا يبعث الرهبة و الفزع يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ (الأنبياء ۱۰۴). و وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا (الفرقان ۲۵). و يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (۱۰) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (الطور ۹- ۱۱). و يلف الكون ظلام دامس، فالكواكب تنتثر لا رابط بينها، و لا اتّساق ينظمها، و الشمس ينمحى ضوؤها، فتصبح كرة مظلمة لا يشع منها نور يضىء أرجاء الكون، و تنكدر النجوم التى كانت تبدو فى السماء كأنها مصابيح، فينطمس نورها، و لما فقدت الجاذبية بين الكواكب انتثرت فى الجو، و يملأ النفس رعبا أن ترى الشمس و القمر قد اقترنا مجتمعين، لا ضوء لهما و لا بهجة، إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (۲) (الانفطار ۱- ۲). و إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) (التكوير ۱، ۲). فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (۹) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (۱۰) كَلَّا لا وَزَرَ (۱۱) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) (القيامة ۷- ۱۲).

فى هذه الظلمة الحالكة يخرج الناس من أجداثهم فى سرعة و هلع، أما الأبصار فخاشعة، و أما القلوب فواجفة، يذهلهم ما لم يكونوا قد ألفوه من كون قد تبدّل و تغير، يخرجون فى كثرة بالغة جماعات جماعات كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (القمر ۷). يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (المعارج ۴۳). يسيرون على غير هدى، و كأنهم يهربون من الظلمة، أو يفرون مما يرونه أمامهم من مناظر تبعث الرعب، و تثير المخافة. و لا- يلبثون أن يدعوا إلى الحساب، حتى يسرعوا إلى الدّاعى متهافتين، كما يتهافت الفراش المبثوث، ظنا منهم أن سوف يجدون عنده الأمن و الطمأنينة.

و لا تشعر النفوس و قد خرجت من أجداثها، بأنها قضت وقتا طويلا تحت أطباق الثرى، بل كأنها قد غادرت الدنيا منذ وقت قصير، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (النازعات ۴۶).

و يزيد النفوس رهبة أن يمدوا أبصارهم فيروا النار تتلظى، و قد اشتد أوار لهبها، وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (النازعات ۳۶). فلا عجب أن بعث هذا اليوم فى النفوس هولا و رهبة، فشعرت به عابسا مكفهرا، و أن تبلغ القلوب فيه الحناجر اضطرابا و خوفا، وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ (غافر ۱۸). و أن

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۳

يملك الهول قلوب المبعوثين هولا- يشيب له الوليد، فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (المزمل ۱۷). و لم لا يشيب الوليد، و هذه الأرض ترتجف تحت قدمه، و الكواكب قد انتثرت تتهاوى و تضطرب، مظلمة كدرة، و هذه الشمس و القمر قد اجتمعا

مظلمين اجتماعا يبعث الرهبة فى النفوس؟!

و لما كان ذلك يوم الجزاء، وقف الملائكة جند الرحمن صفا، خاضعين لأمر اللّه، ينفذون ما يأمر به فى ذلك اليوم، و إن فى وقف الملائكة صفا ما يزيد فى رهبة هذا اليوم و جلاله، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (النبأ ۳۸).

و قد تحدث القرآن عن المفاجأة التى يذهل لها من كان ينكر يوم البعث، و يصور القرآن مشهد الحديث يدور بين من آمن بالبعث و من كفر به، و يصور ذهول هؤلاء و قد فوجئوا بيوم القيامة، فيقول: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) (الروم ۵۵- ۵۷).

يبدأ الحساب، فيناقش هؤلاء الذين لم يرعوا حق يومهم هذا، و أنكروه، و لم يصغوا إلى إنذار الرسل، بل غرتهم الحياة الدنيا، وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۱۳۰) (الأنعام ۱۲۸- ۱۳۰). ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (سبأ ۴۰، ۴۱). و قال الذين كفروا: وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (۲۰) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (۲۳) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲۴) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۷) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (۲۸) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (۳۲) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) (الصافات ۲۰- ۳۳). أ رأيت استسلامهم فى ذلك،

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۴

و التعجب من أن بعضهم لا ينصر بعضا، كما كان شأنهم فى الدنيا، بل إن بعضهم يسأل بعضا، و يبرأ بعضهم من بعض، و يؤكد القرآن مرة أخرى معنى انصراف كل إنسان إلى نفسه، و عنايته بأمره فحسب، إذ يقول: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) (عبس ۳۴- ۳۷). يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (النحل ۱۱۱). وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (البقرة ۴۸).

فى هذا اليوم الذى حشر فيه الناس جميعا، و شغل كل فرد فيه بنفسه عمن عداه، تتراءى للمرء أعماله، و يعود إلى ذاكرته ما قدم من خير، أو سوء، و يقرأ هذه الأعمال مسجلة عليه، فهو يقرأ فى كتاب منشور، و القرآن يعرض عرضا مؤثرا من يرى نفسه قد قدم خيرا، و من يرى الشر غالبا عليه، فيقول: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (۱۹) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (۲۰) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۲۱) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۲۲) قُطُوفُها دانِيَةٌ (۲۳) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (۲۴) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (۲۶) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (۲۷) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (۲۸) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (۲۹) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (۳۱) (الحاقة ۱۹- ۳۱). و يعجب الكفار من دقة الإحصاء و التقييد، وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (الكهف ۴۹).

و توزن الأعمال و تنال تقديرها، فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (۶) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (۸) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (۹) وَ ما

أَدْراكَ ما هِيَهْ (۱۰) نارٌ حامِيَةٌ (۱۱) (القارعة ۶- ۱۱).

و ينزل إلى أغوار النفوس عند ما ترى أعمالها، فما تراه من خير تسفر به وجوهها، وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (آل عمران ۳۰). و تشتد الحسرة بمن كفر حسرة تملك قلبه، وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (النبأ ۴۰). يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (النساء ۴۲).

و يصور تصويرا ناطقا ما يشعر به من خسر عمله من تفاهة الحياة الدنيا، فيتمنى أن له كان قد قدم من العمل الصالح ما يستفيد به فى هذه الحياة الباقية التى يشعر بها الحياة الحقة الدائمة، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (۲۳) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (۲۴) (الفجر ۲۳، ۲۴).

لا عجب إذا أن تفصح الوجوه عما تحس به النفوس، و أن نرى وجوها تتلألأ ابتهاجا و نورا، و وجوها قد خبا ضوؤها، و أظلمت، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۵

وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۰۷) (آل عمران ۱۰۶، ۱۰۷). و يصف القرآن هذه الوجوه فى موضع آخر، فيقول: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (۴۱) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲) (عبس ۳۸- ۴۲).

و تتعدد المناظر فى هذا اليوم الحافل، فهذا قد حوسب حسابا يسيرا، و انقلب إلى أهله مسرورا، و ذاك قد أوتى كتابه وراء ظهره، فعاد خاسرا يدعو ثبورا، و هذه طائفة قد اشترت بعهد اللّه و أيمانهم ثمنا قليلا، فأعرض اللّه عنهم، وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (آل عمران ۷۷).

و تلك طائفة قد بخلت بما آتاهم اللّه من فضله، فيصهر ما بخلوا به، و يطوّقونه، و هذا أعمى قد أعرض عن ذكر اللّه فى الدنيا، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (۱۲۴) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (۱۲۵) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (۱۲۶) (طه ۱۲۴- ۱۲۶). و هؤلاء أناس قد اسودّت وجوههم لكذبهم على اللّه، و هؤلاء مجرمون قد قرنوا فى القيود و الأصفاد، قد لبسوا سرابيل من قطران، و تغشى وجوههم النار، إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) (غافر ۷۱، ۷۲).

و هؤلاء ضالّون فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا (الإسراء ۹۷). و هؤلاء كفار قد ملأهم الذهول فشخصت أبصارهم فى رعب و خوف. و من أكثر الصور تأثيرا فى ذلك اليوم صورة هؤلاء المجرمين، و قد نكسوا رءوسهم عند ربهم قائلين: رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (السجدة ۱۲). و لكن أنى يستجاب لهم، أو يسمع دعاؤهم. أ و ليس من الخير أن يبادروا إلى الإيمان فى الدنيا، حيث ينفع الإيمان قبل أن يقفوا هذا الموقف اليائس، و قبل أن يجابوا بأن يقال لهم: فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (السجدة ۱۴).

و إن الأسف ليشتد بهؤلاء حين يرون العذاب، فيتمنون أن تكون لهم كرة ليكونوا من المحسنين، و ذلك إنذار بما يترقبهم من يأس قاتل، من الخير ألا يضعوا أنفسهم فى مكانه. و من أشد هذه الصور تأثيرا كذلك هذا التقاطع الذى يتم بين المشركين بعضهم و بعض، و بينهم و بين ما كانوا يشركون من دون اللّه، ف الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (الزخرف ۶۷). ثم قيل لهم:

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۶

أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (۷۴) (غافر ۷۳، ۷۴). وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ

النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (العنكبوت ۲۵). وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (۱۳) (الروم ۱۲، ۱۳). و إذا كانت تلك الخاتمة نهاية صلة المشركين بعضهم ببعض و بما كانوا به يشركون، فمن الطبيعى أن يتدبروا مصيرهم فى هذه الحياة، قبل ألا يكون ثمة مجال للرجوع عن الخطأ و لا للاعتراف بالحق، و قبل أن يقال لهم و هم فى ذهول و رهبة: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (۹۸) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ (۹۹) (الأنبياء ۹۸، ۹۹). تلك هى الصورة التى رسمها القرآن لليوم الآخر، و هى صورة تبعث فى النفس الرهبة، من شهود هذا اليوم بلا إعداد له إعدادا يكون سياجا بين المرء و ما يحذره من هذه الأهوال، و درعا يقيه الشدائد و الخطوب، و تدعو المرء إلى التفكير السليم فى المصير، حتى يهيّئ له ما يصل به إلى السلامة و النجاة.

و قد وازن القرآن كثيرا بين الحياة الدنيا و الآخرة، فيرى نعيم الحياة الدنيا فى الآخرة قليلا ضئيلا، كمتاع يستمتع به مسافر على عجل، و يقول: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ (آل عمران ۱۸۵). فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (التوبة ۳۸).

و يرى عذاب الآخرة أشد العذاب، و هو أشد و أبقى من عذاب هذه الحياة، وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى (طه ۱۲۷). و بعد الحشر و الحساب ينقسم الناس جماعات، يساق بعضها إلى جهنم، و يمضى بعضها الآخر إلى الجنة، و ها هو ذا القرآن يصور هذه الجماعات، حاشدة تمضى إلى قدرها المقسوم، و تستقبل بما يليق بها و ما تستحقه، فيقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۱) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲) وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (۷۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۷۵) (الزمر ۷۱- ۷۵). و هكذا ينقسم الناس: فريق فى الجنة، و فريق فى السعير.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۷

الجنة

تحدث القرآن كثيرا عن الجنة و ما فيها من النعيم، الذى ينتظر من آمن و عمل صالحا، و عند ما أراد أن يقرّب إلى أذهاننا سعة هذه الجنة و ضخامتها، قال:

وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (آل عمران ۱۳۳). و لما كان العرض عادة أضيق من الطول ترك للخيال أمر تصور طول يكون عرضه السموات و الأرض؛ و قد أعد فى هذه الجنة مساكن وصفها القرآن بأنها طيّبة، تطيب فيها الحياة، و يسعد فيها المقيم.

عنى القرآن أكثر ما عنى و هو يتحدث عن الجنة بأن الأنهار تجرى من تحتها، فكثيرا ما تسمع فيه هذا الوصف الذى ورد فى قوله سبحانه: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة ۸۹). و لا ريب أن للأنهار منظرا يروق العين، و يثلج النفس، و يهيج القلب، فضلا عن أن الماء يوحى بمعنى الحياة و الاطمئنان إليها، و ليست هذه الأنهار الجارية مياها متدفقة فحسب، و لكنها أنهار متنوعة بين ماء عذب، و لبن سائغ، و خمر شهى، و عسل صاف، مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى (محمد ۱۵). و من هذه الأنهار يعب الشاربون كما يشاءون. و لا يكتفى القرآن بذكر هذه الأنهار الجارية فيها، بل يحدثنا عن العيون المتفجرة فى أرجائها، و لتفجر العيون فى النفس أثره المبهج السار.

و يعيش أهل الجنة فى جو لا يؤذيه حر الشمس و لا قوة البرد، لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (الإنسان ۱۳). و لكنها ظل ظليل لا

يمحوه وهج الشمس، و قد أكثر القرآن من الحديث عن ظلّ الجنة، فقال مرة: وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (النساء ۵۷). و قال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ (المرسلات ۴۱). و قال: أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها (الرعد ۳۵). و قال:

وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها (الإنسان ۱۴). و قال: هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (يس ۵۶). و الظل مما تجد النفس عنده الطمأنينة، و تشعر لديه بالهدوء و الغبطة يلجأ إليه السائر فى حرّ الظهيرة، فيجد راحة نفسه و هدوء قلبه، و كأن

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۸

القرآن بهذا الوصف يعقد مباينة تامة بين النار الملتهبة لا يجد فيها الإنسان مأوى من لظاها، و بين الجنة ذات الظل الوافر الظليل.

و أجمل القرآن مرّة ما فى الجنة من نعيم الطعام و الشراب حين قال: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ (الزخرف ۷۱). و خص القرآن من بين أنواع الطعام، الفواكه بالحديث يجمعها حينا، و يعدد بعض أنواعها حينا آخر، و يتحدث عن قرب مجتناها، و دنو قطوفها، فقال مرة: أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۴۳) (الصافات ۴۱- ۴۳). و قال ثانية:

وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (۷۳) (الزخرف ۷۲، ۷۳). و قال أخرى: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَواتا أَفْنانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (۵۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۵) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۹) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (۶۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۱) وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (۶۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۳) مُدْهامَّتانِ (۶۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۵) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (۶۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۷) فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) (الرحمن ۴۵- ۶۸). وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (۵۰) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (۵۱) (ص ۴۹- ۵۱). وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (۲۷) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ (۳۳) (الواقعة ۲۷- ۳۳). إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (۳۱) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (۳۲) (النبأ ۳۱- ۳۲).

و أشار إلى اللحم بعامة، و لحم الطيور بخاصة فى موضعين من القرآن. و لعل العناية بذكر الفاكهة، مع أن القرآن قد أشار إلى أن فى الجنة من كل الثمرات، و بذكر اللحم تشير إلى ما فيه أهل الجنة من الترف و النعيم، فالمعتاد أن هذين النوعين من الطعام يسعد بغزارتهما الأغنياء المترفون.

و خص القرآن من بين أنواع الشراب الماء و اللبن و الخمر و العسل، و تحدث كثيرا عن خمر الجنة و ما تمتاز به من خمر هذه الحياة، فهى خمر خالصة للذة لا تعتدى على العقل، و لا تنتهب قواه، يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (۴۷) (الصافات ۴۵- ۴۷). خمر يحتفظ فيها الشارب بخير

من بلاغة القرآن، ص: ۲۲۹

ما أعطى من النعم و هو عقله، و إذا كانت الخمر يجمل شربها من يد ساق جميل، فقد أعد فى الجنة هؤلاء السقاة وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (الطور ۲۴).

هذا إلى ألوان أخرى من الشراب، خصت بها الجنة، هذا، و ما فى الجنة من ألوان الطعام و الشراب دائم لا نفاد له، إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (ص ۵۴).

و يقدم الطعام و الشراب فى صحاف و أكواب صنعت من الذهب و الفضة وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (۱۵) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (۱۶) (الإنسان ۱۵، ۱۶).

أما ملابسهم فمن الحرير و الإستبرق «۱»، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ (الكهف ۳۱). و يجلسون متقابلين مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (الرحمن ۵۴). و عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (۱۶) (الواقعة ۱۵- ۱۶).

يتحدثون، و قد بدت على وجوههم البهجة و السرور، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (المطففين ۲۴). قد اطمأنت نفوسهم إلى هذا النعيم المقيم، و ملأ الرضا نفوسهم فلا غلّ فيها و لا حفيظة، وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (الحجر ۴۷)، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ (الأعراف ۴۳). و هذا مجلس من مجالس أهل الجنة يصفه القرآن في قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (۹) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۱۰) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (۱۱) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (۱۲) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴) وَ نَمارِقُ «۲» مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِيُ «۳» مَبْثُوثَةٌ (۱۶) (الغاشية ۸- ۱۶). و يصف مجلسا آخر من مجالسها قائلا: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (۱۰) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۱۴) عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ «۴» (۱۹) وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (۲۳) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (۲۵) إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً (۲۶) (الواقعة ۱۰- ۲۶). قد امتلأت نفوسهم بالغبطة لرضا اللّه عنهم و رضاهم عن نتيجة أعمالهم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (المائدة ۱۱۹). و تدور بينهم أطيب الأحاديث و أسعدها، و ها هم أولاء قد ضمهم مجلس، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۵۰) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (۵۳) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (۵۵) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ

---

(۱) ثخين الديباج.

(۲) وسائد

(۳) طنافس.

(۴) تذهب عقولهم.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۰

(۵۸) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۰) (الصافات ۵۰- ۶۰).

و ها هم أولاء قد ضمهم مجلس ثان، وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۵) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (۲۶) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (۲۷) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (۲۸) (الطور ۲۵- ۲۸). و يصورهم يَتَساءَلُونَ (۴۰) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (۴۱) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (۴۲) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (۴۳) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (۴۴) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (۴۵) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (۴۶) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (۴۷) (المدثر ۴۰- ۴۷).

وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (الأعراف ۴۷).

أ و ليس في هذا التصوير ما يدفع إلى التفكير العميق حذرا من كارثة مقبلة.

و يملأ هذه الجنة أنسا هؤلاء الزوجات اللاتي جمعن بين جمال الجسم و جمال النفس، فهن حور كواعب، كأنهن الياقوت و المرجان، عين كأنهن بيض مكنون، أما خلقهن فإنهن يتزيّن بأجمل صفات النساء و أسماها، و هي صفة العفة التي عبر القرآن عنها بقصر الطرف، إذ وصفهن مرارا بقوله: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (ص ۵۲). و بذا كله تصبح الجنة كما وصفها القرآن- نعيما و ملكا

كبيرا.

تلك هى الجنة كما رسمها القرآن، نعيم مقيم، و لذة دائمة، و متعة لا تنفد، و قد يقال إن القرآن قد أكثر من ذكر اللذائذ الجسمية، و المتع الجسدية، و لكن يجب ألا ننسى أن الإنسان الطبيعى الكامل جسما و عقلا يسرّ لهذه اللذائذ و يهش لها، و يتمنى أن لو عاش تلك الحياة السعيدة المنعمة، فليس فى الطبيعة البشرية زهد فى اللذائذ و لا كراهة لها، فلا جرم كان الوعد بالحصول عليها جزاء العمل الطيب، مغريا بهذا العمل و حاثا عليه، و لم يعمل الناس و يجاهدون؟ إنهم يعملون للحصول على مستوى رفيع فى الحياة، يمكنهم من الحصول على السعادة الجسمية و الروحية، و من يزعم أن الطبيعة البشرية المثالية تتجه إلى الزهد أو تميل إليه فهو مغال مسرف، بل جاهل بحقيقة الطبيعة البشرية، فالناس فى هذه الحياة يجاهدون ليصلوا بحياتهم المادية إلى مستوى سام رفيع، و يحصلوا على أكثر ما يستطيعون الحصول عليه من هذه السعادة المادية، لها يجاهد الناس، و من أجلها تقتتل الأمم، و كان لذلك وصف النعيم مثيرا فى النفس رغبة العمل لنيله و الحصول عليه، و كان وصف لذائذ الجنة المادية مما يتفق مع طبيعة الإنسان، و القرآن بهذا يلحظ الجانب الواقعى من حياة الإنسان. و مع قوة ما للنعيم المادى من أثر فى قوة توجيه المرء إلى الصالح النافع، لم ينس القرآن اللذة الروحية فى وصف نعيم الجنة، فهذا الرضا النفسى عن نتيجة الأعمال التى قدمها المرء فى هذه الحياة، و السرور برضوان اللّه، لكل هذه لذة روحية سامية، بل لقد أشار القرآن

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۱

إلى أن هذا الرضوان من اللّه أكبر من هذه اللذائذ حين قال: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة ۷۲). أ رأيت أن القرآن لم يغفل الجانب الروحى فى الإنسان، جانب السرور بمغفرة اللّه و رضوانه، و أنه لم يغفل غرائز الإنسان التى تندفع إلى طلب اللذائذ واجدة فى هذه الملذات سعادتها و هناءتها، و لو أن القرآن اقتصر على وصف اللذة الروحية، كان فى ذلك الاتجاه انحراف عن الطريق الطبيعى الذى تسير فيه الطبيعة الإنسانية السليمة.

النار

أما جهنم فقد أعدت لِلطَّاغِينَ مَآباً (۲۲) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (۲۳) (النبأ ۲۲، ۲۳). و يقال لهم و قد كبكبوا فيها: هذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (۱۵) (الطور ۱۴، ۱۵). و قد أجاد القرآن فى تصويرها تصويرا يبعث الرهبة فى النفوس و الهلع فى القلوب، و الخوف من أن يكون المصير إليها، فتلجأ إلى العمل تتقى به لظاها، و تتخذه ستارا بينه و بين لفحها، و إذا كان عرض الجنة عرض السموات و الأرض، و كان من السعة بحيث يشعر أهلها بالطلاقة و الحرية أنى ساروا، فعلى العكس من ذلك النار فإن ساكنها لا يحس بحرية و لا طلاقة، و لكنه يحس بالضيق، و كأنى بأهل النار يرصّ بعضهم رصّا إلى جوار بعض، لا يكادون يجدون متسعا للحركة و لا الانتقال، و يزيد من ضيقهم أنهم مقيدون فى السلاسل، مقرنون فى الأغلال، يسحبون على وجوههم و يلقون فى النار، وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (الفرقان ۱۳). إِذِ الْأَغْلالُ فِى أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) (غافر ۷۱، ۷۲). و ليس ذلك لضيق فى النار، و لكن للتضييق على ساكنها، أما النار فتسع أكثر من داخليها، يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (ق ۳۰).

و تلتهب نيران جهنم بوقود من الناس الطغاة و الحجارة، و إن الصلة لوثقى بين أهل النّار و الحجارة، فإنّ أهل النار لا يميّزهم من الحجارة، ما يمتاز به الناس من العقل و الإدراك و الحسّ، بل لقد ألغوا عقولهم، فلم يفهموا بها الحق و الصواب، و لم يفكروا بها التفكير السليم المنتج، و ألغوا أعينهم، و آذانهم، فلا يهتدون بما يرون و لا بما يسمعون، وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۲

الْغافِلُونَ (الأعراف ۱۷۹). أو ليس الغافل أشبه شيء بالجماد، و بم يصير الإنسان إنسانا بغير عقله و إدراكه. و من حطب جهنم كذلك جند إبليس الذين كانوا يغوون الناس و يضلونهم، فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ (۹۴) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (۹۵) (الشعراء ۹۴- ۹۵).

كما يقذف في النار أولئك الآلهة التي كانوا يعبدون من دون اللّه، و هنا يوجه القرآن أنظارهم إلى أن ما يعبدونه لو كان يستحق أن يكون إلها ما صح أن يلقى في نهار جهنم خالدا فيها، إذ يقول: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (۹۸) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ (۹۹) (الأنبياء ۹۸، ۹۹).

و يصوّر القرآن شدّة لهيب هذه النيران بضخامة ما يتطاير منها من الشرر، فهو ليس بذرات صغيرة كهذه الذّرّات التي تتصاعد من نار هذه الحياة الدنيا، و لكنه شرر كجذوع الشجر الضخم، أو الجمال الصفر، إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (۳۲) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳) (المرسلات ۳۲، ۳۳). فليترك المجال للخيال، يتصوّر هذه النيران تلقى مثل هذا الشرر.

هذه النيران الملتهبة يسمع لظاها من مدى بعيد، فكأنما تبدى غيظها مما اقترفه هؤلاء الجناة، و استمع إليه يصوّر ذلك في قوله: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۶) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (۷) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (الملك ۶- ۸). أو لا تحس في هذا التصوير بقوة غضب النيران يملؤها، حتى لتكاد تضيق به و تنفجر، و في هذه النيران ذات اللظى، يتنفسون لهبها لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (هود ۱۰۶). و ليصوّر خيالك هذا اللهب يتنفسون منه و يزفرون، ليصوّر خيالك هذه النيران تحيط بالعصاة من فوقهم و من تحت أرجلهم، وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۵۴) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵) (العنكبوت ۵۴، ۵۵). فهي مهادهم، و منها غطاؤهم، و ليصوّر الخيال هذه الوجوه تتقلّب في النيران، و الرءوس تنزع منها شواها، و هذه الأجسام تتخذ ثيابها من النار، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ (الحج ۱۹). و هذه الجلود كلما احترقت و صهرت، استبدلت بجلود أخرى، ليبدأ عذابهم من جديد، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ (النساء ۵۶). و هكذا لا يجدون في وسط هذه النيران ظلا يحسون عنده ببرد الراحة، اللهم إلا ظلّ دخان قد تفرق و انتشر شعبا، فصار ظلا لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (المرسلات ۳۱). وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (۴۱) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ «۱» (۴۳) لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ (۴۴) (الواقعة ۴۱- ۴۴). و يظلون في هذا العذاب

---

(۱) دخان.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۳

خالدين، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ «۱» (الزخرف ۷۵). و عليهم حرس مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (التحريم ۶).

و أمّا طعامهم فمن شجرة الزقوم، و هي شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۶۶) (الصافات ۶۴- ۶۶).

و هي طَعامُ الْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ «۲» يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (۴۶) (الدخان ۴۴- ۴۶).

و جعل اللّه طعامهم في موضع آخر مِنْ ضَرِيعٍ «۳» (۶) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (۷) (الغاشية ۶، ۷). فإذا أرادوا الشراب سقوا من عين آنية «۴»، و شربوا حميما «۵»، و غساقا «۶»، و إن ما يتصاعد منه من حرارة يشوى الوجوه شيّا، إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (الكهف ۲۹). و هم يملئون بطونهم من هذا الطعام، و يقبلون على شرابهم في شراهة كشراهة الهيم، فيقطع أمعاءهم، و لا يكتفي الأمر بأن يشربوا من هذا الحميم، و لكنه يصبّ من فوق رءوسهم، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (الحج ۲۰).

لا- عجب إذا إن حاول هؤلاء النزلاء أن يفروا من جهنم، و لكن أنى لهم الفرار، و قد أعدت وَ لَهُمْ مَقامِعُ «۷» مِنْ حَدِيدٍ (۲۱) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۲۲) (الحج ۲۱، ۲۲). أو إن تمنوا أن لو كانوا ترابا، أو دعوا اللّه أن ينالهم بالهلاك المبيد، لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (الفرقان ۱۴)، يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴) (المعارج ۱۱- ۱۴). أ رأيت كيف يشتد العذاب بأصحاب النار، حتى يتمنى أحدهم أن يفدى نفسه بابنه، الذى يتمنى المرء أن يفديه بنفسه، بل يتمنى أن لو هلك الناس جميعا، و نجا وحده.

فى هذا اللهب المشتعل الذى لا يموت من فيه موتة تريحه، و لا يحيا حياة يرضاها- يلعن أهل النار بعضهم بعضا، فإذا حوتهم جهنم جميعا قال الرعاع عن سادتهم: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ (الأعراف ۳۸). فيجيبهم اللّه بأن لكل منهم ضعفا، و يقول السادة للرّعاع: أنتم مثلنا فى العذاب، و لن يخفف عنكم فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (الأعراف ۳۹). و ينادى على السيد منهم، فيقال لمعذبيه: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ «۸» إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ

---

(۱) يائسون.

(۲) ما ذاب من بعض المعادن أو القيح أو صديد الميت.

(۳) جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبا فإذا يبس تحامته الإبل و هو سم قاتل.

(۴) متناهية فى الحر.

(۵) ماء حار.

(۶) ما يغسق من صديد أهل النار أى يسيل.

(۷) سياط.

(۸) قودوه بعنف.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۴

الْحَمِيمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴۹) (الدخان ۴۷- ۴۹). و يشتد الخصام بينهم و بين ما كانوا يعبدون من دون اللّه، و يدركون مقدار ما كانوا عليه من الخطأ و الضلال قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۹۷) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۹۸) وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (۱۰۰) وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (۱۰۱) (الشعراء ۹۶- ۱۰۱). و يندمون على عصيان اللّه و رسوله، و يتمنون أن لو كانوا قد أطاعوهما، وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (۶۷) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶۸) (الأحزاب ۶۷، ۶۸). و حينا يتجه هؤلاء الضعاف إلى رؤسائهم فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (۴۷) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (غافر ۴۷، ۴۸). و يتجه هؤلاء العصاة إلى اللّه، و يصور القرآن ذلك فى قوله، يوجه إليهم الأسئلة فيجيبون: أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۱۰۵) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (۱۰۶) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (۱۰۷) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ (۱۰۸) إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۰۹) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (۱۱۰) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (۱۱۱) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (۱۱۲) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (۱۱۳) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱۴) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (۱۱۵) (المؤمنون ۱۰۵- ۱۱۵). و حينا يصطرخون فيها قائلين: رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (فاطر ۳۷).

فيسألون: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (فاطر ۳۷). و فى النار لا يسعهم إلا اعترافهم بذنوبهم فها هم أولاء الخزنة يسألونهم، كلما أقبل فوج منهم: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (۸) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (۹) وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (۱۰) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (۱۱) (الملک ۸- ۱۱). و حينا يجيبون إجابة من يريد أن يموه، طمعا فى النجاة حيث لا مطمع، فإذا قيل لهم: أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً (غافر ۷۳، ۷۴). و حينا يصمتون وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (الشعراء ۹۲، ۹۳).

و يتجه أصحاب النار حينا إلى خازنها، و يتضرعون أن يقضى ربهم عليهم، فتكون الإجابة قاضية على آمالهم، بأنهم مخلدون لا يفتر عنهم العذاب،

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۵

وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۸) (الزخرف ۷۷، ۷۸)، و حينا و قد أضناهم العذاب يتوسلون لخزنة جهنم أن ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (۴۹) قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (۵۰) (غافر ۴۹، ۵۰). و حينا يتساءلون عن رجال مضوا إلى الجنة مع أنهم كانوا يعدونهم من الأشرار، فإذا اتجهت أبصارهم تلقاء أصحاب الجنة نادوا أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۵۱) (الأعراف ۵۰، ۵۱).

و أكبر ما يتمنون يومئذ أن يكون لهم شفعاء، فيشفعوا لهم، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (الأعراف ۵۳).

ذلك وصف حافل للعذاب الجسمى فى جهنم، أما العذاب الروحى فشعور هؤلاء المجرمين بأنهم محجوبون عن رضوان اللّه الذى خلقهم، و أنعم عليهم بما قل من النعم أو كثر، ثم قابلوا نعمه بالجحود و النكران، وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ (البقرة ۱۷۴). كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ۱۵). و فى كفران النعمة شقاء نفسى، يتعذب له الضمير، و يشقى من أجله الوجدان.

الجهاد

قوبل الدين الجديد بأعنف مظاهر المعارضة، و اجتمع أعداؤه يريدون القضاء عليه، و يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يخنقوه فى مهده، و أن يبيدوا فكرته و مبادئه، و لم يقفوا عند حد الجدل اللسانى، أو المعارضة القولية، بل تعدوا ذلك إلى أشد ألوان الإيذاء، فحملوا بقسوة على من اعتنق هذا الدين الجديد، حتى أصبح مقامهم فى وطنهم عبئا لا يحتمل، و جحيما لا يطاق، ففروا بدينهم إلى المدينة، و ضحوا فى سبيل عقيدتهم بأموالهم. و أهليهم، فكان من الطبيعى أن يسمح لمعتنقى هذا الدين الذى اتخذ شعاره: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (النحل ۱۲۵). أن يعدوا العدة للدفاع عن أنفسهم، و الدفاع عن عقيدتهم، حتى يتدبر الناس أمرها فى حرية و أمن، و يتدبروا ما فيها من الحق و الصواب، فيعتنقوها عن اقتناع، و يدخلوها مطمئنين، لا يخافون، و قد بين القرآن ذلك فى قوله: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (۳۹) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (الحج ۳۹، ۴۰). و إن أحق ما يعطاه

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۶

المظلوم من الحقوق الدفاع عن النفس، ليعيش آمنا فى سربه، مطمئنّا إلى حياته، لا يخشى أحدا على نفسه و لا عقيدته، و الجهاد هو

الذى يدفع شرّة العدو، و يحول بينه و بين الاعتداء و التعدى، فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (النساء ۸۴).

و إذا كان للجهاد، هذا الأثر القوى فى تأمين الجماعة الناشئة على نفسها و عقيدتها، فلا جرم كان له مكانه الممتاز بين مبادئ هذا الدين و قواعده، حتى إنه لينكر أن يسوى به غيره مما لا يبلغ قدره و قيمته، فيقول: أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۹) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲) (التوبة ۱۹- ۲۲).

و يقول: لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (النساء ۹۵).

أ رأيت هذا التكرير و ما يحمله من معانى التوكيد، مثبتا فى النفس فضل الجهاد و قدره و قيمته.

و القرآن يعترف بأن الجهاد فريضة ثقيلة على النفوس، لا تتقبله فى يسر، و لا تنقاد إليه فى سهولة، فهو يعلم ما لغريزة حب الذات من أثر قوى فى حياة الإنسان و توجيه أفعاله، و لذلك تحدث فى صراحة، مقررا موقف النفس الإنسانية، من تلك الفريضة الشاقة، التى يعرض المرء فيها حياته لخطر الموت، و قد طبعت النفوس على بغضه و كراهيته، فقال كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة ۲۱۶). و يقرر فى صراحة أن نفوس المسلمين قد رغبت فى أن تظفر بتجارة المكيين الآئبة من الشام، و التى يستطيعون الاستيلاء عليها من غير أن يريقوا دماءهم فى قتال مرير مع القرشيين، إذ يقول: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (الأنفال ۷).

و إذا كانت النفس الإنسانية تجد الجهاد فريضة شاقة، فقد جمع القرآن حولها من المغريات ما يدفع إلى قبولها قبولا حسنا، بل إلى حبها و الرغبة فيها.

و إذا كان أول ما يثنى المرء عن الجهاد هو حبه للحياة و بغضه للموت، فقد أكد

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۷

القرآن مرارا أن هذا الذى يقتل فى سبيل اللّه حىّ عند ربه يرزق، و إن كنا لا نشعر بحياته و لا نحس بها، فقال: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۷۰) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۷۱) (آل عمران ۱۶۹- ۱۷۱). و إذا كان من يقتل فى سبيل اللّه حيا يرزق، و يظفر بحياة سعيدة، فرحا بما أنعم اللّه به عليه، و لا يمسه خوف، و لا يدركه حزن، فلا معنى للإحجام عن الجهاد، حرصا على حياة لا تنقطع بالموت فى ميدان القتال، و لا تنتهى بالاستشهاد، بل يستأنف صاحبها حياة أخرى آمنة، خالصة مما يشوب حياة الدنيا من القلق و المخاوف و الأحزان.

و يمضى بعدئذ، غارسا فى نفوسهم أن الموت قدر مقدور، لا يستطيع المرء تجنبه أو الهرب منه، فلا معنى إذا لتجنب الجهاد الذى لا يدنى الأجل، إذا كان فى العمر فسحة، إذ الأجل لا يتقدم و لا يتأخر، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف ۳۴). فيقول: قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (الأعراف ۳۴). و يقول: يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ (آل عمران ۱۵۴). و يرد على أولئك الذين يزعمون الجهاد مجلبة للموت ردّا رفيقا حازما فى قوله: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (۱۶۷) الَّذِينَ

قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (آل عمران ۱۶۷، ۱۶۸). و إذا كان المرء يموت عند انقضاء أجله، فلا معنى كذلك للفرار من ميدان القتال خوفا من الموت إذ لا شيء يحول بينهم و بينه إن كان أجلهم قد دنا، قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۶) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۷) (الأحزاب ۱۶، ۱۷).

و إذا كانت الدنيا زائلة لا محالة و الموت قادما لا ريب فيه، و إذا كان الباقي الدائم هو الدار الآخرة و الجهاد وسيلة من وسائل السعادة في هذه الدار- كان العاقل الحازم هو هذا الذي يقبل على الجهاد بنفس راضية، مؤثرا ما يبقى على ما يزول قال سبحانه: فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (النساء ۷۴). و يرد على هؤلاء الذين

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۸

اعترضوا على فرض القتال بقوله: وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۷) أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ (۷۸) (النساء ۷۷، ۷۸).

و يثير فيهم النخوة الإنسانية، و شهامة الرجولة، حينما يمثل لهم واجبهم المقدس إزاء إنقاذ قوم ضعاف يسامون الذل، و يقاسون الظلم، على أيدي قرية ظالم أهلها، فلا يجدون ملجأ يتجهون إليه سوى اللّه، يرجونه و يطلبون نصرته، أ ليس هؤلاء الضعاف أجدر الناس بأن يهب من لديهم نخوة لإنقاذهم من أيدي ظالميهم؟ قال سبحانه: وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (النساء ۷۵).

و يمثلهم و أعداءهم معسكرين، أحدهما ينصر اللّه، و ثانيهما ينصر الشيطان، أحدهما يدافع عن الحق، و ثانيهما يدافع عن الباطل و الغواية، و الدفاع عن الحق من عمل الإنسان الكامل، أما الباطل فلا يلبث أن ينهار في سرعة، لأنه هشّ ضعيف، الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (النساء ۷۶).

أما جزاء الجهاد فقد أعد اللّه للمجاهد مغفرة منه و رحمة خيرا مما يتكالب الناس على جمعه في هذه الحياة، و هيأ له جنات تجرى من تحتها الأنهار، فقد عقد معه عقد بيع و شراء، يقاتل في سبيله، فيقتل و يقتل، و له في مقابل ذلك جنة الخلد، ذلك عهد قد أكد اللّه تحقيقه في قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة ۱۱۱). و أكّد القرآن هذا، و كرره في مواضع عدة، فقال مرة: فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (آل عمران ۱۹۵). و قال أخرى حاثا على الجهاد مغريا به: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۱۰) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) (الصف ۱۰- ۱۲).

و يشجعهم على تتبع أعدائهم بلا تباطؤ و لا و هن، مبينا لهم أن أعداءهم ليسوا

من بلاغة القرآن، ص: ۲۳۹

بأسعد حالا منهم، فهم يتألمون مثلهم ثمّ هم يمتازون عليهم بأن لهم آمالا في اللّه، و رجاء في ثوابه و جنته، ما ليس لدى أعدائهم، و لذا كانوا أجدر منهم بالصبر، و أحق منهم بالإقدام، فيقول: وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء ۱۰۴).

تلك هي المغريات التي بثها القرآن هنا و هناك، يحث بها على الجهاد، و يوطن النفس على الرغبة فيه و الإقبال عليه، و أنت تراها

مغريات طبيعية تدفع النفس إلى الإقدام على مواطن الخطر غير هيابة و لا وجلة، مؤمنة بأنه لن يصيبها إلا ما كتب اللّه لها، فلا الخوف بمنجّ من الردى، و لا الإحجام بمؤخر للأجل، مؤملة خير الآمال فى حياة سعيدة قادمة، لا يعكر صوفها خوف و لا حزن.

و إذا كان اللّه قد حث النفس الإنسانية على الجهاد، و حببه إليها، فقد حذرها من الفرار من ميدان القتال تحذيرا كله رهبة و خوف، و إن الفرار يوم الزحف لجدير أن يظفر بهذا التهديد، لأنه يوهن القوى، و يفت فى العضد، و يسلم إلى الانحدار، و الهزيمة، فلا غرابة أن نسمع هذا الزجر العنيف فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶) (الأنفال ۱۵، ۱۶).

و يشير القرآن إلى أن الإعداد للحرب وسيلة من وسائل تجنّبها، و هو من أجل ذلك يحث على إعداد العدة و اتخاذ الأهبة، حتى يرهب العدو و يحذر، فيكون ذلك مدعاة إلى العيش فى أمن و سلام، و يدعو القرآن إلى البذل فى سبيل هذا الإعداد، حتى ليتكفل بوفاء النفقة لمن أنفق من غير ظلم و لا إجحاف به، و القرآن بتقرير هذا المبدأ عليم بالنفس الإنسانية التى يردعها الخوف فيثنيها عن الاعتداء، قال سبحانه: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (الأنفال ۶۰).

و بهذه القوة التى أمرنا القرآن بإعدادها نرهب العدو، و نستطيع القضاء عليه، إذا هو حاول الهجوم، أو نقض عهدا كان قد أبرمه معنا، و بها نقلّم أظافره، فلا نغتر بما قد يبديه من خضوع، يخفى وراءه رغبة فى الانقضاض إن واتته الفرصة، أو وجد عندنا غفلة، و بهذه القوة يشعر العدو بخشونة ملمسنا، و أننا لسنا لقمة سائغة الازدراء، فالقتال مباح حتى يأمن سرب الجماعة، و يهدأ بالها، فلا تخشى هجوما و لا مباغتة، و لكن من غير أن تحملنا القوة على الزّهو فنعتدى،

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۰

و بهذه القوة نقابل الاعتداء بمثله، من غير أن نظهر و هنا و لا استكانة يظنها العدو ضعفا، و بها نقضى على أسباب الفتنة، حتى تصبح حرّية العبادة مكفولة، و حرية العقيدة، موطدة الأركان، و استمع إلى هذه المبادئ القوية مصوغة فى أسلوب قوى فى قوله: وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۱۹۰) وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (۱۹۱) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۲) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة ۱۹۰- ۱۹۳).

و إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) (الأنفال ۵۵- ۵۷)، و كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (۸) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (۱۰) فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۱) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (۱۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۵) (التوبة ۷- ۱۵). يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (التوبة ۱۲۳). فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (محمد ۳۵).

و لم يدع القرآن بابا لتقوية الروح المعنوية لدى المسلمين إلا سلكه، ففضلا عن المغريات التى أسلفنا الحديث عنها، يؤكد لهم مرارا أن اللّه معهم، و أنه وعد من ينصره بالنصر المؤزر، و يطمئنهم بأنه يمدهم بالملائكة يساعدونهم و يشدون عضدهم، و يخبرهم بأنه ينزل السكينة على قلوبهم، و الأمن على أفئدتهم، و يربط على قلوبهم و يثبت أقدامهم، و هو يعلم ما للإيمان الصادق، و ما للروح المعنوية القوية من أثر بالغ فى صدق الدفاع و النصر، و لهذا جعل المؤمن الصابر الصادق يساوى

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۱

فى المعركة عشرة رجال، ثم رأى أن هذا الجندى المثالى قليل الوجود، فجعل المؤمن الواحد يساوى اثنين، فللقوة المعنوية أثرها الذى لا ينكر فى ميدان القتال، و استمع إليه يقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال ۶۵).

و يقرر القرآن ما للرعب الذى يلقيه فى قلوب أعدائهم من الأثر فيما يلحقهم من الهزائم، و فى كل ذلك تثبيت لقلوب المؤمنين، و تقوية لروحهم المعنوية.

هذا، و من أهم ما عنى به القرآن و هو يصف القتال الناجح- وصفه المقاتلين يتقدمون إلى العدو فى صفوف ملتحمة متجمعة، لا ثغرة للعدو ينفذ منها، و لا جبان بين الصفوف يتقدم فى خوف و وهن، و ذلك حين يقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (الصف ۴). و فى كلمة البنيان و الرصّ ما يصور لك صفوف المجاهدين يتقدمون فى قوة و حزم، يملأ قلوبهم الإيمان، و يحدوهم اليقين.

كما عنى بالحديث عن الجند الخائن، و أن الخير فى تطهير الجيش منهم، فهم آفة يبثون الضعف، و يبذرون بذور الوهن فى النفس، و يقودون الجيش إلى الانهيار و الهزيمة، و قد أطال القرآن فى وصف هؤلاء الجند و تهديدهم و تحذير الرسول من صحبتهم، فقال مرة: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۳) (النساء ۷۲، ۷۳). و يصفهم مهددا منذرا فى قوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (۸۳) وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (۸۴) وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (۸۵) وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (۸۷) (التوبة ۸۱- ۸۷). و يبين أن الخير فى عدم استصحابهم، فيقول: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۲

الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (المائدة ۴۷). و هذه النذر القوية تؤذن بما للجهاد من أثر فى صيانة الدين، و التمكين له فى الأرض.

المعارك الحربية

سجل القرآن كثيرا من المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين و خصومهم بطريقته المصورة المؤثرة المتغلغلة إلى أعماق النفوس،

و أخفى أغوار القلوب، و ها هو ذا يسجل معركة بدر، أولى المعارك الكبرى التى انتصر فيها المؤمنون، على قلتهم، انتصارا مبينا على عدوهم، فيقول: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (۵) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶) وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (۷) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (۹) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۱۰) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (۱۱) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (۱۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۳) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (۱۴) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۷) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (۱۸) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۹) (الأنفال ۵- ۱۹).

تسجل الآيات الكريمة نقاشا حادّا جرى بين النبى و طائفة من المؤمنين، هو يريد أن يقنعها بأن الخير فى الخروج لملاقاة العدو، و هى تريد أن تقنعه بأن الأفضل البقاء و تجنب ملاقاته، يشفع لها فى اتخاذ هذا الرأى قلة عددها، و يسجل القرآن على هذه الطائفة شدة فرقها من لقاء العدو، حتى لقد دفعها ذلك إلى جدال الرسول فى رأيه جدالا شديدا، و كأنما تمثلت مصارعهم أمامهم، و كأنهم يرون أنفسهم مسوقين إلى الموت سوقا، و تسجل الآيات أن اللّه وعد المؤمنين الظفر

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۳

بالعير أو بقريش، و أنهم كانوا يؤثرون أخذ العير لسهولة ذلك عليهم، و لكن اللّه قد دفعهم إلى الخروج لا للظفر بالغنيمة، بل ليكون ذلك تمهيدا للتمكين للدين، و إحقاق الحق و إزهاق الباطل.

ها هو ذا جيش المسلمين يسير بقلب واجف، و فؤاد مضطرب، يستمد المعونة من اللّه، و يستغيث به، و يطلب منه النصر، و اللّه يستجيب له، و يعده بأن يمده بالملائكة، ليطمئن قلبه، و تسكن نفسه، و تثبت قدمه، و ها هو ذا الأمن يملأ أفئدة الجند، فيجد النوم سبيله إلى عيونهم، و تجود السماء بالماء، فلا يتسرب الخوف من العطش إلى نفوسهم، و اللّه يلقى الأمن و السكينة فى قلوبهم، فيقبلون على القتال، فى جرأة و بسالة و إقدام، يتزعزع لها قلب العدو، و يمتلئ قلبه بالرعب و الذهول، و المسلمون ماضون فى عنف، يضربون الأعناق، و يبترون الأكف، فلا تستطيع حمل السلاح، و ذلك جزاء عناد المشركين للّه و رسوله.

و يتخذ القرآن من تلك المعركة درسا، و يرى أن النصر إنما كفل بهذا الإقدام المستميت، فيحذرهم إذا لاقوا العدو أن يفروا من ميدان القتال، و ينذرهم إذا هم فعلوا، بأقسى ألوان العقوبات، و شر أنواع المصير، يذكرهم بأن اللّه هو الذى أمدهم بهذه القوة التى استطاعوا بها هزيمة عدوهم، و كأنه ينبئهم بأنهم ليس لهم عذر بعد اليوم، إذا هم أحجموا عن الجهاد، و خافوا لقاء العدو.

و يمضى القرآن بعدئذ منذرا الكافرين، مهددا إياهم، بشر مصير إن هم فكروا فى إعادة الكرة، أو غرتهم كثرتهم، و متجها إلى المؤمنين يأمرهم بطاعة الرسول، بعد أن تبينوا أن الخير فيما اختار، و النجح فيما أشار به و أمر.

و القرآن فى حديثه عن هذه الغزوة قد اتجه أكثر ما اتجه إلى رسم نفسية المقاتلين، و التغلغل فى أعماقها، لأن هذه النفسية هى التى تقود خطا المجاهدين، و تمهد الطريق إلى النصر أو الهزيمة، كما اتجه إلى ما يؤخذ منها من تجربة و عظة.

و إذا كانت غزوة بدر قد انتهت بالنصر فإن غزوة أحد قد انتهت بإخفاق بعد نصر كان محققا، و قد سجل القرآن تلك الغزوة فى

قوله: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۲۱) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۲۲) وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲۳) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (۱۲۴) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (۱۲۵) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱۲۶)

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۴

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (۱۲۷) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (۱۲۸) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲۹) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۳۰) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (۱۳۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۳۲) وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۳) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳۴) وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۳۵) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۱۳۶) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۳۷) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۸) وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳۹) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۱۴۰) وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ (۱۴۱) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (۱۴۲) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۱۴۳) وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (۱۴۵) وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (۱۴۶) وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۱۴۷) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۴۸) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (۱۴۹) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (۱۵۰) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (۱۵۱) وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ «۱» بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (۱۵۲) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا ما أَصابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۵۳) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ

---

(۱) تستأصلونهم.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۵

وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۵۴) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

الْجَمْعانِ إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۵۵) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۱۵۷) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (۱۵۸) فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (۱۵۹) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۶۰) وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۶۱) أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶۲) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۱۶۳) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۱۶۴) أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۶۵) وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۶۶) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (۱۶۷) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۶۸) وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۷۰) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۷۱) (آل عمران ۱۲۱- ۱۷۱).

هذا الحديث المطول مؤذن بأن المحدث عنه ذو أهمية خاصة تحتاج إلى هذا الطول، و لم لا؟ و هو حديث عن هزيمة، يريد أن يقتلع آثارها من نفوسهم، و أن يبدلهم من اليأس أملا، و أن يبين لهم الحكمة فيما حدث، و لنتتبع الآيات الكريمة نرى ما رسمته، و ما توحى به، و ما عالجته فى نفوس القوم، و كيف مستها برفق حتى اندمل جرحها و اطمأنت.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۶

صورت الآيات الكريمة الرسول فى ميدان القتال، يرتب الجند، و يخص كل طائفة بمكان، و يعيّن موضع كل فريق من المعركة، و قد همّ فريقان أن يتركا ميدان القتال و يفشلا، و لعلهما كانا يريان أن يعودا و ينتظرا العدو فى المدينة، و ربما ذكر الرسول المؤمنين بنعمة اللّه إذ نصرهم، و هم ضعاف أذلة يوم بدر، كما أخذ الرسول يقوى روحهم المعنوية، فيحدثهم عن تأييد اللّه لهم بالملائكة ليطمئن قلوبهم، و يثبت أقدامهم، و ليكون ذلك وسيلة لدحر الكفار، أو لتذكيرهم فيتوبون.

ذلك رسم لما كان فى بدء المعركة، و ما قام به الرسول من دور هام فى تنظيم قوى المؤمنين، و ملء أفئدتهم بالأمل و روح الإقدام.

و يمضى القرآن بعدئذ يمس جرحهم فى رفق، فينهاهم عن الوهن و الحزن، و يعدهم بالفوز إذا كان الإيمان الحق يملأ قلوبهم، و يحدثهم بأنهم إن كانوا قد أصيبوا فقد أصيب عدوهم بمثل ما أصيبوا به، و كأنه يقول لهم: إن القوم برغم ما أصيبوا به، لم يهنوا و لم ييأسوا، بل جاءوا إليكم مقاتلين.

و يحدثهم عن السر فى انتهاء المعركة بما انتهت به، و أن ذلك وسيلة لتبين المؤمن الحق، و تمحيصه عن طريق اختباره، فليس دخول الجنة من اليسر بحيث لا يحتاج إلى اختبار قاس، كهذا الاختبار الذى عانوه فى معركة القتال، ثم ينتقل بعدئذ يقرّ فى نفوسهم أن الأجل أمر مقدور لا سبيل إلى تقديمه أو تأخيره، و أن كثيرا من الأنبياء حدث لأتباعهم هزائم لم تضعف من عزيمتهم و لم تؤد بهم إلى الوهن و الضعف و الاستكانة، و هو بذلك يضرب لهم المثل الواجب الاقتداء، و بالصبر سيظفرون كما ظفر من سبقهم.

و يعود بعد ذلك متحدثا عن سبب الهزيمة، فيبين أنهم كانوا خلقاء بالنصر، و أن اللّه قد صدقهم وعده، و أراهم ما يحبون، و لكنهم فشلوا و تنازعوا فى الأمر فمنهم من أراد الظفر بالغنيمة، و منهم من كان يريد الآخرة، فكانت النتيجة هزيمة، فرّوا على إثرها مولين، لا

يلوون على شيء، و الرسول يدعوهم إلى الثبات، و يصف القرآن طائفة منهم قد تغلغل الشك فى نفوسهم، فمضوا يظنون باللّه غير الحق، و يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، فيرد عليهم القرآن فى رفق بأن الأجل مقدر، و أن من كتب عليه القتل لا بدّ ملاقيه، ثم يسبغ اللّه عفوه على من فر فى ميدان القتال، غافرا له زلة دفعه إليها الشيطان.

و يكرر القرآن مرة أخرى فكرة إصابتهم، و أن أعداءهم قد أصيبوا من قبلهم، و أن سبب هذه الهزيمة راجع إلى أنفسهم، كما سبق أن حدثهم عن فشلهم

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۷

و تنازعهم، و أن هذا الاختبار ليتبين من آمن، و من نافق، هؤلاء الذين ثبطوا عن القتال حينا، و الذين زعموا أن الجهاد فى سبيل اللّه هو الذى دنا بآجال من قتلوا، و القرآن يرد عليهم فى إفحام قائلا: فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (آل عمران ۱۶۸).

و يختم حديثه مسهّلا عليهم قتل من قتل فى سبيل اللّه بأنه شهيد حى عند ربه يرزق، فرح بما أوتى من فضل اللّه، مستبشر بمن سيلحق به من المجاهدين، مبتهج بحياة لا خوف فيها و لا حزن.

كانت سمة هذا الحديث الطويل الرفق فى الخطاب و اللين فى العتاب، يريد بذلك تأليف القلوب، و جمع الأفئدة، و ربما جر العنف إلى أن تجمع النفوس، و تتشتت الأهواء، فى وقت كان الإسلام فيه أحوج ما يكون إلى الألفة و جمع الشمل، حتى إن الفارين أنفسهم وجدوا من عفو اللّه ما وسعهم بعد أن استزلهم الشيطان.

و سمة أخرى واضحة فى تلك الآيات الكريمة و هى خلق الأمل فى القلوب و إبعاد شبح اليأس و مرارة الهزيمة من النفوس، و قد رأينا كيف ضرب لهم الأمثلة بمن مضوا ممن قاتلوا مع النبيين، و أثار فيهم نخوة ألا يكونوا أقل قوة من أعدائهم الذين أصيبوا أشد من إصابتهم، و مع ذلك لم يهنوا و لم يضعفوا، و ملأ قلبهم طمأنينة على من قتل من أحبابهم، فقد أكد لهم حياتهم حياة سعيدة، و بذلك كله مسح على قلوبهم، و محا بعفوه آلام المنهزمين منهم، و أعد الجميع لتحمل أعباء الجهاد من جديد بنفوس مشرقة، و قلوب خالصة، يملؤها الأمل و يحدوها الرجاء فى ألا تقصر فى قتال، أو يدفعها زخرف الحياة الدنيا فتنصرف إليه، ناسية الهدف الرئيسى الذى تركت من أجله الوطن و الأهل و الولد.

و تحدث القرآن حديثا طويلا عن غزوة الأحزاب، إذ قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۹) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (۱۰) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً (۱۱) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً (۱۳) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً (۱۴) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا (۱۵) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۶) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۸

بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۷) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۹) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (۲۰) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً (۲۲) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (۲۳) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (۲۵) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (۲۶) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۷) (الأحزاب ۹- ۲۷).

أجملت الآيات فى وصف نتيجة المعركة بانهزام الأحزاب و من ظاهروهم، إجمالا يغنى عن كل تفصيل، و يحمل إلى النفس معنى النعمة التى أنعم اللّه بها على المؤمنين، فقد كفاهم القتال بقوته و عزته، و لا سيما إذا قرنت تلك النعمة بما أصاب المؤمنين من الخوف و الرهبة من إحاطة الأعداء بهم، فقد جاءوهم من فوقهم و من أسفل منهم حتى زاغت الأبصار، و بلغت القلوب الحناجر، و زلزلوا زلزالا شديدا، أ لا ترى أن هذا الوصف الدقيق لنفسية المؤمنين و قد أحيط بهم، و هذا الوصف الموحى المصور، المؤذن بأن اليأس من النجاة، كاد يستولى على النفوس، ثم رأى المحاصرون أنه قد انجلى الغم عنهم، و مضى الخوف إلى غير رجعة، و أن ذلك قد تم بقدرة اللّه وحده، و أنهم قد كفوا القتال، و صاروا آمنين فى ديارهم- أ لا ترى ذلك جديرا بشكر المنعم على تلك النعمة، التى تضؤل النعم بجوارها.

و أطالت الآيات فى الحديث عن هذه العوامل التى تفت فى عضد الجيش الإسلامى، و التى كانت خليقة أن تنزل به أقسى الهزائم، و تلك هى المعوقون و المنافقون، و كأنه بذلك يريد أن يتدبر هؤلاء موقفهم، و أن يروا قدرة اللّه التى جلبت النصر وحدها، من غير أن يشترك المسلمون فى قتال، فلعل فى ذلك تطهيرا لقلوبهم، و سببا لعودتهم إلى الطريق السوى، و خير السبل، و قد تحدث القرآن طويلا عما يعتلج فى نفوسهم، و ما يبثونه من أسباب الهزيمة فى صفوف المسلمين، و حكى معتقداتهم ورد عليها فى حزم. فكان

من بلاغة القرآن، ص: ۲۴۹

حديث القرآن عن هذه الغزوة حديث المصلح الذى يضع هدف إصلاح نفوس الأفراد و تطهير الجماعة من أسباب ضعفها و خذلانها. و إلى هذا يهدف القرآن حين يتحدث عن الغزوات، يعنى بالنهوض بالفرد، فتطهر نفسه، و يؤمن باللّه أعمق الإيمان و أصدقه، و بالجماعة فتتلافى وسائل نقصها، و تخلص مما يقعد بها دون الوصول إلى غايتها من النصر المؤزر و الاستقرار و الأمن، يرفق فى سبيل ذلك حينا، و يقسو حينا آخر.

الإنسان المثالى

أجمل اللّه الإنسانية المثالية و ما ينتظرها من الجزاء المادى و الروحى فى قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (۷) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (۸) (البينة ۷، ۸). فالإنسان المثالى هو ذلك الذى يؤمن و يعمل صالحا، و قد فصل القرآن فى مواضع كثيرة هذا العمل الصالح فمنه ما يرتبط باللّه، و منه ما يرتبط بالناس، و منه ما يعود إلى الشخص نفسه.

أما ما يرتبط باللّه فأن يؤدّى فرائضه فى محبة و خشوع، و يصلى ذاكرا جلاله، و عظمته، و إذا أصغى إلى آيات اللّه سجد لما فيها من عظمة و حكمة قائلا: سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا (الإسراء ۱۰۸)، لا يغيب ذكر اللّه عنه، مفكرا فى خلق السموات و الأرض، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (۱۹۱) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۱۹۲) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (۱۹۳) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (۱۹۴) (آل عمران ۱۹۱- ۱۹۴). و فى ذكر اللّه و رقابته دائما إحياء للضمير الإنسانى، و إقامة هذا الضمير رقيبا على أعمال المرء، فلا يفعل منفردا ما يخجل من فعله مع الجماعة، و إذا حيى الضمير، و قويت شوكته، كان للإنسان منه رقيب على نفسه، فى كل ما يأتى من الأمور و ما يدع، و تربية الضمير هو الهدف الرئيسى للتربية، و الغرض

الأول الذى يرمى إليه المربون.

أما صلته بالناس فصلة رفق و حب و عطف، يفى بالعهد إن عاهد، و يؤدى الأمانة إن اؤتمن، و يربأ بنفسه عن اللغو، فلا يضيع وقته سدى فيه، قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (۲) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (۴) وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۵) إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (۷) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۰

وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۸) (المؤمنون ۱- ۸). وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۲۴) (المعارج ۲۴، ۲۵). و يؤتون: الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ (البقرة ۱۷۷). يأمرون بالصدقة و المعروف، و يصلحون بين الناس، وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (النساء ۱۱۴). و هو هنا لا يكتفى بأن يكون المرء صالحا فى نفسه، بل لا بدّ أن يكون عضوا نافعا فى جماعته، و قوة عاملة فيها، فهو يتصدق، و يأمر غيره بالصدقة، و يصلح بين الناس و يأمر غيره بالإصلاح بينهم، و لا يكتفى القرآن بأن يقف المرء موقف الواعظ المرشد فحسب، بل من الواجب أن يأخذ بحظه من الخير الذى يدعو إليه و لهذا و بخ القرآن أولئك الذين يدعون إلى الخير، و ينسون أنفسهم فى قوله: أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (البقرة ۴۴).

و الإنسان الكامل هو ذلك الذى يبذل جهده فى خدمة جماعته، و يعمل على النهوض بها، فلا يعيش كلّا، و لا يقبل أن يرضى غروره، بأن يسمع ثناء على ما لم يفعل، أما هؤلاء الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (آل عمران ۱۸۸).

و من أكبر سماته أنه يدفع السيئة بالحسنى، فيؤلف القلوب النافرة، و يستل الخصومة من صدر أعدائه، وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) (فصلت ۳۴، ۳۵). و أنت ترى القرآن يعترف بأن هذا الخلق لا- يتصف به إلا- من كان ذا قدم عظيمة فى التفوق فى مراتب الكمال، و ذا حظ عظيم منه. و يتصل بهذه الصفة كظم الغيظ و العفو عن الناس، و هما مما مجد القرآن إذ قال: وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۳) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳۴) (آل عمران ۱۳۳، ۱۳۴). وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (الشورى ۳۷).

و هو عادل، يقول الحق و لا يحيد عنه، و لا يصرفه عن قوله ذو قرابة أو عداوة، وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى (الأنعام ۱۵۲). كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (المائدة ۸).

قد طهر قلبه، فلا يحمل لأحد غلا و لا موجدة، و يسأل اللّه السلامة من شر ذلك قائلا: وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (الحشر ۱۰).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۱

و لا يسعد إنسان فى حياته، إذا كان يحمل فى قلبه ضغنا على أحد، أو حسدا أو غلا، فإن ذلك يقلب الحياة شقاء، و ينغص على المرء أيامه و لياليه فضلا عن ضياع الوقت، و ما أجمل الحياة إذا طهر قلب المرء، و بعد عنه ما يئوده من هموم الحقد و الحسد، حينئذ يعمل فى طمأنينة، و يجاهد فى سكينة.

و حسنت صلته بجاره ذى القربى و الجار الجنب، و لذلك أثره فى سعادة الحياة، و الطمأنينة فيها، و يعامل الناس برفق، فلا يغره

منصب يظفر به، و لا- مال يحويه، و لا يدفعه ذلك إلى تعاظم أو كبر، و لا يخرجه ما يظفر به إلى البطر و المرح، وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (۱۹) (لقمان ۱۸، ۱۹).

يرد التحية بأحسن منها، وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (النساء ۸۶). و لا يدخل بيتا غير بيته حتى يستأذن، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا- تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۲۷) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸) (النور ۲۷، ۲۸). و يجلس مع الناس فى رفق. فلا يجد غضاضة فى أن يفسح لغيره من مجلسه، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (المجادلة ۱۱).

و إذا كانت السخرية بالغير، بأى لون من ألوان السخرية، مدعاة إلى تأصل العداء، و تقطع الصلات، كان الإنسان النبيل هو من يجتنب السخرية من الناس، و عيبهم، و لمزهم بألقاب يكرهونها، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (الحجرات ۱۱).

و من أهم أخلاق الإنسان المثالى الصبر، و قد أثنى به اللّه كثيرا، و حث عليه كثيرا، و جعله خلة لا يظفر بها إلا الممتازون من الناس، ذوو الحظ الكبير من الرقى الخلقى، قال سبحانه: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (۱۵۵) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (۱۵۶) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (۱۵۷) (البقرة ۱۵۵- ۱۵۷). و قال: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (۳۴) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ (۳۵) (الحج ۳۴، ۳۵). و قال: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (الزمر ۱۰).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۲

و مما يرتبط بالصبر شديد الارتباط مقابلة الأحداث و نوازل الحياة، بل ما تأتى به من سعادة و خير، فى هدوء و طمأنينة، فلا يستفزه فرح، و لا يثيره حزن و لا ألم، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (الحديد ۲۳).

و يسير فى إنفاقه سيرا مقتصدا لا تقتير فيه و لا تبذير، وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (الفرقان ۶۷)، وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (۲۶) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (۲۷) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (۲۸) وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (۲۹) (الإسراء ۲۶- ۲۹). و هو لذلك يأكل و يشرب، و يستمتع، فى غير إسراف و لا- خيلاء، وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف ۳۱)، و يأخذ بحظه من الحياة الدنيا فى غير تكالب عليها، و لا جعل الاستمتاع بها الهدف الأساسى فى الحياة.

و يكره القرآن للمرء أن يتبجّح بالقول، فيدعى أنه سيفعل و يفعل، ثم تنجلى كثرة القول عن تقصير معيب فى العمل، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (۲) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (۳) (الصف ۲، ۳).

و يحسن أن أوجه النظر هنا إلى أن القرآن لا- يبرئ الإنسان من فعل السوء، و لا- ينزهه عن الإثم، و لكن الذى يأخذه عليه هو أن يتمادى فى العصيان، و يصرّ على ما يفعل، فلا يندم، و لا يتوب، أما أبواب الجنة فمفتحة لأولئك وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۳۵) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۱۳۶) (آل عمران ۱۳۵، ۱۳۶).

و هذه بعض آيات من القرآن يصف بها أولئك المثاليين، إذ يقول: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (۶۳) وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً (۶۴) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً

(۶۵) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۶۶) وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (۶۷) وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا- يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا- يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (۶۸) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (۶۹) إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (۷۱) وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (۷۲) وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً (۷۳) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۳

لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (۷۴) أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً (۷۵) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۷۶) (الفرقان ۶۳- ۶۷).

الحياة الدنيا

سمى القرآن الحياة الدنيا لعبا و لهوا، و تحدث فى مواضع كثيرة عن مصير هذه الحياة، و أنها مهما بلغت من الجمال و الزينة و البهاء فإنها صائرة إلى الفناء و الزوال، إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس ۲۴). إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (۷) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً «۱» (۸) (الكهف ۷، ۸). و أنها إذا وزنت بالآخرة ليست سوى متاع قليل ذاهب، اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ (الرعد ۲۶)، إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (غافر ۳۹)، فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (التوبة ۳۸).

و إذا كان القرآن قد قلل من أمر هذه الحياة فإنه تحدث عن حقيقة لا مجال للشك فيها، لأن عمر الإنسان مهما طال، له نهاية لا ريب فيها، و هو عمر قصير محدود، و ليس هو بالنسبة للخلود فى الآخرة سوى فترة قصيرة عابرة، و ليس ما يظفر به المرء فى هذه الفترة القصيرة العابرة من متعة سوى قدر ضئيل محدود، إذا قيس بهذا النعيم الخالد، و السعادة الدائمة فى جنة الخلد.

و ليس معنى التقليل من متاع الحياة الدنيا التزهيد فيه، أو صرف الناس عن المتعة به، فإن الدين إنما جاء الكثير من أحكامه لتنظيم شئون هذه الحياة و الرقى بها إلى مستوى رفيع، و إجادة استغلال ما أودع فى هذه الطبيعة من القوى، و القرآن نفسه يدعو إلى الاستمتاع من غير إسراف، و يعجب ممن يحرم طيبات من أحل اللّه، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ (الأعراف ۳۲). و لا يدعو الناس إلى أن ينصرفوا عن متع الحياة و ما فيها من جمال و لذة. و لكن القرآن يعنف أولئك الذين يجعلون كل همهم الظفر بمتع تلك الحياة، و نسيان الحياة الآخرة، و الانصراف التام عن التفكير فيها، و فى الحق أن

---

(۱) الجرز: أرض غليظة يابسة لا نبت فيها.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۴

ضلال هؤلاء واضح الوضوح كله، فإنهم قد اشتروا متاعا قليلا ينفد، بنعيم خالد مقيم، فلا عجب إذا رأينا القرآن ينفد رأى هؤلاء قائلا: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (إبراهيم ۳). و يقول: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۱۶) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۱۷) (الأعلى ۱۶، ۱۷). و يهدد من يجعل همه تلك الحياة بقوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۶) (هود ۱۵، ۱۶). أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

(البقرة ۸۶). مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (الإسراء ۱۸). وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (الأحقاف ۲۰). وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) (الجاثية ۳۴، ۳۵).

و القرآن بذلك كله يعنف رجلين: أحدهما قد كفر باليوم الآخر، و أنكره، و اعتقد أن ليس ثمة سوى هذه الحياة الدنيا، فاغتربها، و نسى اليوم الآخر و ما فيه، و ذلك هو المقصود بمعظم هذه الآيات، و قد ذكرنا أن الإيمان باليوم الآخر، ركن أساسى من أركان الدين، إذ الإيمان به يدفع إلى العمل الصالح رغبة أو رهبة، و ثانيهما رجل يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، و يجعل همه كله أن يظفر من الحياة الدنيا بأوفى نصيب، و مثل ذلك الرجل جدير ألا يحكمه ضميره، فيعمل ما لا يرضيه فى سبيل الفوز بدنياه، فيبعد بقدر كبير عن قوانين الإنسانية السليمة، و لا- يعنيه إلا- أن ينال مآربه و آماله، و صور لنفسك تاجرا أو صانعا أو مستخدما لا يعنيه سوى الظفر بآماله فى الغنى، و لا- سلطان عليه من الإيمان بأنه محاسب يوم القيامة، و خيل لنفسك ما يرتكبه من الآثام، و ما يلم بعمله من النقائص، و ما قد يرتكبه من ألوان الغش و التزوير، ما دام كل هذا يدنيه من أمله فى الثروة و بلوغ المناصب السامية، فالإيمان باليوم الآخر هو الرقيب الذى يدفع الإنسان إلى محاسبة نفسه، قبل أن يحاسب يوم الدين، و به تستقيم شئون الحياة، و يخشى الناس الجزاء العادل إن هم فرطوا، أو أساءوا.

على هذا الوجه نفهم هذا العنف الموجه إلى هؤلاء الذين يؤثرون بحبهم و جهدهم تلك الحياة الدنيا، و لا نفهم أن القرآن يدعو إلى كراهية الحياة الدنيا، و الزهد فيها

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۵

و الانصراف بالكلية عنها، إلى حيث العكوف فى المساجد لعبادة اللّه و الصدوف عن الدنيا و زينتها، لا نفهم أن القرآن يدعو إلى ذلك، و لا- أن ذلك من أهدافه، كيف، و هو- كما قلنا- إنما جاء كثير منه لتنظيم شئون هذه الحياة. و المثل الكامل لصلة المرء بالحياة الدنيا و الآخرة هو قوله سبحانه: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (۲۰۰) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (۲۰۱) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (۲۰۲) (البقرة ۲۰۰- ۲۰۲).

فالمثل الأعلى القرآنى هو أن يظفر المرء بدنيا حسنة فيها متعة و فيها سعادة، و أن يظفر بآخرة سعيدة، فيها متعة كذلك، و فيها سعادة، و قد عجب القرآن- كما رأينا- من هذا الذى يحرم طيبات اللّه و الاستمتاع بها، و دعا إلى الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا فى قوله: وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا- تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص ۷۷). و ترك الفساد فى الأرض، و كبح جماح النفس الطاغية التى يزدهيها الغنى، ينبع من الإيمان باليوم الآخر، الذى فيه يحاسب الإنسان مالك يوم الدين.

عبادة الأوثان

جاء الدين الجديد يدعو إلى إفراد اللّه بالعبادة، و ترك عبادة الأصنام التى أشركوها له، و زعموا حينا أنهم إنما يعبدونها، لتقربهم إلى اللّه زلفى، و قد فند القرآن هذه العقيدة تفنيدا قويا، و برهن على ضلالهم فى عبادتها برهنة لا تدع مجالا للشك فى تفاهة هذه الأوثان، و أنها لا تصلح أن تكون إلها يعبد.

لقد وجه القرآن نظرهم إلى أن هذه الأصنام أقل منهم، فإن لعابديها أرجلا يمشون بها، و أعينا يبصرون بها، و آذانا يسمعون بها، أما

هذه الأوثان فجاثمة لا تستطيع الحركة و الانتقال، و لا تستطيع البطش و الدفاع، و لا تبصر، و لا تسمع، أ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها (الأعراف ۱۹۵). إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ (فاطر ۱۴).

أو يليق بالعاقل أن يعبد من دونه، و من يراه عاجزا لا يستطيع شيئا؟! و لم يعبد المرء إلها لا يسمع دعاءه، و لا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه، و لا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به، قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا (الإسراء ۵۶). و إذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من النصر، و المرء عند الشدائد يلجأ إلى اللّه، و يطلب منه المعونة و المساعدة، فما ذا يصنع بعبادة إله لا يمده

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۶

بهما، بل إن هذه الأوثان لا تستطيع أن تحمى نفسها، وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (الأعراف ۱۹۷). فهى إذا حجارة لا تنفع و لا تضر، و عابدها يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (الحج ۱۲). و أى ضلال أشد من عبادة من لا يملك الضر و النفع؟ و ما ذا بقى لهم من صفات الآلهة أخلقوا شيئا فى السموات و الأرض؟ أ بأيديهم الموت و الحياة و البعث؟ لا، لقد اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً (الفرقان ۳). و القرآن يتحداهم أن يدلوه على شىء خلقه هؤلاء الشركاء فى الأرض أو فى السماء، فيقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً (فاطر ۴۰). ثم يمضى فى التحدى مؤكدا لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء للّه لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابا، و لو ظاهر بعضهم بعضا، و تعاون بعضهم مع بعض، برغم حقارة الذباب و ضعفه، بل إن هذا الذباب الحقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شىء منه، إن سلبهم إياه، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (الحج ۷۳). و إذا كانوا لم يخلقوا شيئا، فهل يملكون من شىء فى السماء أو الأرض؟ لا. إنهم لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (سبأ ۲۲). وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (فاطر ۱۳).

و إذا كانت هذه الأوثان لا تنفع و لا تضر، و لا تجلب النصر، و لا تكشف الضر، و لا تملك من أمر نفسها شيئا، و لا تخلق شيئا، و ليس بيدها حياة و لا موت، بل هى أقل من عابديها قدرا، إذ هى لا تستطيع الحراك، و لا تطيق الدفاع عن نفسها- فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية، و لا يعدو الأمر بعدئذ أن تكون المسألة أسماء وضعوها، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهة حقيقية لها ما للآلهة من سلطان و قوة، و تستحق العبادة رغبة أو رهبة، أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى (۱۹) وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (۲۰) أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (۲۲) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ (۲۳) (النجم ۱۹- ۲۳).

و ها هو ذا يتهكم بهم تهكما لاذعا عند ما منحوا هذه الأسماء التى لا حقيقة لها، صفة الشفعاء الذين يملكون لهم نفعا عند اللّه، إذ يقول: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۷

وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (يونس ۱۸). فأى تهكم مرّ يثيره قوله: أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ.

و القرآن يثير فى نفوسهم- فضلا عما أثاره من الزراية بهذه الآلهة، و أنها لا تستحق سوى الإهانة و الاحتقار- الخوف و الفزع من سوء المصير، حين يصور لهم يوم القيامة، و ما ينالهم فيه من خيبة الأمل، عند ما يرون هذه الآلهة التى اتخذوها ليعتزوا بها، قد أنكرت أن تكون أهلا لعبادتهم، و يشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا عقلاء فى هذه العبادة. فيقول: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا

(۸۱) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (۸۲) (مريم ۸۱، ۸۲).

و القرآن بما عرضه من هذه الأفكار قد أثار فيهم احتقار تلك المعبودات، و احتقار الرضا بها آلهة، لأن عاقلا لا ينزل إلى درك عبادة من هو أقل منه، و الخوف و الحب لما لا يساوى شيئا، و أثار فيهم الخوف من مصير مظلم إن تمادوا فى تلك العبادة لمن سينقلب عليهم ضدا يوم القيامة.

العقائد و العبادات

من أهم العقائد التى وردت فى القرآن عقيدة الإيمان باللّه و رسوله و اليوم الآخر، و قد بينا كيف عرض القرآن هذه العقائد.

أما العبادات فمنها الصلاة، و قد أكثر القرآن من الحديث عنها، وعدها ركنا مؤكدا من أركان الدين، حددت له أوقاته، و ليس ثمة ما يبيح تركها، حتى أشد ألوان الخوف فى الحرب، ذلك لأن الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (النساء ۱۰۳).

و القرآن يجعل الصلاة سمة من سمات المؤمنين، و مظهرا من مظاهر التقوى و دليلا على تمام الخضوع للّه، ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ (البقرة ۲، ۳). إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ (فاطر ۱۸). وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ (البينة ۵). و لذا كان من تمامها الخشوع فى أدائها، قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (المؤمنون ۱، ۲).

و إذا كان للصلاة هذه المنزلة الرفيعة من الدين، فقد أكثر القرآن من الأمر بها، و الحث عليها، فقال: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (البقرة ۴۳).

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (البقرة ۲۳۸). قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ (إبراهيم ۳۱). وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها (طه ۱۳۲). و أثنى على

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۸

هؤلاء الذين لا يصرفهم شاغل من الحياة عن أدائها، إذ قال: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ (النور ۳۷). و جعل الكسل فى أدائها و النهوض إليها مظهرا من مظاهر النفاق، إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء ۱۴۲). و جعل الهزء بها كفرا، كالهزء بالدين نفسه، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۵۸) (المائدة ۵۷، ۵۸).

و يقرر القرآن أن الصلاة عبادة شاقة على النفس، و هو من أجل ذلك يضع الخاشعين مثالا يقتدى به، فهؤلاء لا يجدونها ثقيلة و لا شاقة، كما وضع إلى جانب ذلك اليوم الآخر و ما فيه من نعيم أو عذاب، يدفع المرء إلى الصلاة رغبة أو رهبة فقال: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (البقرة ۴۵- ۴۶). و أمر رسوله بالصبر على الصلاة إذ قال: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها (طه ۱۳۲). و وعد القرآن وعدا كريما من يؤديها على وجهها بأن أجره عنده، و يعيش يوم القيامة فى سلامة و أمن، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة ۲۷۷). و قد فرضت الصلاة ليتذكر الإنسان فى الحين بعد الحين خالقه و رب نعمته، أو ليس الخالق المنعم جديرا بأن يذكر و يشكر، فهذه الصلاة وسيلة الذكر و الشكران، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (طه ۱۴).

و لذا كان من أكبر أمانى الشيطان أن يصد عن إقامة الصلاة لذلك المعنى الذى أشرت إليه، و يتخذ الشيطان الخمر و الميسر وسيلة إلى نسيان الصلاة و ذكر اللّه، إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ

الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (المائدة ۹۱).

و كانت الصلاة بأشكالها المختلفة مظهر ذلك فى الأديان التى سبقت الإسلام، وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ۸۷). و إبراهيم يدعو ربه قائلا: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي (إبراهيم ۴۰). و عيسى يقول: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (۳۰) وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (۳۱) (مريم ۳۰، ۳۱). وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا (۵۴) وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (۵۵) (مريم ۵۴، ۵۵).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۵۹

و ذكر اللّه فى الصلاة عدة مرات فى الليل و النهار تدفع إلى تقواه، و الوقوف عند حدود ما أمر به و نهى عنه، و لذلك قال سبحانه: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ (العنكبوت ۴۵). و فى ذكر اللّه فى الصلاة تذكر لقدرته الباهرة، فيلجأ إليه المرء مستعينا بهذه القدرة على تحقيق ما يصبو إليه من أمان و آمال، و لذلك قرنها بالصبر، فقال: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ. و الاستعانة بقدرة اللّه توحى إلى النفس بأن المرء ليس وحيدا فى جهاده فى تلك الحياة، فيقوى ذلك من روحه المعنوية، و تقوية هذه الروح أساس النجاح و الظفر، فإذا انضم إليها الصبر، زال اليأس، و امتلأ القلب بالأمل.

تلك هى الدوافع التى وضعها القرآن إلى جانب الصلاة، لتحث عليها، و تدفع إلى إقامتها. وعد كريم من اللّه بالثواب على أدائها، و هى مظهر لشكر اللّه على نعمه و أفضاله، و الشكر على النعمة تدفع إليه الإنسانية المهذبة و يدفع إليه العقل السليم، ثم إنها بصورها المتعددة مظهر هذا الشكر عند الأمم السابقة، و لا يقف فضل الصلاة عند هذا الحد، بل هى ينبوع لطهارة النفس، و بعدها عن الشرور و المآثم، و فيها تقوية للمرء على مجابهة الحياة مزودا بقوة معنوية، ينجح بها فى الحياة، أولا يستحق هذا الينبوع العذب لتهذيب النفس و نجاحها أن يحافظ المرء عليها، و أن يؤديها موفيا أركانها فى تؤدة و اطمئنان، و لعل هذا هو السر فى أن القرآن يستخدم كلمة «يقيم» فالمادة تدل على الدوام و الاستمرار، كما تدلّ على معنى التقويم و التهذيب.

و لم يتعرض القرآن لتفصيل هيئة الصلاة، تاركا ذلك لفعل رسول اللّه، و لكنه عرض بعض أحكامها فى إجمال، كقصر الصلاة، و صلاة الخوف، و الوضوء.

و تقترن إقامة الصلاة فى القرآن غالبا بإيتاء الزكاة، و قد جعلهما القرآن معا مظهرين من مظاهر الإسلام، فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ (التوبة ۵). و لا سبيل لكم عليهم، لأنهم «إخوانكم فى الدين».

و يقرر القرآن غريزة الملكية، و يعرف ما لها من آثار فى تصرفات الإنسان و هو من أجل ذلك دعا هذه الأموال التى يبذلها المرء على سبيل الصدقة، دعاها قرضا يقرضه المتصدق للّه، إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ (التغابن ۱۷)، كما أضاف الأموال إلى أصحابها فى قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ (التغابن ۱۵).

و قرر كسبنا لها فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ (البقرة ۲۶۷).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۰

و فى ذلك تقرير لملكية الإنسان لما تحت يده؛ و ليست غريزة الملكية بالضعيفة و لا الواهنة فى نفس الإنسان، بل هى قوية عنيفة يقرر القرآن عنفها فى قوله:

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (الإسراء ۱۰۰). و قوله: وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ (النساء ۱۲۸). و لذلك عالج القرآن هذه الناحية النفسية علاجا مستفيضا، كى تسمح النفس بما تملك، و تجود عن رضا و رغبة.

و إذا كانت غريزة الملكية هى التى تدفع إلى الشح، فقد أثارها القرآن إلى الصدقة مؤكدا أن ما سينفقه المرء فى الصدقة اليوم،

سيخلفه اللّه عليه غدا و كأنه يوحى إلى الإنسان بأنه إذا تصدق و زكى فلن يخسر شيئا، فلا داعى إلى الشح و الإمساك، فضلا عما فى الصدقة من استجابة إلى داعى الإنسانية، و اتصاف بصفة الكرم و هو من صفات المروءة، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (سبأ ۳۹). بل إنه يخلفه مضاعفا، إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (الحديد ۱۸).

وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة ۲۶۵). مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة ۲۶۱). وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (الروم ۳۹). و فى ذلك تحريك لغريزة حب الذات التى تعمل على جلب الخير للنفس، فلا جرم كان وعدها بمضاعفة الجزاء مغريا لها بالصدقة و الزكاة، بل إن الجزاء لا يقف عند حد العوض المضاعف، و لكن اللّه سيوفى المتصدقين أجرهم، و يتولى هو مكافأتهم، و حسبك جزاء اللّه جزاء يرضى النفس و يكفيها، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة ۲۶۲).

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة ۲۷۴). مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (الحديد ۱۱). وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (الأعراف ۱۵۶). و إذا كان الأمر كذلك فليست هذه الصدقة فى حقيقة الأمر سوى خير يعود نفعه على المرء نفسه، وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (البقرة ۲۷۲). وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۱

تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة ۱۱۰)، و إذا كانت الزكاة و الصدقة خيرا يجب اكتسابه، فمن الخير أن يستكثر الإنسان منه فى هذه الحياة و أن يبادر إليه قبل أن تضيع الفرصة و لا تعود وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (المنافقون ۱۰)، قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ (إبراهيم ۳۱)، و فى ذلك إثارة لغريزة الخوف، أن يضيع على المرء خير مأمول.

و يمضى القرآن مخففا من آثار غريزة التملك، فيذكر هؤلاء الذين بأيديهم المال أن الذى أعطاهم ذلك المال إنما هو اللّه، و هو الذى يطالبهم بأن يعطوا عباده الفقراء بعض ما أعطاهم هو من المال، فيقول: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ (النور ۳۳). ثم يصل إلى الحقيقة، فيبين لهم أن هذا المال الذى تحت أيديهم إنما هو فى الواقع مال اللّه، و أنهم ليسوا بأكثر من مستخلفين فيه، أعطاه إياهم لينفقوه حيث يرشدهم إلى مواضع إنفاقه، آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (الحديد ۷). و ليس ما أعطيناه من مال سوى أحد الاختبارات التى اختبرنا اللّه بها، ليرى أ نشكر أم نكفر، وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (الأنفال ۲۸). و إذا كان المال فى الواقع مال اللّه، فإن الشح به ليس من سمات الخير، و لا مؤذنا بفلاح صاحبه، أما ... مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر ۵).

و يجعل القرآن من صفات المؤمن المثالى أداء الزكاة، و يعده عليها بخير ما يعد به من يعمل صالحا، فيقول: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹) (الذاريات ۱۵- ۱۹). و فى اختيار كلمة الْمَحْرُومِ هنا ما يحرك فى النفس الشفقة و الرحمة و الحنان.

و اقترن طلب إيتاء الصدقة فى القرآن بصفات إنسانية سامية، فنهى عن الرياء فى أدائها، أو اتباعها بالمن و الأذى، أو اختيار أردأ المال للتصدق به، و جعل أداءها فى السر خيرا، حتى تخلص من الرياء، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (البقرة ۲۶۷). لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (آل عمران ۹۲). قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (۲۶۳) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۲

الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا (البقرة ۲۶۳- ۲۶۴). أ رأيت تخير القرآن لكلمة صفوان، يدل بها على قسوة قلب هذا المتصدق الذى يتبع صدقته بالمن و الأذى، أو ينفق رياء، فهو لا ينبعث إلى الصدقة بعامل الشفقة و الرحمة، و لكن بعامل الغرور و الزهو، و لا أريد أن أسرف فى الحديث عن أسواء المن و الأذى و الرياء، فهى من الوضوح بمكان، و يقول فى الحديث عن كتمان الصدقة: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة ۲۷۱).

هذا و قد توعد القرآن أولئك الذين لا ترق قلوبهم للإنسانية، و لا يعطفون على البائسين و المحرومين، و قرنهم بهؤلاء الذين لا يؤمنون باللّه، و كأنما الكفر باللّه قرين الكفر بالإنسانية، قال سبحانه: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (۲۶) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (۲۷) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (۲۸) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (۲۹) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (۳۲) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (۳۳) وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۳۴) (الحاقة ۲۵- ۳۴).

أما الصوم فلم يطل القرآن الحديث عنه، و اقتصر على الحديث عن بعض أحكامه، و لكنه لم يترك بيان ما يحفزنا إلى الصوم، فأثارنا إليه بأننا لم ننفرد بأدائه، بل كان مفروضا على من سبقنا، و هو ينبوع من ينابيع تقوى اللّه بما فيه من إمساك النفس عما تشتهى، و التمكين للضمير كى يقوى و يشتد، كما أن اختصاص شهر رمضان بهذه العبادة، لما اختص به من ميزة نزول القرآن فيه: هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ (البقرة ۱۸۵)، فكان هذا الشهر جديرا أن يتقرب فيه إلى اللّه.

و تحدث القرآن عن الحج، فقال: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (آل عمران ۹۷). و انتثر فى القرآن الأسباب الباعثة على أداء هذه الفريضة، فقال:

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲۷) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (۲۸) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۲۹) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (۳۰) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (۳۱) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (۳۲) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۳

الْمُخْبِتِينَ (۳۴) (الحج ۲۷- ۳۴). فالحج مفروض لهذه المنافع التى يحصل عليها من يشهدونه فى الأشهر الحرم، و أى منافع أكبر من انعقاد هذا المؤتمر الإسلامى الجامع يعرف فيه كل بلد ما يحتاج إليه البلد الآخر، و ينعقد بين المسلمين فى أرجاء الأرض أعظم الصلات السياسية و الثقافية و الاقتصادية، فإذا انعقد هذا المؤتمر كل عام، تم الربط بين قلوب المسلمين فى مشارق الأرض و مغاربها، و كونوا قوة لها قيمتها و قدرها، و من الميسور الانتفاع بأيام الحج فى تحقيق هذا الهدف، إذا أحسن استغلال وقت الحج على وجه

يحقق هذه المنافع التى أشار إليها القرآن، و فى الحج كذلك منافع اقتصادية واضحة لسكان البيت الحرام.

و فضلا عن هذه المنافع الدنيوية، ذات الأثر البالغ فى حياة الإسلام- تخلص النفوس فى أيام الحج لذكر اسم اللّه فتخلع عن نفسها مظاهر هذه الحياة الدنيا، و يقف الحاج أمام اللّه عبدا قد تجرد من زخرف الدنيا و زينتها، و يومئذ يحاسب كلّ نفسه على ما قدم، و ما يجب أن يفعل، و فى الحج تعظيم لحرمات اللّه و شعائره، يدفع إلى التقوى، و يحفز إلى تطهير القلوب، و هو الهدف المقصود من الحج، وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۳۶) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ (الحج ۳۶، ۳۷).

و تحدث القرآن فى مواضع عن الكعبة، فقال: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (۹۶) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً (آل عمران ۹۶- ۹۷)، وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا- تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (آل عمران ۲۶). و إن بيتا هذا شأنه جدير بأن يزوره المسلمون، و يعبدوا ربهم عنده.

الأحكام

تقترن الأحكام فى القرآن بما يدفع إلى العمل بها، أو ينهى عن اقترافها، فإلى جانبها مغريات تدفع النفس و تحثها، أو تخوفها و تحذرها، معتمدة على التوضيح للسبب، أو الترغيب، و الترهيب، و هذه بعض آيات عرضت بعض الأحكام، لنرى المنهج القرآنى فى هذا العرض. قال تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (البقرة ۲۲۱). أ لا تراه قد قرن النهى عن الزواج من المشرك بما ينفر منه فمن هذا الذى يرضى أن يقاد إلى جهنم بينما اللّه يدعو إلى الجنة و الغفران.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۴

و هاك حكما آخر، قال سبحانه: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِى الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (۲۲۲) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۲۲۳) (البقرة ۲۲۲- ۲۲۳)، فحذرنا من قربان النساء فى ذلك الحين، بأننا نؤذى أنفسنا إن فعلنا، ثم ذكرنا بأن ذلك نهى من اللّه الذى يجب تقواه، و لجأ إلى الإرهاب و الترغيب، فأكد أننا سنلقى اللّه الذى نهانا، فكيف يكون المصير إن جئنا إليه، و قد فعلنا ما كان قد نهانا عنه، أما من أطاع و اتقى، فبشره بمغفرة من اللّه و رضوان.

و اقرأ قوله تعالى: وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا- يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۲۸) الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۲۹) فَإِنْ طَلَّقَها فَلا- تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۲۳۰) وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۳۱) وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا- تَعْلَمُونَ (۲۳۲) (البقرة ۲۲۸- ۲۳۲)، فتأمل مزج الأحكام بهذه الإثارات الوجدانية، الدافعة إلى العمل أو المسببة

للإحجام.

وقف عند نهيه للمطلقات أن يكتمن ما فى بطونهن من أجنة فقال: وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ (البقرة ۲۲۸)، فانظر كيف عبر عن الأجنة بأنها ما خلق اللّه فى الرحم، و كأنما كتمها معاندة للّه و مكابرة لا تليق، و كيف أثارهن إلى الاعتراف، موحيا بأن هذا الإنكار لا يتناسب مع الإيمان باللّه و اليوم الآخر، و كيف قرن الإمساك بالمعروف و التسريح بالإحسان، و سمى المتعدى لحدود اللّه ظالما، و جعل تبين حدود اللّه للقوم العالمين، و وصف الإمساك ضرارا بأنه اعتداء، و فاعله بأنه ظالم لنفسه، و ختم الحديث عن هذه

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۵

الأحكام بأن الذى يؤمن باللّه و اليوم الآخر، يتعظ و يعمل بتلك القوانين، و العمل بها طهر و فلاح.

و ختم القرآن أحكام المواريث بقوله: وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (۱۲) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۳) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (النساء ۱۲- ۱۴)، أو لا ترى أن الوصية من اللّه جديرة أن تسمع و تطاع، و أنه إذا كان الوقوف عند حدود اللّه يؤدى إلى الخلود فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، و الخروج على الحدود يخلد فى النار، فجدير بالعاقل أن يقف عند تلك الحدود و لا يتعداها.

و بعد أن تحدث عن محرمات النساء فى الزواج، و ما أحل زواجهن، قال: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (۲۷) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (۲۸) (النساء ۲۶- ۲۸)، و إذا كان اللّه يبين لنا، ليهدينا سواء السبيل، و ليتوب علينا، و يميل بمن يتبعون الشهوات إلى الرشد و الخير، هذا مع أنه ليس فيما فرض عنت و لا مشقة، لعلم اللّه بما خلق عليه الإنسان من الضعف، إذا كان ذلك حقا، أ فلا يجدر بالمرء أن يتقبل ما أباحه قبولا حسنا، و ينتهى عما نهى عنه.

و تأمل التوعد الشديد لمن يقتل مؤمنا عمدا، إذ يقول: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (النساء ۹۳).

و لما تحدث عن بعض أحكام الوضوء و التيمم، ختم ذلك بقوله: ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة ۶).

و إن عملا يطهر المرء، و به تمام النعمة، جدير أن يؤديه المرء شاكرا نعمة ربه.

و أصغ إليه يصور أسواء الخمر و الميسر فيقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) (المائدة ۹۰- ۹۱)، و هكذا صور تلك الرذائل مفسدة لعلاقة المرء بالناس و لعلاقته باللّه، فلم يقترفها و هى تقلب الحياة هكذا شقاء.

و بعد أن نهى عن قتل الصيد و المرء محرم بالحج قال: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (المائدة ۹۵). و تأمل ما يثيره فى النفس ذكر انتقام اللّه و عزته، ممن يعود فيفعل ما نهى عنه.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۶

تلك أمثلة قليلة نتبين منها النهج القرآنى فى عرض الأحكام، و كيف تصطحب هذه الأحكام بما يدفع النفس إلى قبولها و الاطمئنان إليها، و إذا كان الغالب فى الإنسان أن يقبل على العمل رغبة أو رهبة، فقد عمد القرآن إلى ذلك، فيعد و يوعد، و يبشر و ينذر، يثير

فی النفس غریزة حب الذات التی تدفع المرء إلی عمل ما یعود علیها بالخیر و الفلاح، و یثیر غریزة الخوف من مصیر مظلم شقی، و هکذا اعتمد القرآن علی الغرائز الثابتة فی الإنسان، کی یقوده إلی ترک الشر و فعل الخیر، و کل ذلک فی أسلوب متسق موسیقی تتخیر فیه اللفظة الموحیة بالمعنی المراد، و تأمل لذلک اختیار کلمة أمّ عند عد المحرمات من النساء، و کلمة والدة عند عد من یرضع الطفل، و بذلک کله اکتسبت الأحکام فی القرآن حیاة و قوة، و کان لها تأثیرها فی النفس فی ناحیة صیاغتها و منهجها، و بذلک کله امتاز القرآن من کتب القوانین الجافة، و کان له من الأثر فی النفوس ما لیس لهذه الکتب فی هدایة الناس و قیادتهم إلی الخیر.

مظاهر الطبیعة

دعا القرآن فی مواضع شتی إلی التفکیر فیما یحیط بالإنسان من مظاهر الکون، لأن هذا التفکیر یدفع إلی إجلال خالقه، و الإیمان العمیق بقدرته و حکمته، إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْکِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِما یَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِیها مِنْ کُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَیْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (البقرة ۱۶۴)، و أثنی علی أولئک الذین تدفعهم مظاهر الکون إلی التفکیر فیها، لإدراک ما أودع فیها من أسرار، و ما تدل علیه من أن مودع هذه الأسرار علیم قدیر، إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ لَآیاتٍ لِأُولِی الْأَلْبابِ (۱۹۰) الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللَّهَ قِیاماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَکَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (۱۹۱) (آل عمران ۱۹۰، ۱۹۱).

و نعی علی هؤلاء الذین یمرون بهذه المظاهر، فلا تسترعی انتباههم، و لا تدفعهم إلی التدبر، و التفکیر أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَتَکُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ یَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ یَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَی الْأَبْصارُ وَ لکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ (الحج ۴۶). وَ کَأَیِّنْ مِنْ آیَةٍ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ یَمُرُّونَ عَلَیْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (یوسف ۱۰۵).

و لأن القرآن کتاب دین اتجه، و هو یتحدث عن مظاهر الطبیعة، إلی تلک الناحیة التی تقود إلی الإیمان باللّه، و قدرته التی لا یعجزها شیء، و وجه النظر إلی أن کثیرا من تلک المظاهر یقود إلی الإیمان بالبعث و الحیاة الثانیة.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۷

فهو یوجه النظر إلی قدرة اللّه فی خلق السموات و الأرض إذ یقول: إِنَّ اللَّهَ یُمْسِکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَکَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ کانَ حَلِیماً غَفُوراً (فاطر ۴۱). وَ یُمْسِکُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَی الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (الحج ۶۵).

اللَّهُ الَّذِی رَفَعَ السَّماواتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی یُدَبِّرُ الْأَمْرَ یُفَصِّلُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ بِلِقاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِی مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِیها رَواسِیَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِیها زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۳) وَ فِی الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِیلٌ صِنْوانٌ وَ غَیْرُ صِنْوانٍ یُسْقی بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلی بَعْضٍ فِی الْأُکُلِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (الرعد ۲- ۴). إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْکِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِما یَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِیها مِنْ کُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَیْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (البقرة ۱۶۴). إِنَّ رَبَّکُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (الأعراف ۵۴). وَ آیَةٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّی عادَ کَالْعُرْجُونِ الْقَدِیمِ (۳۹) لَا الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَها أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ (۴۰) (یس ۳۷- ۴۰).

و أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (النحل ۷۹). وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (الروم ۲۵). أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۶۱) (النمل ۶۰، ۶۱). أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (۳۰) وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳۱) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (۳۲) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۳۳) (الأنبياء ۳۰- ۳۳). أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (۲۰) (الغاشية ۱۷- ۲۰).

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (الفرقان ۶۱). أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) (ق ۶- ۷). فهو فى كل هذه الآيات يدل بمظاهر الطبيعة على

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۸

قدرته، و هو من أجل ذلك يوجه النظر إلى السموات و الأرض و ما فيهما، طالبا التدبر و التأمل، لنصل بذلك إلى الإيمان بقدرته و جلال سلطانه، و لا أريد أن أطيل ببيان ما تفهمها.

و فى التأمل فى مظاهر الكون، فضلا عن الإيمان بقدرته، دعوة إلى عبادته، و هى دعوة مقرونة بأسبابها و دواعيها، و القرآن من أجل ذلك يقرن هذه المظاهر بالحديث عما فى خلقها من نعم يسعد بها الإنسان، و فى توجيه النظر إلى هذه النعم تحريك الطبيعة الإنسانية النبيلة إلى عبادة خالق تلك النعم و مسديها، فشكر الجميل سجية من سجايا الإنسان الكريم، و استمع إلى القرآن يعدد النعم قائلا: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (۳۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۳۵) (يس ۳۳- ۳۵). وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (۴۲) (يس ۴۱، ۴۲). اللّه الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (۵۳) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (۵۴) (طه ۵۳، ۵۴). وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳) (الزخرف ۱۲، ۱۳). هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (الملك ۱۵). وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (۱۹) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً (۲۰) (نوح ۱۹، ۲۰). أو ليس فى تذليل الأرض و تمكيننا من الانتفاع بها، ما مهد لنا سبيل الحياة عليها، و الانتفاع الكامل بها؟

و يذكر نعمته فى تمكيننا من الأرض، ننتفع بها كما نشاء، فيقول: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (الأعراف ۱۰). و يوجه نظرهم إلى السماء و ما فيها من زينة و إلى الأرض و ما ينبت بها من زرع بهيج، أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبادِ (۱۱) (ق ۶- ۱۱). أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ (السجدة ۲۷). وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱) وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۳) (النازعات ۳۰- ۳۳). هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۶۹

السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) (النحل ۱۰، ۱۱). الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (۵۳) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (۵۴) (طه ۵۳، ۵۴). وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (الحجر ۲۲). و إلى نعمة خلق الشمس و القمر، هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ (يونس ۵). و نعمة خلق النجوم و الكواكب، فهى زينة و جمال، تزدان بها السماء فى الليل، إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (الصافات ۶). وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً (فصلت ۱۲). و هى أعلام يهتدى الناس بها فى الظلمات، وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (الأنعام ۹۷).

و أكثر القرآن من توجيه النظر إلى ما فى اختلاف الليل و النهار من نعمة على الإنسان، و إلى ما خلق له الليل من الهدوء و الاستقرار و السكن فيه، و ما خلق له النهار من الجهاد فى سبيل العيش»، هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً (يونس ۶۷). وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (القصص ۷۳). وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) (النبأ ۱۰، ۱۱). و إلى نعمة النوم، إذ قال: وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (الروم ۲۳). و لما فى اختلاف الليل و النهار من نعمة السكون استعدادا لطلب الرزق نهارا، تساءل القرآن موجها النظر إليها فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۷۲) (القصص ۷۱، ۷۲).

و يتخذ القرآن من مظاهر الطبيعة وسيلة لإقناعنا بالبعث، فهذه الأرض الهامدة لا يلبث المطر أن ينزل عليها حتى تحيا و تخضر و تثمر، و هذه الظاهرة نراها بأعيننا فى كل حين، تقرب إلى أذهاننا فكرة الحياة بعد الموت، و قد كرر القرآن ذلك المعنى حتى تقبله النفس، و يثبت فيها، وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (الأعراف ۵۷). وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (فاطر ۹). وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۰

يُحْيِ الْمَوْتى وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) (الحج ۵، ۶)، وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فصلت ۳۹).

و من ذلك يبدو أن مظاهر الطبيعة التى نراها بأعيننا، قد وجه القرآن النظر إليها، ليصل بها إلى تثبيت الإيمان فى النفس إيمان منشؤه الاقتناع و يدعمه الحب الذى يدفع إلى العبادة. و إن ما يدركه العلماء كل يوم مما أودع فى الطبيعة من أسرار، ليزيد النفوس يقينا بقدرة الخالق و حكمته. و القرآن يتخذ ما عليه الكون من نظام دقيق حجة على وحدانية اللّه، و دليلا على تفرده بالصنع و الإتقان، فيقول: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا (الأنبياء ۲۲)، و لا جرم يفسد النظام، إذا كان يدير الكون إلهان، و يشعر كل منهما بالقوة و السلطان، و إذا كان اللّه هو المنفرد بخلق السموات و الأرض فلا معنى لأن يشرك به سواه ممن لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (۷۳) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۷۴) (الحج ۷۳، ۷۴).

المدح

أثنى اللّه على نفسه بما هو له أهل، و بهذا الثناء الحق يثنى عليه من يتقدم إليه بالعبادة، و فاتحة الكتاب التى تتلى فى الصلاة، كلها مدح له و ثناء، مدح له بالعظمة و الجلال، فهو رب العالمين، و صاحب النعمة عليهم بالقليل و الكثير، و بأنه السيد ذو السلطان يسألهم

عن تصرفاتهم يوم الدين. و لا تخلو صفحة فى القرآن من ثناء على اللّه و مدح له، و ذلك طبيعى فى كتاب جاء ليوجه الناس الوجهة الصحيحة فى عبادة اللّه و توحيده.

و أثنى القرآن على محمد ثناء جمّا، فجعله وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى (۴) (النجم ۳- ۴)، و من أهم ما أشاد به القرآن أخلاقه الكريمة، و قد أكد ذلك فى قوله سبحانه: وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم ۴)، كما كان خلق الرفق و اللين من بين الصفات التى خصها القرآن بالحديث عنها، إذ قال: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (آل عمران ۱۵۹)، فبالرفق تملك قلوب الأتباع، و ينال صادق مودتهم.

و مدح القرآن أصحاب محمد، و كان من أهم ما وصفهم به التراحم بينهم، و الشدة على أعدائهم، أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ (الفتح ۲۹).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۱

و مدح من آمن و اتبع الرسول، فوصفهم حينا بأنهم على الهدى، فقال: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) (البقرة ۲- ۵)، و بأنهم أولو الألباب إذ قال:

فَبَشِّرْ عِبادِ (۱۷) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۸) (الزمر ۱۷، ۱۸)، و بأنهم كالسميع البصير الذى يهديه سمعه و بصره، على عكس أولئك الذين لا يتبعون أحسن القول: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (هود ۲۴). و جعل القرآن للمؤمن نورا يمشى به فى الناس، فإنه يهتدى بهذا النور إلى طريق الخير و إلى صراط مستقيم، أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام ۱۲۲). و فى عقد هذه الموازنات تمجيد للإيمان و تعظيم من شأن المؤمنين.

الهجاء

فى القرآن هجاء لمن تعرض للدعوة، و وقف فى سبيل نجاحها، و لمن أنكرها من غير حجة و لا برهان، و لمن نافق فأظهر بلسانه الإيمان، و لم يؤمن قلبه و لا ضميره، و جدير بهؤلاء أن ينالهم الذم و التقريع. و الهجاء فى القرآن يمتاز بهذه النزاهة التى ينأى بها عن الفحش و يبعد عن الدنس، كما يمتاز بأنه يتجه إلى الفعل يندد به، و يعيبه، و لا يعنيه الأشخاص و لا يذكرها، لأنه يرمى إلى ترك الفعل و الابتعاد عنه، و من الحكمة ألا يذكر فاعله، لأن ذلك أدعى إلى أن يجد الباب مفتوحا أمامه، يدخله من غير أن يكون لماضيه ما يحول بينه و بين قبول الدين الجديد، أو يكون سمة خالدة تؤذيه دائما، إذا هو قبل هذا الدين الجديد، فالقرآن يهجو الفعل، و يترك لفاعله فرصة اجتنابه، و هذه بعض نماذج تبين النهج القرآنى فى الهجاء، قال سبحانه فى المنافقين: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (۱) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۴) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۵) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۲

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۶) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (۷) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْها الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸) (المنافقون ۱- ۸)، فأنت تراه يهاجم عقيدة المنافقين و أعمالهم و أقوالهم و يفندها،

و يصورهم و يصور عقليتهم، و يرد على مزاعمهم فى قوة تحطم نفسيتهم، و تبعث فى قلوبهم الوهن. و للمنافقين من الأثر السيئ فى صفوف المؤمنين ما ليس لخلص الكافرين، فلا عجب إذا نالوا هذا الهجاء العنيف.

صورت الآيات المنافقين جبناء، يتخذون نفاقهم وسيلة لسلامتهم، و سببا يصلون به إلى هدفهم من الصد عن سبيل اللّه، فهم يجيئون إلى الرسول و يقسمون له إنهم يشهدون برسالته، و يؤمنون بها، و لكن اللّه يفضح نيتهم، و يعلن أمرهم و يؤكد كذبهم، و يذم هذه الخطة النكراء، التى نتجت من أنهم أغلقوا قلوبهم، و أهملوا عقولهم، فلم يدعو لأنفسهم مجالا للتفكير السليم، و يمضى القرآن فى تحقيرهم، فيسخر من هذه الأجسام التى تغر بمرآها، و لكنها تحمل قلوبا خاوية ضعيفة، ملأها الجبن، و استولى عليها الخوف، فهى تهلع لكل صيحة، تظنّ العدو قادما يغير عليهم، و يصور حركة استهزائهم إذا دعوا إلى التوبة، و استكبارهم عن الخضوع و الطاعة، فهم يلوون رءوسهم إعراضا و كبرا، و هنا يهددهم القرآن بأن اللّه لن يغفر لهم لأنهم قوم فاسقون، يعملون على هدم الدعوة، و التضييق عليها من الناحية المالية، فيدعون الناس إلى قبض أيديهم عن معاونتها بمالهم، و هنا يسخر القرآن من أوهامهم، فيذكرهم بأن للّه خزائن السموات و الأرض، و ينسبون لأنفسهم العزة، و أنهم قادرون على إخراج المؤمنين من المدينة، و هنا يؤكد القرآن أن العزة للّه و لرسوله و للمؤمنين.

تصوير القرآن للمنافقين فيه حركة و حياة، ينقل أعمالهم، و يسجل كلامهم، و يصف ما يختلج فى أعماق نفوسهم، فكأنك تراهم قادمين إلى الرسول يقسمون له أغلظ الأيمان، فإذا مضوا أخذوا يصدون عن سبيل اللّه، و تلمح لىّ رءوسهم عند ما يدعون إلى التوبة و الإنابة، و تسمعهم يدعون الناس إلى قبض أيديهم عن معونة المؤمنين، و يقولون و الغيظ يملأ أفئدتهم: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ.

و تأمل القرآن يندد بالفعل و يعيبه قائلا: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (۲۰۴) وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۳

الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ (۲۰۵) وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ (۲۰۶) (البقرة ۲۰۴- ۲۰۶). و القرآن هنا مصور كذلك، يرسم العمل، و يحكى القول، و يسجل الجواب، كما تراه يصور المهجوين فى قوله سبحانه: وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران ۷۸)، أ لا ترى أن لىّ لسان هذا الفريق بالكتاب، يصور ما يريد أن يقوم به هذا الفريق من إيهام الناس كذبا أن ما يقولونه من عند اللّه، و ما هو من عند اللّه.

و من أوجع الهجاء فى القرآن قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (۵۶) (الأنفال ۵۵- ۵۶)، ففى إطلاق اسم الدواب ما يؤذن بخروجهم عن دائرة العقلاء، كما قال فى موضع آخر: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (محمد ۱۲)، و فى موضع ثان وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (البقرة ۱۷۱).

و تأمل الاستفهام التهكمى فى قوله سبحانه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (البقرة ۱۷۰). و التشبيه الموجع فى قوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعة ۵).

و إذا كان القرآن الكريم يقصد من الهجاء ذم الفعل للتنفير منه، فإنا نراه يتبع الهجاء بما يستخلص منه من عظة حينا، و من أمر يجب اتباعه حينا آخر، و من موازنة بين هذا الذى استحق الهجاء بسوء ما فعل، و ذاك الذى انتهج النهج السليم ففاز و ظفر، و فى ذلك تحقيق لهدف القرآن الذى يهدى بالتى هى أحسن.

العتاب

من أوضح ما جاء من العتاب فی القرآن قوله تعالی یعاتب رسوله، و قد جاءه أحد المسلمین یسأله فی أمور الدین، و کان الرسول ساعتئذ فی حدیث مع طائفة من المشرکین، مؤملا أن یفضی به الحدیث إلی إیمانهم، فلم یعن بأمر هذا المسلم السائل، بل أعرض عنه عابسا، فنزل قوله سبحانه: عَبَسَ وَ تَوَلَّی (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمی (۲) وَ ما یُدْرِیکَ لَعَلَّهُ یَزَّکَّی (۳) أَوْ یَذَّکَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّکْری (۴) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنی (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّی (۶) وَ ما عَلَیْکَ أَلَّا یَزَّکَّی (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ یَسْعی (۸) وَ هُوَ یَخْشی (۹) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّی (۱۰) (عبس ۱- ۱۰).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۴

بدأ هذا العتاب متحدثا عن الغائب، و کأنه بذلک یرید أن یرسم الصورة لرسوله علی لوحة یراها أمام عینیه علی وجه غیر وجهه، لتکون الصورة واضحة القسمات بیّنة المعالم، فالمرء لا یری وجه نفسه، ثم اتجه العتاب إلی الخطاب فی رفق قریب من العنف، مبینا ما لعله یرجی من الخیر من هذا الأعمی السائل، ثم عقد موازنة بین من عنی به النبی و من أعرض عنه، فهذا مستغن لا یعنیه أن یصغی إلی الدعوة، أو یطیعها، و الآخر مقبل، تملأ قلبه الخشیة، و یدفعه الإیمان، و قد سجل القرآن معاملة الرسول لهما، و لکن هذا العتاب یحمل فی ثنایاه عذر الرسول، فهو ما تصدی لمن استغنی إلا أملا فی هدایته و إرشاده.

و قد یقسو القرآن فی العتاب، بعد أن یکون قد استخدم الرفق و اللین، و ذلک فی الأمور التی یترتب علی التهاون فیها ما یؤدی بالدعوة، کما تری ذلک فی قوله سبحانه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ما لَکُمْ إِذا قِیلَ لَکُمُ انْفِرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَی الْأَرْضِ أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیاةِ الدُّنْیا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا فِی الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِیلٌ (۳۸) إِلَّا تَنْفِرُوا یُعَذِّبْکُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَیْئاً وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۹) (التوبة ۳۸، ۳۹). و لعله بعد رفقه بهم، و بیانه لهم أن متاع الحیاة الدنیا قلیل، إذا قیس بمتاع الآخرة- رأی ألا یقف عند هذا الحد من الموازنة، بل مضی محذرا منذرا.

و من العتاب القاسی- لأنه یمس أساسا من أسس نشر الدعوة لتأخذ طریقها إلی النصر و النجاح- قوله تعالی: ما کانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْری حَتَّی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیا وَ اللَّهُ یُرِیدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۶۷) لَوْ لا کِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (۶۸) (الأنفال ۶۷- ۶۸). أما إذا لم یتصل العتاب بمثل ذلک من مهمات الأمور فإن العتاب یرق و یلین کما تری ذلک فی قوله تعالی: عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْکاذِبِینَ (التوبة ۴۳). و قوله سبحانه:

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضاتَ أَزْواجِکَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (التحریم ۱).

فمعرفة الصادق و الکاذب إذا کانت قد ضاعت فی فرصة، فمن الممکن أن یتوصل إلیها فی فرصة أخری، و تحریم النبی لما أحل اللّه له مسألة شخصیة لیس لها من الأثر ما للجهاد من آثار.

مصرفی القرآن

أشار القرآن إلی مصر مرات عدّة، ففیها جری معظم حوادث قصة یوسف، و إلی فرعونها أرسل موسی، و قد کررت قصته کثیرا، و لم یؤرخ القرآن لمصر، و لکنه أشار إلی النواحی التی ترتبط بهدفه من الهدایة و الإرشاد.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۵

و قد أثبت القرآن ما کان لمصر من عظمة و مجد و غنی، فقد قال علی لسان موسی: وَ قالَ مُوسی رَبَّنا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَةً وَ أَمْوالًا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا (یونس ۸۸).

کما أشار إلی عظمة ما کان لها من ملک ضخم فوق سطح الأرض، ترمقه الأمم بعین الإکبار و الإجلال، حین قال علی لسان هذا

المصرى الذى آمن بموسى: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكَ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ (غافر ۲۹). من بلاغة القرآن ۲۷۵ مصرفى القرآن ..... ص : ۲۷۴

ا فرعون فإنه معتز بملك مصر، و بأنهارها التى تجرى تحت قصوره، وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (الزخرف ۵۱)، و إذا كانت مصر بهذه العظمة و الجلال فلا جرم كان فرعون يشعر فى نفسه بعلو لا يسامى، و جلال لا يقارب، و لذا أكثر القرآن من وصفه بالعلو فى الأرض، و انتهى الأمر بالفراعنة فى مصر إلى أن ادعوا الألوهية، و لهذا قال فرعون عند ما دعاه موسى إلى عبادة اللّه: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (الشعراء ۲۹). وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (القصص ۳۸). و بهذا بلغ فرعون مدى الطغيان الذى لا طغيان بعده، و لما أرسل إليه موسى وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (القصص ۳۹).

و أثبت القرآن على فرعون و ملئه أنهم قوم عالون فاسقون ظالمون، و لعل سبب وصفهم بذلك أنهم لم يؤمنوا باللّه، و لم يتركوا اتخاذ فرعون إلها، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (هود ۹۷). و رفض فرعون و ملؤه اتباع موسى لأمور:

أولها: أن موسى و هارون بشران، لا يمتازان عنهم بشىء ما، فضلا عن أقومهما يعبدون فرعون، و يتخذونه إلها، فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (المؤمنون ۴۷). بل رأى فرعون أنه خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (الزخرف ۵۲).

فقد كان بلسان موسى عقدة تحول بينه و بين الإفصاح فى يسر، و رأى فرعون أنه مما كان يعزز دعوى موسى فى الرسالة أن لو كان ملكا متوجا، أو عزّز بملائكة تؤيده، فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (الزخرف ۵۳).

ثانيها: أنهم رأوا فى اتباع موسى و هارون نزولا من مكانة الرئاسة التى كانوا يستمتعون فيها بحقوق و مزايا سوف يفقدونها إذا اتبعوهم، إذ يصبحون من السوقة و الأتباع، قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (يونس ۷۸).

ثالثها: أنهم رأوا صلة وثقى بين الأرض التى نبتوا فيها و ترعرعوا عليها، و بين

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۶

التقاليد و العقائد التى ورثوها عن آبائهم و أجدادهم، و رأوا فى الخروج على تلك التقاليد و العقائد اغترابا عن وطن توارثوه، و وجدوا أنهم إذا آمنوا بموسى فكأنهم أخرجوا من أوطانهم، و قد كرّر القرآن فكرتهم هذه فى مواضع عدّة منه، فقال على لسان فرعون يخاطب موسى: قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (طه ۵۷).

و قال على لسانه، يخاطب الملأ حوله يريد أن يثيرهم ضد موسى: قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۳۵) (الشعراء ۳۴، ۳۵).

و أصر المصريون تعنتا على ألا يؤمنوا بموسى و إلهه، برغم ما نزل بمصر من محن أنذرهم بها موسى، و كانوا يتطيرون به و بقومه، و يحدثنا القرآن عما نزل بمصر يومئذ من البلاء فى قوله: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳۱) وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳) وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۳۴) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) (الأعراف ۱۳۰- ۱۳۵).

و الظاهر أن موسى لم يدع الشعب المصرى إلى اتباعه، و لكنه مضى رأسا إلى فرعون يدعوه إلى دينه، مؤملا بعد هدايته أن يقتدى به

قومه فيؤمنوا، و لم يوجه موسى دعوته إلى غير فرعون، و إن كان السحرة قد آمنوا به بعد أن اعتقدوا أن قوة خارقة هى التى أمدّته.

القصة فى القرآن

من الفنون الأدبية الرفيعة التى وردت فى القرآن القصة، جاءت فيه لتساهم فيما يرمى إليه القرآن بعامة من الوعظ و النصح و الإرشاد، و ليكون فيها معين لا ينضب من الأسى للرسول الكريم، فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، و قد أوضح القرآن هذين الهدفين من إيراد القصة فيه حين قال: ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الأعراف ۱۷۶). لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ (يوسف ۱۱۱). و قال: وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ (هود ۱۲۰). و على ضوء هذين الهدفين نزن ما ورد فى القرآن من القصص فليس هو بكتاب أنشئ للقصة قصدا، و لكنه ينظر إلى القصة من هذه الزاوية التى تحقق

أهدافه العامة، فلا يصح حينئذ أن يؤخذ «۱» عليه أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافها، و لا أنه لا يتسلسل فى إيراد حوادثها مرتبة منظمة، و أنه يصعب فهم القصة من القرآن، على من لم يطلع عليها فى مصدر آخر، ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب و الوعظ، فحينا يقص القصة كلها، محبوكة الأطراف، موصولة الأجزاء، مرتبطا بعضها ببعض، فى تسلسل و اتساق يسلمك السابق منها إلى لاحقه، حتى تصل إلى خاتمتها، و ندر ذلك فى القرآن، كما نراه فى سورة يوسف، و فى معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها، لأن فى هذا البعض ما يحقق الهدف، و قد يلمح القرآن و يشير إلى القصة تلميحا يستغنى به عن الإطالة، اعتمادا على أن القصة معروفة مشهورة. أ رأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص، أ تراه يعمد إلى القصة كلها فيسردها؟ أم إنه يعمد أحيانا إلى جزء من القصة يورده فى خطبته، و أحيانا يكتفى بالإيماء إلى القصة و الإشارة إليها، من غير أن يكون فى مثل هذا العرض نقص فى الخطبة، أو اعتراض على الخطيب. و قد يتكرر جزء القصة فى القرآن إذا استدعى المقام تكرير هذا الجزء.

و لنأخذ قصة إبراهيم نتبين النهج القرآنى فى عرضها، و السر فى اتباع هذا النهج.

و قد تحدث القرآن كثيرا عن إبراهيم، فعند ما عرض له أول مرة فى سورة البقرة كان فى معرض الرد على اليهود و النصارى، و هنا ذكر من قصة إبراهيم ما يؤيد دعوة محمد، و بيان أن محمدا قد تبع ملة إبراهيم، و أن إبراهيم وصى بنيه من بعده وصايا هى تلك التى جاء محمد بإذاعتها، و هاك بعض ما جاء فى هذا المقام تتبين به شدة المناسبة للموضع الذى جاء فيه، قال سبحانه: وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (البقرة ۱۲۰). وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (البقرة ۱۲۴). وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۲۷) رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۲۸) رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۲۹) وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۳۰) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (البقرة ۱۲۷- ۱۳۱). وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ

---

(۱) راجع رأى نولدكه ص ۴۸ من كتاب تطور الأساليب النثرية.

إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۳۵) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ

الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۶) (البقرة ۱۳۵، ۱۳۶).

و عرض القرآن مرة ثانية لإبراهيم فى سورة البقرة، و هو فى معرض الحديث عن انفراد اللّه بالألوهية، و أنه لا شريك له فى السموات و لا فى الأرض، فعرض من قصته فى هذا المقام ما يناسبه إذ عرض هذا الحديث الذى دار بين إبراهيم، و بين الملك الذى آتاه اللّه الملك، فادعى الألوهية، فأفحمه إبراهيم إفحاما لم يستطع الملك أن يتخلص منه، و تتبين جمال الاستشهاد بهذا الجزء من قصة إبراهيم إذا أنت قرأت آية الوحدانية التى منها: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ (البقرة ۲۵۵). ثم قرأت قوله متعجبا: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقرة ۲۵۸). و كان الحديث عن إبراهيم و سؤال ربه رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى (البقرة ۲۶۰). مرتبطا تمام الارتباط بالحديث عن اللّه الذى يحيى و يميت.

و جاء بجانب من قصة إبراهيم فى سورة الأنعام، و كان يتحدث عن قلة غناء عبادة غير اللّه، و ضلال من يتخذ من دون اللّه إلها لا ينفع و لا يضر، و حيرته و فقدان صوابه، إذ يقول: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ (الأنعام ۷۱). فلا جرم ناسب المقام أن يورد هنا من قصة إبراهيم هذا الحديث الذى دار بينه و بين أبيه آزر، ينكر فيه إبراهيم على أبيه أن يتخذ من دون اللّه إلها، ثم يمضى القرآن مبينا كيف اهتدى إبراهيم إلى اللّه الحق، بعد أن رأى سواه، ليس خليقا بالألوهية، و لا يصلح للعبادة، فيقول: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۷۴) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۷۹) (الأنعام ۷۴- ۷۹).

أ رأيت شدة الصلة بين هذا الجزء من قصة إبراهيم، و بين المقام الذى ورد فيه.

و جاء الحديث عن استغفار إبراهيم لأبيه فى سورة التوبة، بعد نهى الرسول

من بلاغة القرآن، ص: ۲۷۹

الكريم عن استغفاره للمشركين، فكان الربط قويا متينا، ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۱۳) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (۱۱۴) (التوبة ۱۱۳، ۱۱۴).

أما ما ورد من قصة إبراهيم فى سورة هود، فهو الجزء الذى تحدث فيه عن نجاته و عذاب قومه، و ذلك فى معرض الحديث عن نجاة من نجا من الأنبياء، و هلاك من هلك من أقوامهم الذين لم يؤمنوا بهم، فأورد من ذلك ما حدث لنوح و قومه، و هود و قومه عاد، و صالح و قومه ثمود، يعرض من قصصهم لهذه الناحية التى عرض لها من قصة إبراهيم، التى ختمها هنا بقوله: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود ۷۶).

و كان الحديث عن إبراهيم فى سورة إبراهيم، واردا بعد الحديث عن نعم اللّه التى لا تحصى، و هنا ذكرهم بتلك النعمة الكبرى و هى نعمة أمنهم فى حرمهم، تلك النعمة التى استجاب اللّه فيها دعوة إبراهيم، و يضم القرآن إلى هذه النعمة دعاء إبراهيم أن يجنبه ربه عبادة الأصنام، و لننصت إلى حديث أمن البيت الحرام، تلك النعمة التى لا تستطيع قريش إنكارها، إذ يقول: وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴) وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۶) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ

ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (۳۷) (إبراهيم ۳۴- ۳۷). و كأنه و هو يذكّر بهذه النعمة، يبين لهم طريق شكرها بتوحيده و عبادته.

و ورد جزء من قصة إبراهيم فى سورة مريم، و لما كان المقام مقام تنزيه اللّه عن الشريك، ورد من القصة تلك المناقشة التى دارت بين إبراهيم و أبيه، يبين فيها إبراهيم خطل الرأى فى الإشراك باللّه، وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۴۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (۴۲) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (۴۳) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (۴۴) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (۴۵) قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا (۴۶) (مريم ۴۱- ۴۶).

و لما كان الحديث فى سورة الأنبياء عن وحدانية اللّه كذلك و أن ما سواه لا يليق

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۰

به أن يكون إلها يعبد، ورد فى هذه السورة من قصة إبراهيم ما يوضح هذه الحقيقة و يؤكدها فى الذهن، فقص القرآن حادث تحطيمه للأصنام، حادثا عمليّا يبين قلة غنائها، و أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تصلح أن تكون معبودة من دون اللّه، فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (۵۸) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۵۹) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (۶۰) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (۶۱) قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (۶۲) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (۶۳) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (۶۴) (الأنبياء ۵۸- ۶۴). و فى سورة الشعراء حديث عن الرسل، و دعوتهم إلى عبادة اللّه وحده، فبهذه الدعوى أرسل موسى إلى فرعون، و أرسل هود و أرسل صالح، فلما جاءت قصة إبراهيم تنوولت من تلك الناحية، فعرض إبراهيم ما دفعه إلى ترك عبادة ما كان قومه يعبدون، و إلى الاتجاه إلى اللّه وحده بالعبادة، قال سبحانه: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (۶۹) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (۷۰) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (۷۱) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (۷۳) قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۷۴) قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (۷۷) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۸۰) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (۸۱) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (۸۲) (الشعراء ۶۹- ۸۲). أى براعة فى هذا العرض، و أية قوة خارقة، فالمقام فى السور الثلاث تحدث عن وحدانية اللّه، و تعدد المعروض من قصة إبراهيم، لتأييد هذه الوحدانية، فعرض من هذه القصة مرة خوف إبراهيم من سوء مصير من يشرك باللّه، و حذر والده من سوء هذا المصير، و فى موضع آخر عرض منها حادثا عمليّا يبين قلة غناء هؤلاء المعبودين من دون اللّه، و عرض فى موضع ثالث الأسباب التى دفعت إبراهيم إلى عبادة اللّه وحده. كما عرض فى سورة العنكبوت ما تحدث به إلى قومه مما يدفعهم إلى تلك العبادة، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (العنكبوت ۱۷).

و تبدو البراعة القوية كذلك فى عرض القرآن حادث تحطيم الأصنام عرضا آخر غير العرض الأول، يصور تصويرا ملموسا عجز هؤلاء الآلهة و قلة حيلتها، حين فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (۹۱) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (۹۲) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) (الصافات ۹۱- ۹۳).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۱

و هكذا تبين ما ذكرناه من استشهاد القرآن بما يعنيه من أجزاء القصة، و بلوغ القرآن أهدافه من ذكر هذه الأجزاء، و فى الاستطاعة تتبع ذلك فيما جاء من قصص فى القرآن.

الجدل

لا يجرى الجدل فى القرآن على هذا النظام المنطقى الجاف، تذكر فيه المقدمات على نظام خاص، تتبعها النتائج، فإن القرآن لم ينزل لهداية طائفة خاصة لها ثقافتها الخاصة، بل نزل لهداية الناس جميعا، و ما به من أدلة يلقى فى النفس الاقتناع، و يملأ القلب باليقين، سواء فى ذلك العامة و الخاصة.

و قد ذكر العلماء من ألوان الجدل القرآنى القول بالموجب «۱»، قال ابن أبى الأصبع: و حقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه، و قال غيره هو قسمان:

أحدهما: أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شىء أثبت له حكم، فتثبتها لغير ذلك الشىء، كقوله تعالى: يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ۸). فالأعز وقعت فى كلام المنافقين كناية عن فريقهم، و الأذل عن فريق المؤمنين، و أثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت اللّه فى الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، و هو اللّه و رسوله و المؤمنون، فكأنه قيل: صحيح ذلك: ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرج، و اللّه و رسوله الأعز المخرج. و الثانى حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه كقوله تعالى: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ (التوبة ۶۱). يريدون «۲» أنه صلّى اللّه عليه و سلم سمّاع لكل شىء، مصدق لكل قول، و لكن الآية لم تترك الأذن مطلقة، بل نسبتها إلى الخير، و لهذا كان تمام الآية يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ (التوبة ۶۱). أى أنه يصدق باللّه، و يسلم للمؤمنين، لا لكم، لعدم تصديقه إياكم، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم، حيث قبلهم، و لم يكشف حقيقتهم.

و عدوا من أنواع الجدل القرآنى الانتقال «۳»، و ذلك أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذى كان آخذا فيه، لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول، كما فى قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ

---

(۱) الإتقان ج ۲ ص ۱۳۷.

(۲) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى بيومى بك ص ۱۳۹.

(۳) الإتقان ج ۲ ص ۱۳۷.

إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقرة ۲۵۸)، فإن الملك الذى جادله إبراهيم فهم من الإحياء و الإماتة قدرته على إبقاء من يستحق القتل، و حكمه على الحىّ بالموت، فلم يرد إبراهيم مناقشته، لكى يبين له مراده من الإحياء و الإماتة، بل انتقل إلى استدلال لا يجد الملك له وجها يتخلص به منه، فقال: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ و هنا بهت الملك، و لم يمكنه أن يقول: أنا الآتى بها من المشرق، لأن من هو أسن منه يكذبه.

و منها مجاراة الخصم «۱»، بتسليم بعض مقدماته، للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه، و ذلك كقوله تعالى: قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۰) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (إبراهيم ۱۰، ۱۱)؛ فليس المراد أنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، بل كأنهم قالوا: إن ما ادعيتم من كوننا بشرا حق لا سبيل إلى إنكاره، و لكن هذا لا ينافى أن يمن اللّه علينا بالرسالة، و قد أثبت القرآن فى موضع آخر، كما ذكرنا، أن الرسول لا يكون إلا بشرا، وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹) (الأنعام ۸، ۹).

و فى هذا النوع من الجدل استدراج للخصم، و استجلاب لإصغائه، و ربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الإنكار.

و منها الإسجال «۲»، بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها كما فى قوله تعالى: وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (الأعراف ۴۴).

و فى مثل هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المتشككين و المنكرين و إثارة الخوف فى أنفسهم، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم، و يدفعهم الخوف إلى التأمل، عساهم يهتدون.

و منها التسليم «۳»، و هو أن يسلم بوقوع المحال تسليما جدليا، لبيان ما يترتب على ذلك من أمور محالة، و قد يبدأ الكلام حينئذ بحرف امتناع، ليدل على أنه ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، كما فى قوله سبحانه: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا (الأنبياء ۲۲)، و حينا ينفى صراحة، ثم يسلم وقوعه تسليما جدليا، لا يلبث أن

---

(۱) المرجع السابق نفسه.

(۲) الإتقان ج ۲ ص ۱۳۷.

(۳) الإتقان ج ۲ ص ۱۳۷.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۳

يحكم الواقع بانتفائه، كما فى قوله تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ (المؤمنون ۹۱)، فالمعنى ليس مع اللّه من إله، و لو سلم أن معه إلها لزم من ذلك ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، و علا بعضهم على بعض، فلا يتم فى العالم أمر، و لا ينفذ حكم، و لا تنتظم أحواله، و الواقع خلاف ذلك، ففرض وجود إلهين محال، لما يترتب عليه من المحال. و فى هذا اللون من الجدل تقليب للأمر على جميع وجوهه، ليكون الحكم المراد سليما لا شك فيه.

و منها التقسيم «۱» و السبر، بأن يقسم ما هو محل الجدل إلى منتهى أقسامه، و يسبر كل قسم بأن ينفى عنه ما يريد الخصم إثباته له، كقوله سبحانه يرد على المشركين تحريمهم ذكور الأنعام تارة و إناثها أخرى: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۴۴) (الأنعام ۱۴۲- ۱۴۴). رد اللّه عليهم تحريمهم بطريق السبر و التقسيم، فبين أنه قد خلق من كل زوج مما ذكر، ذكرا و أنثى، فما علة تحريم ما حرمتم؟ لا يخلو أن يكون ذلك من جهة الذكورة أو الأنوثة أو إليهما معا، أو لا يدرى له من علة بأن يكون تعبديا أخذ عن اللّه تعالى، و الأخذ عنه سبحانه إما بوحى و إرسال رسول، أو سماع كلامه و تلقى ذلك عنه، و هو معنى قوله تعالى:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا، تلك هى وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها، و يلزم على الأول أن يكون جميع الذكور حراما، و على الثانى أن يكون جميع الإناث حراما، و على الثالث تحريم الصنفين معا، و هم يحرمون البعض فى حالة، و البعض فى حالة أخرى، و لم يأتهم رسول قبل محمد يحرم عليهم ما حرموه، و لم يدعوا الأخذ عن اللّه بلا واسطة، و إذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى و هو أن ما قالوه ضلال و كذب على اللّه. و مثل هذا التقسيم و السبر لا يدع مجالا للشك، و تستريح النفس إلى ما تصل إليه من نتائج عن طريقه.

هذا، و من أكبر الموضوعات التى حدث فيها الجدل موضوع توحيد اللّه، و اليوم الآخر، و رسالة محمد، و قد بينا فى إفاضة ألوان هذا النقاش، و كيف كانت ردود القرآن باعثة على التفكير، مثيرة للوجدان معا.

---

(۱) المرجع السابق ص ۱۳۶ ج ۲.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۴

الابتهال

من الأغراض التى جاءت فى القرآن تعليم المؤمن كيف يتجه إلى اللّه، و تخلص نفسه من شوائب هذه الحياة، فيتجه إليه حينا يحمده و يستعينه، كما فى فاتحة الكتاب، و قد فرضت هذه الفاتحة سبع عشرة مرة فى اليوم، و فى الاستعانة باللّه بين الحين و الحين فى الليل و النهار تقوية للروح المعنوية فى المرء، و تربية لضميره.

و هذا ابتهال آخر، يلجأ فيه الإنسان بضعفه إلى اللّه فى قوته، يطلب منه أن يسبغ عليه غفرانه و أن ينصره، فيقول: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (البقرة ۱۸۶).

و نؤمر بأن نذكر عظمة اللّه و جلاله و قوته فى أسلوب يجمع إلى قوة المعنى فخامة الأسلوب، قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۶) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۲۷) (آل عمران ۲۶، ۲۷).

و فى هذا الابتهال تصعد الكلمات مسجلة نعمة الإيمان، ضارعة إلى اللّه أن يبعد الخزى، مؤمنة بحكمة خلق السموات و الأرض، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (۱۹۱) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۱۹۲) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (۱۹۳) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (۱۹۴) (آل عمران ۱۹۱- ۱۹۴). و فى تكرير كلمة الرب ما يشعر بهذه الصلة الروحية السامية، التى بها يطمع المؤمن فى أن يستجاب له.

و فى سورة الفلق، يلجأ الإنسان إلى اللّه من شر ما يستكن فى الظلام من شرور، و من شر ما يستكن فى النفوس المظلمة من هذه الشرور، و فى سورة الناس يلجأ إلى اللّه أن يحميه من إغواء الشيطان و من على شاكلته من الناس.

و قد يكون فيما يعلمنا اللّه من دعاء بيانا للخطة المثلى الواجبة الاتباع، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (البقرة ۲۰۱). فقد بينا فيما مضى أن تلك الصلة بالدنيا و الآخرة هى الصلة

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۵

المثلى للإنسان المثالى، و لم يقتصر الابتهال على طلب التوفيق فى أمور الدين، بل شمل طلب السعادة فى شئون الدنيا، فقد أثنى اللّه على الذين يقولون: رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (الفرقان ۷۴).

بعض صور الحياة الجاهلية

سجل القرآن بعض ألوان هذه الحياة، منددا بها حينا، و ممتنا عليهم حينا آخر، أن نقلهم من تلك الحياة، إلى حياة أخرى رفيعة، و إنما عارض القرآن الحياة التى نزل ليهذبها، أو يغير من عاداتها و عقائدها، و لذا كانت الحياة الجاهلية التى يعرض بعض صورها هى تلك التى عاصرها القرآن، أما الجاهلية القديمة، فمما لم يعن القرآن بها، إلا إذا كانت آثارها لا تزال باقية.

فمن الناحية الدينية، صور القرآن العرب طوائف، فطائفة- و لعلها الغالبية الكبرى- قوم يشركون باللّه، و يتخذون أصناما يعبدونها، و يتقربون إليها، و القرآن يصورهم برغم اعترافهم بأن اللّه هو الذى خلقهم و خلق السموات و الأرض و سخر الشمس و القمر، و له ملك السموات و الأرض، و هو الرازق المدبّر- برغم ذلك يتخذون من الأوثان آلهة، و قد سجل القرآن تلك العقيدة فى قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (العنكبوت ۶۳)، وَ

لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (العنكبوت ۶۱). وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ۸۷). قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۴) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ (المؤمنون ۸۴، ۸۵). قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ (يونس ۳۱). و قد كان من الطبيعى أن يتجهوا إلى اللّه وحده بعبادتهم، ما داموا يعتقدونه متصفا بتلك الصفات، و لكنهم أشركوا به غيره فى العبادة، و اتخذوا من الأصنام المنحوتة آلهة يعبدون، و جعلوا لهذه الآلهة نصيبا من أرزاقهم يقدمونه قرابين إليها، و حينا يجعلون للّه نصيبا من هذه القرابين، و لأوثانهم نصيبا، ثم ينسون نصيب اللّه و يقدمونه لهذه الأوثان. و ذكر القرآن أسماء بعض هذه الأصنام إذ قال: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى (۱۹) وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (۲۰) (النجم ۱۹، ۲۰). و قد ندد القرآن بهذا الإشراك فى العبادة، و تسوية هذه الأصنام باللّه، فقال: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (البقرة ۱۶۵). ذلك أنهم اتخذوا هذه الأصنام

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۶

شفعاء لهم عند اللّه، فقالوا: إننا ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى (الزمر ۳). و لذلك كان أكبر ما عجبوا له عند ما دعاهم الرسول إلى الإسلام، هذا التوحيد للّه فى العبادة، و نبذ ما عداه مما اتخذوه آلهة، فقالوا: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (ص ۵). و قد حطم القرآن عقيدة الشرك، و مضى إلى الأصنام فلم يدع بابا يبين خطل الرأى فى عبادتها، مما ذكرنا بعضه فى الفصول الماضية.

و كانت هذه الطائفة تجعل الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً (الزخرف ۱۹).

و سموهم بنات اللّه، و عجب القرآن لتلك القسمة الضيزى، أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (۱۵۳) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۱۵۴) (الصافات ۱۵۳، ۱۵۴). قد تعجب القرآن منهم قائلا:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (الزخرف ۱۹). و قد نفى القرآن عن اللّه فكرة الوالدية إذ قال: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (الإخلاص ۳).

كما كان فى بلاد العرب أهل كتاب من النصارى و اليهود، و قد ناقش القرآن ما بدلوه من عقائدهم و شرائعهم و كتبهم، و من أهم ما أخذه عليهم فكرة اتخاذ اللّه ولدا، وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۳۰) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳۱) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۳۲) (التوبة ۳۰- ۳۲). و قد أطال القرآن فى الرد عليهم، و ادعائهم أنهم أبناء اللّه و أحباؤه، و أنه لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى (البقرة ۱۱۱). و يطول بى مجال القول إذا أنا فصلت هذه المناقشات و تحدثت عن عناصرها.

و كان مشركو العرب ينكرون البعث، و لا يؤمنون باليوم الآخر، وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ (الجاثية ۲۴). و كان إثبات هذه العقيدة و الرد على منكريها من أهم أغراض القرآن، كما سبق أن وضحنا.

و من عقائد العرب فى الجاهلية تحريم البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحامى، و قد اختلف فى معنى كل واحد من هذه الأربعة.

أما البحيرة «۱» فقال الزجاج: إن أهل الجاهلية كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها و شقوها، و امتنعوا من نحرها و ركوبها، و لا تطرد من ماء، و لا تمنع عن مرعى و هى البحيرة، و قيل إنها إذا نتجت خمسة أبطن نظر

---

(۱) بلوغ الأرب ج ۳ ص ۳۶.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۷

فى الخامس، فإن كان ذكرا ذبحوه و أكلوه، و إن كان أنثى شقوا أذنها، و تركوها ترعى، و لا يستعملها أحد فى حلب و ركوب و نحو ذلك، و قيل غير ذلك، و يظهر أن مذاهب العرب كانت مختلفة فيها، فاختلف لذلك أئمة اللغة فى تفسيرها، و كل قول يرجع إلى مذهب.

و أما السائبة فقيل: هى الناقة تبطن عشرة أبطن إناث، فتهمل و لا تركب، و لا يجز و برها، و لا يشرب لبنها إلا ضيف، و قيل: هى التى تسيب للأصنام، فتعطى، و لا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل و نحوهم، و قيل هى البعير يدرك نتاج نتاجه، فيترك و لا يركب، و قيل غير ذلك.

و أما الوصيلة، فقال الفراء هى: الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين «۱»، و إذا ولدت فى آخرها عناقا و جديا، قيل وصلت أخاها، فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء، و تجرى مجرى السائبة، و قيل: هى الشاة تنتج سبعة أبطن، فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشىء، إلا أن تموت، فيأكلها الرجال و النساء، و قال ابن قتيبة: إن كان السابع ذكرا ذبح، و أكلوا منه دون النساء، و قالوا: خالصة لذكورنا، محرمة على أزواجنا، و إن كانت أنثى تركت فى الغنم، و إن كان ذكرا و أنثى، قالوا: وصلت أخاها، فتترك معه، و لا ينتفع بها إلا الرجال دون النساء، و قيل غير ذلك.

و أما الحامى فقيل: هو الفحل إذا لقح ولد ولده، فيقولون: قد حمى ظهره، فيهمل، و لا يطرد عن ماء و لا مرعى، و قيل: هو الفحل، يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: حمى ظهره، فلا يحمل عليه، و لا يمنع من ماء و لا مرعى، و قيل غير ذلك، و لعل اختلاف التفسير راجع إلى اختلاف مذاهب العرب، كما سبق أن ذكرنا.

و قد أبطل الإسلام ذلك، فقال: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (المائدة ۱۰۳). كما أبطل عقيدتهم فى تحريم إناث الأنعام حينا و ذكورها حينا، و قد سبق أن ذكرنا ذلك فى باب الجدل.

و من الناحية الاجتماعية صور القرآن العرب جماعات متعادية، تعتز كل قبيلة بعصبيتها، و تزهو بنسبها، و تفتخر بنفسها، و قد هدم القرآن الوحدة القبلية، و أراد أن يضع مكانها وحدة إسلامية شاملة، لا يعتز المرء فيها بجنسه،

---

(۱) العناق الأنثى من أولاد المعز.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۸

و لكن بعمله، فقرر أن العالم مكون من شعوب و قبائل للتعارف، لا للتناحر و التنافر، يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا (الحجرات ۱۳). فلا يكون ذلك مصدر حرب و قتال، و لا سببا للتكاثر و الافتخار، و قرر أخوّة المؤمنين، لا فرق بين عربى و عجمى، و أن مصدر التفاضل عند اللّه إنما هو التقوى فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات ۱۰). إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ (الحجرات ۱۳). و قد امتن اللّه على العرب بإنقاذهم من تلك الحياة التى يسودها البغض، و يملؤها العداء فقال: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً (آل عمران ۱۰۳). و قد حثهم القرآن على الاحتفاظ بهذه الأخوة، و أن يعتصموا بحبل اللّه جميعا و لا يتفرقوا.

و نزل القرآن و كان بعض العرب يئد البنت، و يكره أن تولد له بنت، و قد نعى القرآن على هذا البعض تلك النظرة الخاطئة، منددا بها، فقال: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۵۹) (النحل ۵۸، ۵۹). كما عطف القلوب على هذه الموءودة تسأل يوم القيامة عما جنته من ذنوب أدت إلى وأدها، و هو بذلك يثير تفكير الوائدين ليروا حقيقة الدافع إلى وأد بناتهم، و يثير وجدانهم، حين يتمثلون قسوتهم فى وأد طفلة بريئة لم تجن ذنبا، فقال و هو يصف اليوم الآخر: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹) (التكوير ۸، ۹).

كما كان بعض العرب يقتل أولاده خشية الإنفاق و خوف الفقر، و هم الفقراء من بعض قبائل العرب، و قد نزل فى هؤلاء قوله تعالى: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (الإسراء ۳۱).

و لم يرض القرآن عن كثير من صلاتهم بالمرأة فمن ذلك أن الرجل من العرب كان إذا مات عن المرأة أو طلقها، قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها، و إن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، و قد أبطل اللّه ذلك بقوله سبحانه: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِيلًا (النساء ۲۲).

و من ذلك أنهم كانوا يطلقون النساء، فإذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن، لا عن رغبة فى هذه المراجعة و لا عن محبة، و لكن ضرارا، لقصد تطويل العدة، فنهى القرآن عن ذلك فقال: وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (البقرة ۲۳۱).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۸۹

و من ذلك أنهم كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن، حمية جاهلية، فأنكر القرآن ذلك بقوله: وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة ۲۳۲).

و من ذلك أنهم كانوا إذا مات الرجل منهم، كان أولياؤه أحق بامرأته، فإذا أراد بعضهم تزوجها، و إن رأوا زوجوها، و إن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، و إن أرادوا سمحوا لها بالزواج على أن يأخذوا ميراثها، أو تدفع إليهم صداقها، فنهى اللّه عن ذلك فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَ (النساء ۱۹). و فى هذه المعاملة إجحاف بحق المرأة و حجر على حريتها يأباه الإسلام.

و سجل القرآن على المرأة الجاهلية تبرجها و مبالغتها فى التزين، و نهى الإسلام المرأة المسلمة عن التشبه بها فى قوله: وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى (الأحزاب ۳۳).

و مما سجله القرآن من عوائدهم شربهم الخمر، و لعبهم الميسر، و استقسامهم بالأزلام، و معنى الاستقسام بالأزلام أن الرجل كان إذا أراد سفرا أو تجارة أو زواجا، أو غير ذلك مما يعنيه من الأمور- جاء إلى هبل، و هو أعظم صنم لقريش بمكة، و لدى سادن الكعبة أزلام، و هى قداح مستوية فى المقدار، و طلب منه أن يجيل هذه القداح، فإذا خرج القدح الآمر مضى لطيته، و إن خرج الناهى أعرض و انتهى، و قد حرم القرآن ذلك كله فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (المائدة ۹۰).

و من عاداتهم التى سجلها القرآن و نهى عنها النسىء، فقد كانوا يعتقدون أن من الدين تعظيم الأشهر الحرم و هى أربعة: المحرم و رجب و ذو القعدة و ذو الحجة، فكانوا يمتنعون فيها عن القتال، و لكن قبائل كانت تستبيح القتال فى الشهر الحرام، على أن يحرموا مكانه شهرا آخر من أشهر الحل، و هذا هو النسىء، فكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد، لا هذه الأشهر بأعيانها، فحرم القرآن هذا النسىء فى قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۳۷) (التوبة ۳۶، ۳۷).

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۰

أما حياتهم الاقتصادية فقد صورهم القرآن قوما يحبون التجارة، لدرجة أنها تملك عليهم قلوبهم فينصرفون إليها، حتى عن الصلاة و العبادة، قال سبحانه:

وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (الجمعة ۱۱)، و نزلت سورة يمنّ فيها على قريش بنعمة الأمن التى بها يجوبون البلاد العربية فى الشتاء و الصيف من غير أن يزعجهم إغارة مغير أو قطع طريق.

هذا، و قد كان فى بلاد العرب من يستحل الربا، و لا يرى فارقا بين البيع و الربا، و من هؤلاء من كان يأخذ الربا أضعافا مضاعفة، و قد نهى القرآن عن الربا فقال: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا (البقرة ۲۷۵). يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ۱۳۰).

و صور القرآن حياتهم الثقافية قوما أميين، ليست لديهم معارف منظمة مكتوبة، و لذلك امتن عليهم بأن هذا الدين الجديد فاتحة عهد عرفان و هداية، فقال: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الجمعة ۲)، و لكنهم كانوا يعرفون القلم، و به كان يكتب بعضهم، اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (۳) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) (العلق ۳- ۴). و برغم هذه الأمية يقرر القرآن شدة لددهم، و قوتهم فى المراء و الجدل، إذ قال: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (مريم ۹۷). و من معارف العرب التى أشار القرآن إليها علمهم بالنجوم و مواقعها، و لذلك امتن عليهم بخلق هذه النجوم، لأنها مصباح فى الظلام، يهديهم فى البر و البحر، وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (الأنعام ۹۷).

***

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۱

الفصل الثانى موازنات

أقصد بعقد هذه الموازنات أن نتبين الدقة القرآنية فى تصوير المعنى تصويرا ينقل إلى النفس الفكرة نقلا أمينا، و لكنى لا أريد أن أعقد كل ما يمكن من الموازنات، فذلك ما لم يتيسر لى القيام به إلى اليوم، فضلا عن أنه فوق طاقتى، و كل ما أريده الآن هو عرض ما أمكننى من هذه الموازنات، راجيا أن أوفق إلى الإكثار منها، بقدر ما أستطيعه فى قابل الطبعات إن شاء اللّه.

۱- قال تعالى: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (يس ۳۹).

و قال ابن المعتز:

و لاح ضوء هلال كاد يفضحنامثل القلامة قد قدّت من الظفر و قال أيضا:

انظر إليه كزورق من فضةقد أثقلته حمولة من عنبر و قال أيضا:

انظر إلى حسن هلال بدايهتك من أنواره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضةيحصد من زهر الدجى نرجسا و قال السرىّ الرفاء:

و كأن الهلال نون لجينغرّقت فى صحيفة زرقاء و قال أيضا:

و لاح لنا الهلال كشطر طوقعلى لبّات زرقاء اللباس تتحدث هذه النصوص كلها عن الهلال، و لكى ندرك الفرق فى القيمة بين هذه النصوص بعضها و بعض، نتبين معنى كل نص منها، لنرى أيها أدق و أوفى:

أما الآية الكريمة فإنها تتحدث عن تلك التنقلات التى تحدث للقمر بقدرة اللّه، فبينا هو وليد، إذا به ينمو رويدا رويدا، حتى يصبح بدرا مكتملا، ثم يعود أدراجه،

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۲

و ينقص قليلا قليلا، حتى يعود كعود الكباسة القديم، دقيقا معوجا لا يكاد يرى، و لا يؤبه له، بعد أن كان ملء البصر، و ملء الفؤاد، و

أنت بـذلك ترى أن التشبيه الـذى جاء فى الآية كان له نصـيب فى أداء المعنى، و لم يجئ بعد أن اسـتوفى المعنى تمامه، و كان دقيقا أتم دقة، فى أداء المعنى و تصويره كاملا.

أمـا بيت ابن المعتز الأول، فإن التشبيه الـذى أورده لا دخل له أصـلا فى الفكرة التى يريـد نقلها إلى قارئه، فإن كون الهلال مثل قلامة الظفر لاـ دخل له فى أنه كاد يفضـحهم، بل على العكس يقلل من شأن الفكرة و يضـعفها، فإن هـذا الهلال الضـئيل الـذى يشـبه قلامة الظفر، خليق به ألاـ يكون له أثر ما فى تبديـد ظلمـة الليل المتكاثفـة، و خليق به ألا يفضـحهم و لا يبين عن مكانهم، و بـذلك ترى أن الصلة ليست وثيقة بين شطرى البيت، و لا بين التشبيه و الفكرة التى جاء من أجلها.

و فى بيته الثـانى سـبق أن بينـا وجوه النقص فيه «۱»، و تحـدثنا عن أن نفاسـة المشـبّه به لاـ ترفع من شـأن التشبيه، و لاـ تستر ما فيه من ضعف، و ذكرنا أن انتزاع الصورة من الخيال لا يزيد المشبه وضوحا، و لا يمنحه قوة.

أمـا بيته الثـالث فضـعيف متهالـك، لم يصور الهلال كما تراه العين، و لا كما تحس به النفس، ففضـلا عن غفلـة ابن المعتز عما يبعثه الهلال الجديـد من آمال جديـدة فى النفس، و وقوفه عنـد حـد التصوير البصـرى لم يوفق فى هـذا التصوير، فإن الهلال فى نظر العين هادئ ساكن، و المنجل فى يد الحاصد متحرك فى سرعة، فكيف نتخيل الهلال منجلا يحصد، و هو لم يتحرك، ثم ما الصلة بين زهر الـدجى و بين النرجس، و كيف يحصـد الهلال هـذا الزهر، و الزهر باق فى مكانه لا ينمحى و لا يزول، و العهـد بما يحصـد أن يتخلى عن مكانه. و من ذلك ترى نقص التشبيه و قصوره.

و اقتصـر السّرى الرفاء على التصوير البصـرى أيضا ثمّ فاتته الدقـة عنـد ما جعل هـذه النون من اللجين غريقة فى صـحيفة زرقاء، فصور لنفسك أى قدر هذه التى تشـبه بها السـماء، و تأمل أ هناك سبب يدعو إلى جعل هذه النون غريقة فى تلك القدر الضخمة؟! فالغريق يعلو، و يهبط، و يبدو، و يختفى، مما لا تراه العين فى الهلال الهادى المطمئن.

و انظر، أ تجـد فى بيته الثانى تشبيها زادك شـعورا بالهلال عنـد ما جعله نصف طوق فضـلا عن عدم دقته؟! و تأمل أى صـلة تربط بين السماء و لبة فتاة تلبس ثيابا زرقاء؟!.

---

(۱) راجع ص ۱۸۹.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۳

و بذلك العرض الموجز تتبين الفرق بين تشبيه القرآن الدقيق المصور و بين تلك التشبيهات الضعيفة العرجاء.

۲- و أطال القدماء فى الموازنة بين قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ (البقرة ۱۷۹). و قولهم: «القتل أنفى للقتل». قالوا: و فضله عليه من وجوه:

أولها: أن الآية الكريمة أقل حروفا من كلامهم.

و ثانيهـا: النص على المطلوب و هو ثبوت الحيـاة، بخلاف قولهم لأنه إنما يـدل على المطلوب باللزوم، من جهـة أن نفى القتل يسـتلزم ثبوت الحياة.

و ثالثها: أن تنكير حياة يفيد تعظيما لمنعهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد.

و رابعهـا: اطراده، بخلاـف قولهم، فـإن القتل ينفى القتل إذا كان على وجه القصاص المشـروع، و قـد يكون أدعى للقتل، كما إذا وقع ظلما، كقتلهم غير القاتل، و ظاهر العبارة يحتمل المعنيين بخلاف القصاص.

و خامسها: أن فيه تكريرا غيره أبلغ منه، و متى كان التكرير كذلك فهو مقصر عن أقصى طبقات البلاغة.

و سادسها: استغناؤه عما ذكره أكثر من حذفه، و هو (من) بعد أفعل التفضيل الواقع خبرا.

و سابعها: أن القصاص سبب للموت الذى هو ضد الحياة، فما فى الآية ملحق بالطباق.

و ثامنها: سلامة الآية الكريمة من لفظ القتل المشعر بالوحشة، و تاسعها ظهور العدل فى كلمة القصاص.

۳- و تحدث الشعراء عن الصبح، فقال السرى الرفاء:

انظر إلى الليل، كيف تصدعهرايةَ صبح مبيضة العذب

كراهب جن للهوى طربافشق جلبابه من الطرب و قال الشريف الرضى:

و كأنما أولى الصباح و قد بدافوق الطويلع «۱» راكب متلثم

و أذاع «۲» بالظلماء فتق «۳» واضح كالطعنة النجلاء يتبعها دم و قال أيضا:

و ليلة خضتها على عجلو صبحها بالظلام معتصم

---

(۱) هضبة بمكة.

(۲) ذهب.

(۳) صبح.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۴ تطلع الفجر من جوانبهاو انفلتت من عقالها الظلم و قال أيضا:

و الصبح قد أخذت أنامل كفهفى كل جيب للظلام مزرر

فكأنما فى الغرب راكب أدهميحثثه فى الشرق راكب أشقر و ليس كل ذلك الشعر بباعث إلى نفسك الشعور بما فى الصبح من يقظة و حياة، كما يبعثه إلى نفسك تلك الكلمة القرآنية المختارة: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (التكوير ۱۸).

فإنها تحمل إليك معنى الحياة التى دبت فى الكون بعد طول هجوعه، و اليقظة التى شملته بعد رقاد و همود، و يصور لك الوجود، و قد بدأ يفتح عينيه و ينهض من سبات، أما هذه الأبيات من الشعر فإنها وقفت تتلمس لهذه الظاهرة الكونية شبيها بصريا، و قد أخفقت جميعها فى هذا التصوير البصرى، فشعر السرى الرفاء تلمس للصبح مثيلا، فوجد فى الراية ذات العذبات البيض شبيها له، و لا شىء يجمع بين المشبه و المشبه به سوى هذا اللون الأبيض، أما الإحساس النفسى فلا دخل له فى الربط بين هذين الطرفين، ثم جعل السرى الليل راهبا، و لا ندرى كيف يدفع الهوى راهبا إلى الجنون و هو راهب، و ليت شعرى ما الذى يبدو من الراهب إذا شق ثوبه؟! و إذا كان الراهب أسود اللون فهل يبدو تحت جلبابه سوى السواد، و شق الثوب من مجنون إنما يكون فى سرعة لا- تمثل ضوء الصباح الزاحف فى بطء.

أما شعر الشريف الرضى الأول فقد أجهدت ذهنى فى أن أربط صلة بين الصبح و الراكب المتلثم، فلم أجد رابطا ذا قيمة يصل بينهما، و لما ذا اختار الشاعر الراكب دون الماشى؟ و ما لون هذا الراكب؟ و على أى شىء يركب؟ و هل الصبح كمتلثم يظل متلثما، ثم يبدى صفحة وجهه دفعة واحدة؟ و ما الصورة التى ترتسم فى ذهنك لهذا الصبح المتلثم الراكب؟ و هل هيئة الصبح تشبه هيئة راكب متلثم؟ و فيم؟

كل هذه أسئلة تخرج منها بوهن الصلة بين الصبح و هذه الصورة التى يرسمها الشاعر، و فى البيت الثانى يصور لك هذا الصبح، و ما فيه من جمال و روعة، تبعث فى النفس حب الجمال لهذه الطبيعة الباسمة المشرقة- صورة دامية بشعة، تثير فى النفس الخوف و الألم و النفور، صورة طعنة نجلاء يقطر منها الدم، و سبب ذلك إغفال الجانب النفسى الشعورى من الشاعر عند التشبيه، و الوقوف عند حد اللون الذى يربط لون الصبح بتلك الآلة الحادة الطاعنة، و ذلك الضوء الأحمر الحى تزجيه الشمس بين يديها، و لون قطرات الدماء، ألا ما أعظم الفرق بين الشعورين! و ما أقوى أن يتنافرا، حتى لا يجمع بينهما رباط!

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۵

و أخطأ الشريف الرضى التوفيق أيضا عند ما وصف الصبح يسفر بعد ظلام الليل، و إن كانت هذه الصورة فى بعض نواحيها أضوأ من

صاحبتها، عند ما قال:

«تطلع الصبح من جوانبها»، ففى هذا التصوير نوع من الحياة، و لكنه بعيد كل البعد عن أن يصور حياة تكون كما صورتها الآية الكريمة، أما باقى الصورة التى ترسمها الأبيات فقد أخطأت فى رسم هذه الظاهرة الطبيعية، فإن الشعر يصور لك أن الصبح لم يلبث أن أطل من الأفق، حتى مضى الليل مسرعا يهرول فى جريه، كأنما قد أسفر الصبح و مضى الليل بين غمضة عين و انتباهتها، و ذلك تصوير غير دقيق، لأن الليل ينحسر قليلا قليلا عن الصبح، حتى يتم أسفاره، كما أن النهار ينحسر قليلا قليلا، تاركا الكون لظلام الليل، و عبر القرآن عن ذلك فى قوله سبحانه: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (يس ۳۷). فاستخدم كلمة السلخ لتوحى بما ذكرناه.

و عاد فى شعره الثالث إلى الراكب، لا يلمح من جمال الصبح و بهجته سوى لونه، و نقدنا لهذا الشعر هو ما سبق أن أوضحناه.

۴- و وصف الرسول كتاب اللّه، كما وصف اللّه كتابه فى القرآن، فقال النبى:

«إن أحسن الحديث كتاب اللّه، قد أفلح من زينة اللّه فى قلبه، و أدخله فى الإسلام بعد الكفر، و اختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدق الحديث و أبلغه «۱»» و قال تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (الزمر ۲۳). و أنت ترى الفرق واضحا بين قوة الكلامين، و المنهجين، و الاتجاهين.

۵- و صاغ أبو بكر جملة على مثال الجملة القرآنية، فقال من خطبة له:

«و اعلموا أن أكيس الكيس التقى «۲»» على مثال قوله تعالى: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى (البقرة ۱۹۷)، و لا ريب أن النص القرآنى، يصور تلك الرحلة التى ينتقل فيها الإنسان من الحياة الدنيا إلى الآخرة، و هى رحلة تنتهى بحياة خالدة يحتاج المرء فيها إلى زاد يعيش عليه، فتصوير التقوى بأنها خير زاد يوحى بذلك كله، كما يوحى بالحاجة إليها، كما يحتاج المسافر إلى ما يتزود به فى غربته، و لم تزد جملة أبى بكر على أن وصفت التقوى بأنها أحكم ما يتصف به العقلاء، فلم توح الجملة إلى النفس بما أوحت به جملة القرآن.

---

(۱) ورد النص فى كتاب إعجاز القرآن ص ۱۱۱.

(۲) ورد فى المصدر السابق ص ۱۱۵.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۶

۶- و من كتاب أرسله أبو عبيدة و معاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب: «إنّا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه و تجب فيه القلوب «۱»»، و قد وصف القرآن هذا اليوم، فقال: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (النور ۳۷)، و كلمة «التقلب» فى الآية أشد دلالة على ما يصيب القلوب من الفزع و الاضطراب فى ذلك اليوم، من الوجيب، فضلا عما فى النص القرآنى من خلوصه من تكرير «فيه» الواردة فى الرسالة.

۷- و عند ما يتأثر الشاعر القرآن، يبدو الفرق واضحا بين الأصل و التقليد، و أصغ إلى حسان يقول:

و هل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمى، و هداة يهتدون بمهتد أخذه من قوله سبحانه: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ (الرعد ۱۶). فأنت ترى حسان يوازن بين ضلّال و هداة، و ليس الفرق بينهما من الوضوح و القوة كالفرق بين الأعمى و البصير، و الظلمات و النور، فالفرق هنا واضح ملموس، يشعر به الناس جميعا، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق، و آمنت بأن هناك بونا شاسعا بينهما، انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال و المهتدى من فرق بعيد.

۸- و قال حسان أيضا فى رثاء رسول اللّه:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدىحريص على أن يستقيموا و يهتدوا أخذه من قوله تعالى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (التوبة ۱۲۸). و قوة الآية القرآنية تبدو فى إظهار نتيجة الحيد عن الهدى، و هى الهلاك و العذاب، و فى ذلك من التخويف لهم ما فيه، فهو يبرز هذه النتيجة كأنها حقيقة واقعة، تؤلم الرسول، و تثقل عليه، و تبدو هذه القوة أيضا فى تعميم الحرص، فهو حريص على هدايتهم، حريص على خيرهم، حريص على أن يظفروا فى الآخرة بالثواب و النعيم المقيم، و كل ذلك و أكثر منه يفهم من قوله: «حريص عليكم»، أما حسان فقد خصص و لم يطلق.

۹- و قال حسان فى غزوة بدر:

سرنا و ساروا إلى بدر لحينهملو يعلمون يقين العلم ما ساروا

دلاهمو بغرور، ثم أسلمهمإن الخبيث لمن و لاه غرار

و قال: إنى لكم جار، فأوردهمشر الموارد، فيه الخزى و العار

---

(۱) ورد فى المصدر السابق ص ۱۱۶.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۷ ثم التقينا، فولوا عن سراتهممن منجدين، و منهم فرقة غاروا يستوحى ذلك من قوله تعالى: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (الأنفال ۴۸). و تأمل التصوير القوى البارع فى القرآن لتزيين الشيطان أعمال الكافرين لهم، فإن القرآن قد نقل ذلك الحديث الذى أوحى به الشيطان إلى أوليائه و كيف ملأ قلبهم بالغرور، و هنا يجمل حسان، بينما يفصل القرآن، و فى هذا التفصيل سر الحياة، تلك الحياة التى ترينا الشيطان ناكصا على عقبيه، عند ما تراءت الفئتان، يبرأ من هؤلاء الذين غرهم بخداعه، و أسلمهم إلى الموت بكذبه و إيهامه، و هذه الحياة هى التى تنقص شعر حسان.

۱۰- و تأمل الفرق فى الأسلوب، عند ما حور النابغة الجعدى أسلوب القرآن قليلا، فقال:

الحمد للّه، لا شريك لهمن لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل فى النهار، و فى الليل نهارا، يفرج الظلما فقد حور قوله سبحانه: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ (الحج ۶۱). فحذف المولج، و تقديم فى الليل، و تنكير نهارا، و المجىء بجملة «يفرج الظلما»، كل ذلك أضعف أسلوب الشاعر، و باعد بينه و بين الأسلوب القوى للقرآن.

۱۱- و خذ قول الشاعر:

فإنك لا تدرى بأية بلدةتمت، و لا ما يحدث اللّه فى غد المستمد من قوله تعالى: وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (لقمان ۳۴)، تر التعميم فى الآية الكريمة أكسبها فخامة و قوة، و التعبير بتكسب فيه تصريح بعجز النفس عن أن تعرف ما تعمله هى نفسها فى الغد، و ذلك ما لا تجده عند الشاعر الذى عمم فيما يحدثه اللّه فى غد، و لم يكن لهذا التعميم ما للتخصيص من قوة التعجيز.

۱۲- و هذا الشعر الذى ينسب إلى حمزة فى غزوة بدر، يتحدث عن الكفار:

أولئك قوم قتلوا فى ضلالهمو خلوا لواء غير محتضر النصر

لواء ضلال قاد إبليس أهلهفخاس بهم، إن الخبيث إلى غدر

فقال لهم إذ عاين الأمر واضحا:برئت إليكم، ما بى اليوم من صبر

فإنى أرى ما لا ترون، و إننىأخاف عقاب اللّه، و اللّه ذو قسر

فقدمهم للحين، حتى تورطواو كان بما لم يخبر القوم ذا خبر

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۸

و هو يستوحى كحسان قوله تعالى: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ... (الأنفال ۴۸) فأى فرق شاسع بين الأسلوبين و بين التصويرين، فالأسلوب فى الشعر متهاو ضعيف، بينما هو فى الآية قوى رائع، يصور الشيطان و قد ملأ أفئدتهم إعجابا بأعمالهم، فاغتروا بها، و تكاد تستمع إلى وسوسته، و هو يؤكد لهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ما دام جارا لهم، و تتخيله موليا الأدبار بعد أن تراءت الفئتان، و بدت أمام عينيه الهزيمة، فيسلم قومه إلى القتل، و يفر غادرا بهم، و يرن فى أذنك براءته منهم، معللا ذلك بأنه يرى ما لا يرون، و بأنه يخاف اللّه، و فى ذلك التصوير من التهكم بهم ما فيه.

أما الشعر فبيّن الضعف، يصف اللواء بأنه غير محتضر النصر. و قوله: إذ عاين الأمر واضحا، ليس بأسلوب شعرى. و الفرق قوى بين: و اللّه شديد العقاب، و قوله:

و اللّه ذو قسر، و أنت ترى أنه برغم أن المعنى قد أوضحه القرآن، لم يستطع الشاعر أن ينهض إلى مستوى رفيع.

*** و للباقلانى منهج فى الموازنة، يبين به فضل كتاب اللّه، هو «أن تنظر أولا فى نظم القرآن، ثم فى شىء من كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فتعرف الفصل بين النظمين، و الفرق بين الكلامين، فإن تبين لك الفصل، و وقعت على جلية الأمر، و حقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، و صادفت المقصد، و إن لم تفهم الفرق، و لم تقع على الفصل، فلا بدّ لك من التقليد، و علمت أنك من جملة العامة، و أن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان «۱»»، ثم أورد الباقلانى بعض خطب الرسول و كتبه، و علق عليها بقوله: «و لا أطول عليك، و أقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك فى الصنعة خطر ... فما أحسب أن يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، و بين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلّى اللّه عليه و سلم فى خطبه و رسائله، و ما عساك تسمعه من كلامه، و يتساقط إليك من ألفاظه، و أقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا، و أمدا مديدا، و ميدانا واسعا، و مكانا شاسعا «۲» ...».

«فإذا أردت زيادة فى التبيين ... فتأمل (هداك اللّه) ما ننسخه لك من خطب الصحابة و البلغاء، لتعلم أن نسجها و نسج ما نقلنا من خطب النبى صلّى اللّه عليه و سلم واحد و سبكها سبك غير مختلف، و إنما يقع بين كلامه و كلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، و بين شعر الشاعرين ... فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمى منهاج، و لجملته طريق، و تبينت ما يمكن فيه من التفاوت- نظرت إلى نظم

---

(۱) إعجاز القرآن للباقلانى ص ۱۰۹.

(۲) المصدر السابق ص ۱۱۴.

من بلاغة القرآن، ص: ۲۹۹

القرآن نظرة أخرى، و تأملته مرة ثانية، فترى بعد موقعه و عالى محله و موضعه «۱» ...» ثم يورد بعض خطب البلغاء و كتبهم، و يقول: «تأمل ذلك و سائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف و أهل البيان و اللسن، و الفصاحة و الفطن ... فسيقع لك الفضل بين كلام الناس و بين كلام رب العالمين، و تعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ... فإن خيل إليك، أو شبه عليك، و ظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر و القرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب، و أبرع من الرسائل و أدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات ... فتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق: إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متفق على كبر محلها و صحة نظمها، و جودة بلاغتها و معانيها، و إجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة، و المعروفين بالحذق فى البراعة، فنقفك على مواضع خللها، و على تفاوت نظمها، و على اختلاف فصولها، و على كثرة فضولها، و على شدة تعسفها، و بعض تكلفها، و ما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه، و بين كلام وضيع، و بين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى «۲» ...» ثم عرض تطبيقا على منهجه معلقة امرئ القيس، و أخذ يبين ما فيها من مجال النقص، و وجوه العيب، ثم قال: «و قد بينا لك أن هذه

القصيدة و نظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة و الرداءة، و السلاسة و الانعقاد، و السلامة و الانحلال، و التمكن و التسهل، و الاسترسال و التوحش و الاستكراه، و له شركاء فى نظائرها، و منازعون فى محاسنها، و معارضون فى بدائعها، و لا سواء كلام ينحت من الصخر تارة، و يذوب تارة، و يتلون تلون الحرباء، و يختلف اختلاف الأهواء، و يكثر فى تصرفه اضطرابه، و تتقاذف به أسبابه، و بين قول يجرى فى سبكه على نظام، و فى رصفه على منهاج، و فى وضعه على حد، و فى صفائه على باب، و فى بهجته و رونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، و مؤتلفه متحد، و متباعده متقارب و شارده مطيع، و مطيعه شارد، و هو على متصرفاته واحد، لا يستصعب فى حال، و لا يتعقد فى شأن «۳»».

ذلك هو منهج الباقلانى فى الموازنات.

*** و إن مجال الموازنات لمتسع بين القرآن و الشعر عند ما يكون الموضوع واحدا، فقد تحدث القرآن و الشعر عن كثير من الغزوات و لم يستطع الشعر برغم تقليده فى كثير من الأحيان للقرآن أن يصل إلى السمو القرآنى، و أن يتناول شتى الأغراض التى تنتظم شئون الجماعة الإسلامية، فى حين أن الشعر الذى تحدث عن هذه الغزوات ضعيف فى جملته لا يخرج عن أغراض الشعر المعروفة يومئذ من مدح أو هجاء أو فخر أو رثاء.

---

(۱) المصدر نفسه ص ۱۱۵.

(۲) المصدر السابق ص ۱۲۶ و ما يليها.

(۳) المصدر نفسه ص ۱۴۷.

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۰

خاتمة

من ذلك يبدو أن القرآن مكون من ألفاظ مختارة دقيقة موحية، قد اتسقت فى جملها، و استقرت فى مكانها، و كونت مع زميلاتها آيات تؤثر فى نفس سامعها بقوة نسجها، و جمال موسيقاها، قد قدم فيها ما قدم، و أخر ما أخر، و ذكر ما ذكر، و حذف ما حذف، و استعملت صيغة دون أخرى، لاعتبارات نفسية دقيقة، و كونت تلك الآيات سورا، ترمى إلى توجيه النفس الوجهة الصحيحة المستقيمة، و لم تكدس الآيات فى السورة تكديسا لا ربط فيه بين الآية و أختها، و لكن كان النهج القرآنى الذى يصل بين الآيات خير نهج يؤثر فى النفس الإنسانية، و يدفعها إلى العمل الصالح المثمر، فى أسلوب يدعو إلى التفكير الهادئ، أو يؤثر تأثيرا سريعا عنيفا.

أما عناصر الموضوعات القرآنية فمما يرتكز على الغرائز الثابتة فى النفس، و هى من أجل ذلك تؤثر عميق التأثير، و تخلد ما بقى الزمن.

هذا، و قد كان لبلاغة القرآن أثر كبير فيما ألف من كتب البلاغة، فمنه اقتبست تلك الكتب كثيرا من أمثلتها، و ألف بعض العلماء كتبا خاصة تعالج ناحية معينة من نواحى البلاغة القرآنية، كما ترى ذلك فى بعض ما أثبتناه من مراجع البحث، و لكن وقف معظمه عند حد الدراسة اللفظية، و عند حدود الجملة.

و لست أزعم أننى وفيت الموضوع حقه، لأن ذلك يتطلب من الجهد و الوقت ما لا أملكه إلى اليوم، و حسبى الآن أننى وضعت منهجا، و رسمت خطة لدراسة البلاغة القرآنية، كما ينبغى أن تكون، مؤملا أن أفتح بذلك أبواب البحث لمن يتخصص فى هذه الدراسة، فيتناول دراسة المفرد و الجملة و السورة و المعنى، على أسس من الاستقراء الشامل، معيدا خصائصها إلى قواعد مطردة، و أصول ثابتة.

و الحمد للّه الذى هدانا لهذا، و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا اللّه.

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۱

مراجع البحث

۱- الإتقان فى علوم القرآن، (المطبعة الأزهرية المصرية سنة ۱۳۱۸ ه).

تأليف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ۹۱۱ ه.

۲- أسرار البلاغة، (الطبعة الثالثة سنة ۱۳۵۸ ه، ۱۹۳۹ م).

تأليف عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ۴۷۱ ه.

۳- الأسلوب، (المطبعة الفاروقية بالإسكندرية سنة ۱۹۳۹ م).

تأليف الأستاذ أحمد الشائب.

۴- الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز، (طبع القسطنطينية سنة ۱۳۱۳ ه).

تأليف عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ۶۶۰ ه.

۵- الأصل و البيان لمعرب القرآن، (مطبعة مصر الحرة).

تأليف الشيخ حمزة فتح اللّه.

۶- أصول النقد الأدبى، (المطبعة الفاروقية بالإسكندرية).

تأليف الأستاذ أحمد الشائب.

۷- إعجاز القرآن (القاهرة سنة ۱۳۴۹ ه).

تأليف محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ۴۰۳ ه.

۸- إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، (مطبعة المقتطف و المقطم سنة ۱۳۴۶ ه، ۱۹۲۸ م) تأليف مصطفى صادق الرافعى.

۹- الإعجاز و الإيجاز، (المطبعة العمومية بمصر سنة ۱۸۹۷ م).

تأليف أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ۴۳۰ ه.

۱۰- الأقصى القريب فى علم البيان، (الطبعة الأولى سنة ۱۳۲۷ ه).

تأليف أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن عمر التنوخى، أحد أعيان المائة السابعة.

۱۱- بدائع القرآن، (مخطوط بدار الكتب رقم ۲۵۰ بلاغة).

تأليف عبد العظيم بن أبى الأصبع المتوفى سنة ۶۵۴ ه.

۱۲- البديع، (مخطوط بدار الكتب رقم ۵ م بلاغة).

تأليف أسامة بن منقذ المتوفى سنة ۵۸۴ ه.

۱۳- البلاغة و علم النفس (محاضرة).

للأستاذ أمين الخولى.

۱۴- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ۱۳۴۳ ه).

للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى.

۱۵- البيان و التبيين، (المطبعة التجارية الكبرى سنة ۱۳۴۵ ه، ۱۹۲۶ م).

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۲

تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ۲۵۵ ه.

۱۶- تاريخ آداب العرب، (الطبعة الرابعة، مطبعة الاستقامة).

تأليف مصطفى صادق الرافعى.

۱۷- تاريخ الأدب العربى، فى صدر الإسلام و العصر الأموى.

(مطبعة العلوم بالقاهرة سنة ۱۳۵۴ ه، ۱۹۳۵ م).

تأليف الأستاذ السباعى بيومى بك.

۱۸- تحرير التحبير، (مخطوط بدار الكتب رقم ۴۶۵ بلاغة).

تأليف عبد العظيم بن أبى الأصبع المتوفى سنة ۶۵۴ ه.

۱۹- تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى، (مطبعة سركيس ببيروت سنة ۱۹۳۵ م).

تأليف أنيس المقدسى.

۲۰- تفسير جزء: عم يتساءلون؟ (الطبعة الثالثة سنة ۱۳۴۱ ه).

تأليف الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ۱۳۲۳ ه، ۱۹۰۵ م.

۲۱- التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم، (القاهرة سنة ۱۹۴۴ م).

تأليف الأستاذ أمين الخولى.

۲۲- التهذيب فى أصول التعريب، (الطبعة الأولى سنة ۱۳۴۲ ه، ۱۹۳۳ م).

تأليف الدكتور أحمد عيسى بك.

۲۳- حصاد الهشيم، (الطبعة الثانية سنة ۱۹۳۲ م).

تأليف إبراهيم عبد القادر المازنى المتوفى سنة ۱۹۴۹ م.

۲۴- خزانة الأدب و غاية الأرب، (مطبعة بولاق سنة ۱۲۹۱ ه).

تأليف أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى المتوفى سنة ۸۳۷ ه.

۲۵- الخواطر الحسان فى المعانى و البيان، (مصر سنة ۱۸۹۶ م).

تأليف جبر ضومط.

۲۶- دراسات فى الأدب الإسلامى، (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر سنة ۱۹۴۷ م).

تأليف الأستاذ محمد خلف اللّه.

۲۷- دراسات فى علم النفس الأدبى، (المطبعة النموذجية سنة ۱۹۴۹ م).

تأليف الأستاذ حامد عبد القادر.

۲۸- دفاع عن البلاغة، (المطبعة الرسالة سنة ۱۹۴۵ م).

تأليف الأستاذ أحمد حسن الزيات.

۲۹- دلائل الإعجاز، (مطبعة المنار سنة ۱۳۳۱ ه).

تأليف عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ۴۷۱ ه.

۳۰- رد معانى الآيات المتشابهات إلى معانى الآيات المحكمات.

(مخطوط بدار الكتب رقم ۱۰۱۹ تفسير).

تأليف ابن العربى المتوفى سنة ۶۳۸ ه.

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۳

۳۱- روح الاجتماع، (المطبعة الرحمانية).

تأليف الدكتور جوستاف لوبون و ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا.

۳۲- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم و السبع المثانى، (إدارة الطباعة المنيرية بمصر).

تأليف السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ۱۲۷۰ ه.

۳۳- سر الفصاحة، (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ۱۳۵۰ ه، ۱۹۲۳ م).

تأليف ابن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ۴۶۶ ه.

۳۴- شرح الإيضاح للخطيب القزوينى، (المطبعة المحمودية التجارية بمصر سنة ۱۳۵۳ ه، ۱۹۳۵ م).

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى.

۳۵- الصناعتين، (مطبعة محمد على صبيح بمصر).

تأليف أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ۳۹۵ ه.

۳۶- الطراز، (مطبعة المقتطف بمصر سنة ۱۳۳۲ ه، ۱۹۱۴ م).

تأليف يحيى بن حمزة العلوى.

۳۷- العمدة فى صناعة الشعر و نقده (الطبعة الأولى سنة ۱۳۲۵ ه، ۱۹۰۷ م).

تأليف الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ۴۶۳ ه.

۳۸- غريب القرآن، (مطبعة حجازى بالقاهرة).

تأليف أبى بكر محمد بن عزيز السجستانى المتوفى سنة ۳۳۰ ه.

۳۹- فقه اللغة و سر العربية، (الطبعة الأولى سنة ۱۳۴۱ ه، ۱۹۲۱ م).

تأليف أبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى المتوفى سنة ۴۳۰ ه.

۴۰- فن القول، (مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ۱۳۶۶ ه، ۱۹۴۷ م).

تأليف الأستاذ أمين الخولى.

۴۱- فنون الأدب، (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر سنة ۱۹۴۵ م).

تأليف ه. ب. تشارلتن، و تعريب الأستاذ زكى نجيب محمود.

۴۲- فى علم النفس، (مطبعة المعارف).

تأليف الأستاذين: على الجارم و مصطفى أمين.

۴۳- القرآن الكريم، (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ۱۳۵۴ ه).

۴۴- قصص القرآن، (الطبعة الأولى سنة ۱۳۵۹ ه، ۱۹۳۷ م).

تأليف محمد أحمد جاد المولى بك و زملائه.

۴۵- قواعد النقد الأدبى (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر سنة ۱۹۳۶ م).

تأليف أسل أبركرمبى، و تعريب الدكتور محمد عوض محمد بك.

۴۶- الكامل. (المطبعة الأزهرية بمصر).

تأليف أبى العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ۲۸۵ ه.

۴۷- كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان. (مطبعة السعادة بمصر سنة ۱۳۲۷ ه) تأليف ابن قيم الجوزية المتوفى سنة

۷۵۱ ه.

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۴

۴۸- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (المطبعة البهية المصرية سنة ۱۳۴۳ ه).

تأليف محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ۵۳۸ ه.

۴۹- الكلمات الحسان فى الحروف السبعة و جمع القرآن. (المطبعة الخيرية سنة ۱۳۲۳ ه) تأليف الشيخ محمد بخيت.

۵۰- المثل السائر فى أدب الكاتب و الشاعر، (المطبعة البهية سنة ۱۳۱۲ ه).

تأليف نصر اللّه بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ۶۳۷ ه.

۵۱- مدارك التنزيل و حقائق التأويل، (المطبعة الحسينية المصرية سنة ۱۳۴۴ ه).

تأليف أبى البركات عبد اللّه النسفى.

۵۲- مراجعات فى الآداب و الفنون، (المطبعة العصرية).

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد.

۵۳- المعرب فى الكلام الأعجمى، (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ۱۳۶۱ ه).

تأليف أبى منصور الجواليقى المتوفى سنة ۵۴۰ ه.

۵۴- مغنى اللبيب، (المطبعة الشرقية سنة ۱۲۹۹ ه).

تأليف ابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ۷۶۱ ه.

۵۵- مقدمة لدراسة بلاغة العرب، (القاهرة سنة ۱۹۲۱ م).

تأليف الدكتور أحمد ضيف.

۵۶- من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب و نقده، (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر سنة ۱۳۶۶ ه، ۱۹۴۷ م).

تأليف الأستاذ محمد خلف اللّه.

۵۷- المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية، (المطبعة الأولى سنة ۱۳۱۲ ه) تأليف الشيخ حمزة فتح اللّه.

۵۸- النظم الاجتماعية و السياسية عند قدماء العرب و الأمم السامية، (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ۱۹۴۹ م).

تأليف محمد محمود جمعة.

۵۹- النظم الفنى فى القرآن، (المطبعة النموذجية).

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى.

۶۰- نقد النثر، (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر سنة ۱۳۵۷ ه، ۱۹۳۸ م).

تأليف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ۳۱۰ ه.

۶۱- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، (مطبعة الآداب و المؤيد بمصر سنة ۱۳۱۷ ه).

تأليف محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ۶۰۶ ه.

۶۲- الهول المطرب فى القول بالموجب، (مخطوط بدار الكتب).

۶۳- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، (الطبعة الأولى سنة ۱۲۸۹ ه).

تأليف الشيخ حسين المرصفى المتوفى سنة ۱۳۰۷ ه، ۱۸۸۹ م.

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۵

الفهرس

إهداء الكتاب ۳

المقدمة ۵

الكتاب الأول مقدمات تمهيدية: ۹

العمل الأدبى ۹

مجال الأدب بين مظاهر الشعور ۱۵

علوم البلاغة و النقد الأدبى ۲۱

القراءة الأدبية ۲۶

المنهج الأدبى فى القرآن ۳۶

إعجاز القرآن ۴۳

الفصل الأول: ألفاظ القرآن ۴۹

البلاغة و النظم ۴۹

تخير اللفظ ۵۱

الفاصلة ۶۴

الغريب ۷۴

المعرب ۷۶

الزائد ۷۸

الفصل الثانى: الآية القرآنية ۸۵

تكونها ۸۵

التقديم و التأخير ۹۰

الذكر و الحذف ۹۵

التنكير و التعريف ۱۰۲

الإفراد و التذكير و فروعهما ۱۰۹

التوكيد و التكرير ۱۱۲

القصر ۱۲۱

الاستفهام ۱۲۶

الأمر و النهى ۱۲۹

التمنى و الترجى ۱۲۹

النداء ۱۳۰

القسم ۱۳۲

الفصل و الوصل ۱۳۴

من بلاغة القرآن، ص: ۳۰۶

بدائع القرآن ۱۴۰

التشبيه فى القرآن ۱۴۵

«كذلك» فى القرآن الكريم ۱۶۳

التصوير بالاستعارة ۱۶۶

مجازات القرآن ۱۷۱

الكناية و التعريض ۱۷۳

الفصل الثالث: السورة ۱۷۵

الفصل الرابع: أسلوب القرآن ۱۸۶

الكتاب الثانى الفصل الأول: المعانى القرآنية ۱۹۳

اللّه ۱۹۳

محمد ۲۰۴

القرآن ۲۱۳

يوم القيامة ۲۱۹

الجنة ۲۲۷

النار ۲۳۱

الجهاد ۲۳۵

المعارك الحربية ۲۴۲

الإنسان المثالى ۲۴۹

الحياة الدنيا ۲۵۳

عبادة الأوثان ۲۵۵

العقائد و العبادات ۲۵۷

الأحكام ۲۶۳

مظاهر الطبيعة ۲۶۶

المدح ۲۷۰

الهجاء ۲۷۱

العتاب ۲۷۳

مصر فى القرآن ۲۷۴

القصة فى القرآن ۲۷۶

الجدل ۲۸۱

الابتهال ۲۸۴

بعض صور الحياة الجاهلية ۲۸۵

الفصل الثانى: موازنات ۲۹۱

خاتمة ۳۰۰

مراجع البحث ۳۰۱

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩